



مَجَلَّةُ مَجَعِ الْعَرَبِ الْحَسِيرِ الْأَرْدُنِيِّ

السنة الحادية والعشرون

العدد ٥٣

تموز - كانون الأول ١٩٩٧ م

ذو القعدة ١٤١٧ هـ ربى الآخر ١٤١٨ هـ



مَحَلَّ مَجْمُعِ الْعِنْدِ لِلْعَرَبِيَّةِ الْأَرَدِيَّةِ

السنة الحادية والعشرون

العدد ٥٣

تموز - كانون الأول ١٩٩٧

نـو القـعدـة ١٤١٧هـ - رـبـيعـ الـآخـر ١٤١٨هـ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanearb.com رابط بديل

هيئة تحرير المجلة

رئيس التحرير: الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة
رئيس المجتمع

الأعضاء:

- الأستاذ الدكتور محمود السمرة نائب رئيس المجمع
الأستاذ الدكتور سعيد الليل
الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم
الأستاذ عبد الرحمن بشناق
الأستاذ الدكتور فتحي شاكر
الأستاذ الدكتور عبد المجيد نصيف
الأستاذ الدكتور لامسان عباس
الأستاذ الدكتور عبد اللطيف هريات
الأستاذ الدكتور عبد الغنيز الدورعي
الأستاذ الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني
الأستاذ الدكتور هشام غصين

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
٩	أولاً : البحوث
١١	الدكتور حمزة بن قبلان المزیني مكانة اللغة العربية في الدراسات المعاصرة
٦٥	د. حسن حمزة ود. سلام بزي - حمزة الصرف بين سبويه والقراء
٨٥	الدكتور عرسان حسين الراميني طرقه بن العبد: نحو تصحيح الإطار الزمني لحياة الشعراه الجاهليين
١١٣	الدكتور شفيق محمد عبدالرحمن الرقب ابن عقيل الزرعى، حياته وشعره
١٥٩	الدكتور سلمان القضاة المراقة القضائية: نشأتها وأصولها.. لغتها.. أساليبها.. طرق أداتها
١٩٥	ثانياً: مع الكتب
١٩٧	الأستاذ عبدالله يحيى المريخي مع كتاب الحنف لأبي العرب
٢٣١	الدكتور نوري حمودي القيسى نصوص أخرى من صناعة الكتاب لأبي جعفر النحاس
٢٣٧	ثالثاً: تعليقات ومناقشات
٢٢٩	الأستاذ جورج عيسى في رسم الكلمات وضبطها، نظرة نقدية في (المعجم المدرسي) تأليف محمد خير أبو حرب
٢٥١	الدكتور عباس علي الموسوة باء الاستبدال في العربية الفصحى بالمنهج التاريخي
٢٧٢	رابعاً: أخبار مجتمعية

أولاً: البحوث

مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة

د. حمزة بن قيلان المزيني

جامعة الملك سعود / قسم اللغة العربية

الرياض

مدخل

يشيع في المجال الثقافي والعلمي العربي في العصر الحاضر كثیر من المفاهيم التي تقف حاجزاً بين العرب والاستفادة من التقدم العلمي المعاصر. وأوضح ما تكون هذه المفاهيم في مجال الدراسات الإنسانية. ومن هذه المفاهيم الشائعة القول بأن العلوم الإنسانية في العصر الحاضر نشأت في ظروف غربية عن الظروف العربية الإسلامية وفي سياق فكري مختلف؛ ولذلك فإن هذه العلوم لا يمكن تعليمها على الحضارات الأخرى ومنها الحضارة العربية الإسلامية. ومن أجل ذلك كثيراً ما نسمع عن بدائل مفترحة لهذه العلوم الغربية من حيث النشأة، فنجد من ينادي بعلم اجتماع عربي أو إسلامي أو بعلم اقتصاد عربي أو إسلامي أو بلسانيات عربية إلى غير ذلك.

ولا شك أن الرابط بين العلوم الإنسانية والظروف والسياسات الفكرية في المجتمعات الغربية التي تأسست فيها ليس قوياً باطلاق الكلمة؛ فقد نشأت هذه العلوم أساساً استجابة لظواهر وجدت في تلك المجتمعات. لكن الأمر الذي يجب أن يوضح هو أنه على الرغم من هذه الحقيقة فإن هذه العلوم قابلة للتطبيق في حضارات أخرى غير الحضارة الغربية. وتأتي إمكانية التطبيق هذه من حقيقة أخرى لا يكثير الجدال حولها، تلك هي أن العلوم في تطورها تتفصل جزئياً عن المؤشرات الأساسية التي كانت نتيجة لها وتحو نحو التعميم والشمولي. فهي في تطورها لا بد أن تتناول ظواهر لم تكن وجوه القرب بينها وبين الظواهر الأولى

واضحة، كما أنه لا بد - إن أرادت أن تصل إلى مرتبة النظريات العلمية - أن تتطرق في مجتمعات غير المجتمعات الأولى التي نشأت فيها وذلك نتيجة للتجريد الذي يصاحب كل نظرية قصدها عمق التفسير والغوص وراء الظواهر الخادعة. ثم إن ما يدعى بعلوم إنسانية غربية ليس نتاجاً للفربين وحدهم الآن وليس مطبقاً على مجتمعات غربية فقط، فالمشاركون في إنتاجه ينتمون إلى خلفيات حضارية متعددة والمجتمعات المدروسة تتبع إلى حضارات متعددة أيضاً. بل إن ما يدعى نتاجاً علمياً غريباً مصوغاً على شكل نظريات دقيقة الآن يمكن مقارنته بما يوجد من ملاحظات وإسهامات في حضارات قديمة وغير غربية. وسنرى فيما بعد أن بعض تلك الحضارات القديمة تناولت الظواهر التي تدرسها العلوم الإنسانية في الغرب الآن بأسلوب يقرب من الأساليب العلمية التي تدعى غربية الآن.

وتمثل مثل هذه المفاهيم أساساً لكثير من المفاهيم الفرعية التي ترى الشيء نفسه في مجالات معينة. ولأنني مهم بالدراسات اللسانية فلا يأس من إيراد بعض تلك المفاهيم. وأكثر المفاهيم رواجاً في هذا المجال أن دارس اللغة العربية وخصوصاً النحو العربي ليس في حاجة إلى معرفة العلوم اللسانية المعاصرة. وذلك لأن النحو العربي نحو خاص بهذه اللغة التي لا يشبهها لغة من اللغات، وهو علم عربي خالص لم يترك العرب فيه مزيداً لمستزيد. وقد خلق هذا المفهوم هوة سحيقة بين دارسي اللسانيات في العالم العربي ودارسي النحو.

ومن المفاهيم الراunga المماثلة أنه كثيراً ما يتعجب من دراسة بعض المبتعثين العرب اللغة العربية نحو وأدباً في الغرب. بل يصل الأمر إلى القول بأن دارس النحو العربي ليس بحاجة إلى معرفة أي لغة أجنبية إذ أن كل ما يحتاجه مكتوب باللغة العربية.

وهذه المفاهيم ليست الوحيدة لكن أثراًها وأمثالها كان كبيراً في تأثير الدراسات اللسانية العربية. وقد سبق لبعض الباحثين الإشارة إلى الآخر السلبي المترتب على عدم الاهتمام بالاطلاع على الدراسات المعاصرة. ومن هؤلاء

عبدالسلام المسدي^(١) وعبدالقادر الفاسي الفهري^(٢) وكيس فريستينغ^(٣) وحمزة المزینی^(٤) وغيرهم.

وسوف أحاول في هذا البحث أن أتناول جانبًا مهمًا من هذه القضية وهو جهل كثیر من المتخصصين باللغة العربية في الوطن العربي بالأبحاث التي تتجزء في الغرب عن اللغة العربية. ولست أريد لهذا البحث أن يكون وسيلة لدغدغة العواطف القومية وإشاعة الرضا في النفوس والزهو بهذا الاهتمام. بل إن قصدي هو أن أبين أنه لا يسع المتخصص في اللغة العربية اليوم إغفال هذه الدراسات. وعلى الرغم من أن هذه الجهود العلمية التي يقام بها في الغرب تستوجب منا الاعتراف للقائمين بها بالفضل إلا أنني لا أقصد هنا أن يكون هذا البحث لغرض الثناء عليهم - وهم مستحقون له - كما أنتي لا أقصد به التقليل من الأبحاث الجادة التي يكتبها بعض الباحثين العرب باللغة العربية.

كما أن غرضي هنا ليس الإمام الكامل بكل ما يكتب في اللغات الغربية المتعددة. فهذا مالا يستطيع أن يقوم به فرد في مثل هذا البحث المحدود. إن هدفي هو رسم صورة عامة لمدى الاهتمام الذي تحوز عليه اللغة العربية والدراسات العربية في الغرب؛ فقد أصبحت اللغة العربية تتصدر اللغات من حيث أخذها نموذجًا للتحليل اللساني، ومن حيث تقدير المتخصصين للدراسات العربية القديمة، كما أن النظرة المتحيزة ضدها التي كانت تشيع في بعض الأوساط حل محلها النظرة الموضوعية التي تنظر إليها - كسائر اللغات - لغة

(١) عبد السلام المسدي. *اللسانيات وأسسها المعرفية*. (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٦، ص ص(٢٠-١١).

(٢) عبدالقادر الفاسي الفهري "اللسانيات العربية: نماذج للحصيلة ونماذج للأفاق" في : تقدم اللسانيات في الأقطار العربية. تحرير عبدالقادر الفاسي الفهري (بيروت: دار الفرب الإسلامي، ١٩٩١) ص ص(٤٠-١١).

(٣) Kees Versteegh . " Modern Approches to the History of Arabic " في : تقدم اللسانيات في الأقطار العربية، ص ص(١١٦-١٩٩).

(٤) حمزة قبلان المزینی، مراجعات لسانية. (الرياض: النادي الأدبي، ١٤١٠ـ).

طبيعة أدت دوراً كبيراً في الحضارة الإنسانية.

مقدمة

ينبع الشك والتلخواف من الدراسات اللسانية المعاصرة في الوسط الثقافي العربي من أسباب وجيهة تاريخياً. وأول هذه الأسباب أن الدراسات اللغوية في القرن التاسع عشر كان يسيطر عليها التوجه العرقي. فقد كان هدف كثير من الدراسات التي تقوم على لغات غير أوروبية أن يبين أنها أقل تطوراً من اللغات التي تعود إلى فصيلة اللغات الهندية الأوروبية. ومن أبرز المقولات في هذا الشأن مقولات رينان^(٥) وقد ولد هذا الموقف غير العلمي شعوراً لدى العرب بأن الدراسات الأوروبية كلها تصب في هذا الهدف. غير أن الفاحص المتأني سيكتشف أن هذا الموقف لم يكن يمثل النشاط العلمي الحقيقي المهتم باللغة العربية. فقد نشر في تلك الفترة كثير من أمهات الكتب العربية في التاريخ والجغرافية والتفسير والفقه والشعر والأدب. وقد تواصل هذا التقليد في القرن الحالي فأثمر دراسات على جانب كبير من الجودة والموضوعية.

على أن كثيراً من الباحثين العرب تلتف أنظارهم بعض المقولات في هذه الأعمال مما يمكن أن يصنف بأنه نقد لبعض الظواهر في الحضارة العربية الإسلامية. لكن القارئ المنصف يجب أن يفهم هذا النقد بأنه أمر طبيعي من باحثين من خارج هذه الحضارة. فليس ضرورياً أن تكون مواقفهم متطابقة تماماً مع ما نشعر به نحن. والموقف العلمي السليم هو أن يكون هذا النقد موضوع حوار بين الباحثين العرب والباحثين الغربيين. فإذا سلمت النيات وقصدت الموضوعية فإن نتائج هذا الحوار ستكون عنصراً مهماً في تقدم معرفة الفريقين. ولا شك أن هذا الحوار سيكون مثراً مع العلماء وليس مع الكتاب

Maurice Olender. *The Languages of Paradise: Race, Religion, and Philology in the Nineteenth Century*. (٥)

Translated from French by Arthur Goldhammer (Cambridge, MA:
Harvard University press, 1992.)

الذين تدفعهم روح التعصب ورغبة التشفي وعدم الممانعة في لعب دور الممهد لسيطرة الغرب الاقتصادية والسياسية وغير ذلك وهؤلاء قلة في كل الأحوال في المجال الأكاديمي.

كما أن هناك سبباً للتخوف آخر وهو ارتباط كثير من الدراسات اللسانية الغربية للغربية بدراسة اللهجات^(١) في فترة من الفترات. فقد كان هناك نشاط كبير في مختلف أنحاء العالم العربي في هذا المنحى. لكن هذا النشاط في دراسة اللهجات العربية يجب أن ينظر إليه من خلال اهتمام الدراسات اللسانية في الغرب نفسه في تلك الفترة. والمتتبع للأمر يجد أن الدراسة اللسانية في الغرب طوال القرن التاسع عشر كانت تاريخية الطابع. وكان من مميزات هذه الدراسة تتبع اللهجات المعاصرة ورصدها؛ باعتبارها طوراً من اطوار اللغة يمكن أن ينير لنا شيئاً من تاريخها الماضي. ولذلك قامت حركة من يسمون بالنجويين الجدد في ألمانيا وكان هدفها تسجيل اللهجات الألمانية وتتبع تاريخها ثم انتقلت هذه التقاليد إلى فرنسا وبريطانيا^(٢).

وقد استمر هذا التقليد إلى الفترة المبكرة من هذا القرن. ولذلك لا نعجب إن ركز الدارسون الغربيون على دراسة اللهجات العربية في تلك الفترة. فلقد كان ذلك تطبيقاً للتقاليد - تعلموها في أثناء الدراسة الجامعية - على لغات غير أوروبية. وكان الهدف واضحأً أحياناً إذ استعملت هذه الدراسات أدلة في البحث التاريخي المتعلق باللغة العربية.

كما كان من أسباب الاهتمام باللهجات في هذا القرن أن الدراسة اللسانية بتأثير من دي سوسيير أصبحت تجعل الأولوية في الدرس لما يقوله الناس فعلأً بدل الاهتمام بتاريخ اللغة أو الاهتمام باللغة الأدبية المكتوبة. فلذلك اهتمت هذه الدراسات في تلك الفترة باللهجات العربية لأنها ما يقوله الناس فعلأً وفي

(١) عبد السلام المعيدي، المرجع نفسه؛ وكيس فريستينغ، المرجع نفسه.

(٢) كيس فريستينغ، المرجع نفسه؛ و J.K. Chambers and Peter Trudgill. *Dialectology*. (Cambridge: Cambridge University Press. 1980) PP. 15 - 23.

على أن هذه الدراسات العلمية ابنتها بأناس ليسوا علماء لغة أساساً أو أن لهم أغراضاً ضيقة: استعمارية أو قطرية أو غير ذلك استغلوا هذه التقاليد ليزعموا أن هذه اللهجات لا رابط بينها وأن الشقة واسعة بينها وبين اللغة العربية الفصحى وأن كل قطر من أقطار العالم العربي يجب أن يستعمل لهجته بل ويكتب هذه اللهجة بالأبجدية الغربية^(٨). ومن هذا الصنف محاولات التخطيط اللغوي في مصر التي قام بها بعض المديرين الإنجليز لإحلال اللهجة المصرية محل اللغة العربية الفصحى ومحاولات سلامة موسى ومحاولات سعيد عقل وأخرين. الواقع أن هذه المحاولات أعطيت من الاهتمام أكبر مما تستحق. ويكتفى أن يشار إلى أن الفروق التي وجدها العلماء بين اللهجات في أي قطر أوروبي لم يأخذوها العلماء الأوروبيون أنفسهم حجة لإثارة ما أثير عن الفروق بين اللهجات العربية في العالم العربي. والدليل الآخر على سذاجة تلك المحاولات وعدم إمكانها علمياً أن الفروق اللهجية بين مختلف الأصقاع في العالم العربي لم تمنع شيوخ الثقافة وشيوخ التقارب بين مستوى الفصحى والعاميات. فيجب إذن أن نعي أن التخوف من الدراسات اللسانية فيما يخص اللغة العربية هو تخوف لا يقوم على أساس صحيح.

وسيتناول البحث في جزنه الأول الاهتمام باللغة العربية نموذجاً للتحليل مبيناً فيه مدى اتخاذ المدارس اللسانية المختلفة للغة العربية مجالاً للدراسة، وفي الجزء الثاني سأبين الدراسات الغربية الحديثة لمنجزات التحوّل العربي، وفي الجزء الأخير سيهتم البحث بالأعمال التي ترد على من يزعمون أن اللغة العربية تعاني من أوجه نقص كثيرة مما يجعلها لغة غير متحضررة. وسيختتم البحث بخاتمة تجمل النتائج التي توصل إليها البحث بالإضافة إلى بعض الدروس التي يمكن أن نستفيد منها.

(٨) كيس فريستينغ، المرجع نفسه؛ وحمزة قيلان المزياني، "التحيز اللغوي: مظاهره وأسبابه" ستشر قريباً في مجلة فصول.

الاهتمام باللغة العربية نموذجاً للتحليل

يجد المطلع على الدراسات اللسانية المعاصرة أن اللغة العربية كانت موضع اهتمام أكثر علماء اللسانيات تميزاً في خلال هذا العصر. وتهتم دراسات هؤلاء باللغة من حيث إنها تمثل لغة طبيعية يمكن أن تسهم في تقدم البحث اللساني النظري. فمن أعلام الدراسة اللسانية في هذا العصر الذين اهتموا باللغة العربية رومان ياكوبسون في مقال له عن الأصوات المفخمة في اللغة العربية^(٩) واستعمالها دليلاً على نظريته عن الملامح التمييزية في التحليل الصوتي للغة الإنسانية. كما كتب جوزف جرينبرج مقالاً عن نمط المورفيمات الأصول في السامية^(١٠) اخذ فيه العربية ممثلاً للغات السامية بسبب وفرة المعلومات المعجمية ومحافظتها النسبية في نظامها الصواعي^(١١). كما كتب زيلك هاريس - أستاذ شومسكي - مقالاً عن الفونيمات في اللهجة المغربية^(١٢) قصد منه إيضاح ما كان يسمى "إجراءات الاكتساب" في الدراسة اللسانية البنوية في أمريكا^(١٣). ومن هؤلاء أيضاً فيرث الذي كتب تحليلاً صوتيًا للغة العربية يبين فيه تطبيقه لمنهجه في التحليل المسمى بالتحليل التطوريزي Prosodic analysis^(١٤).

Roman Jalonson. "Mufaxxama: The Emphatic Phonemes in Arabic" in Salman Al - Ani (ed) Readings in Arabic Linguistics (Bloomington: Indiana University Linguistic Club. 1978) PP 269 - 283.

Joseph H Greenberg. "The Patterning of Root Morphemes in Semitic." in (١٠) Salman Al - Ani> reading..... PP. 431 - 456.

Joseph H. Greenberg. Ibid. P.432. (١١)

Zellig S. Harris. "The Phonemes of Moroccan Arabic." in Salman Al - Ani, PP. (١٢) 247 - 267

Harris, P.265. (١٣)

J.R. Firth. " Sounds and Prosodies." in Eric P. Hamp, Fred W. Householder, and Robert Austerlitz. Readings in Linguistics II (Chicago: The University of Chicago. 1996) PP. 175 - 191 (١٤)

وكما يقول عالم اللسانياتالأمريكي المعاصر البارز فرد هوس هولدر في تقديم لمجموعة المقالات التي جمعها سلمان العاني وصدرت عن نادي اللسانيات في جامعة أنديانا بأمريكا، "... عندما قرأت هذه المجموعة المختارة من المقالات ظهر لي أنه من الصعب أن تجد أي مجموعة من المقالات أكثر تمثيلاً منها لمختلف فروع اللسانيات والمدارس اللسانية المتعددة. وذلك أنه يبدو من هذه المجموعة أن اللغة العربية تحتوي على مسائل لفت انتباه أكثر العقول المهتمة باللسانيات تميزاً، وتوضح أكثر المفاهيم النظرية الأساسية. ولو سُئل أي لساني (اليوم) أن يسمى عشرة من أكثر المبدعين في اللسانيات وأكثراً لهم أثراً فيما بين ١٩٤٠ و ١٩٧٠ م فإنه من غير المحتمل أبداً أن لا يسمى رومان ياكوبسون وزيليك هاريس وجوزف جرينبرج وجورج تريجر. وكل هذه الأسماء تظهر في هذه المجموعة. وعلى الرغم من غياب فيرث وكينيث بايك وأندريه ماريتنبيه من هذه المجموعة إلا أنها تشمل تلاميذهم. وإنك لتجد في هذه المجموعة كل أقسام اللسانيات الكبرى تقريباً ممثلاً، وقد يكون تمثيلها مكرراً عدة مرات^(١٥). ولقد استمرت اللغة العربية في استقطابها لأكثر العقول تميزاً في اللسانيات فيما تلا التاريخ الذي ذكره هوس هولدر. ومن أبرز المهتمين بها كان مايكل بريم؛ إذ كتب رسالته للدكتوراة في معهد ماساتشوستس في سنة ١٩٧٠ م^(١٦). وقد اعتبرها الباحثون عملاً بارزاً استعمل فيه مايكل بريم دراسة التركيب الصواتي للغة العربية حجة لتطبيق النظرية الصواتية التي جاء بها شومسكي وهاله في كتابهما "نمط الأصوات في اللغة الإنجليزية"^(١٧). وقد انتشرت هذه الرسالة في أقسام اللسانيات في أمريكا وغيرها واعتمدت مرجعاً للدراسة الصواتية وظهرت الإشارة إليها في عدد كبير من الكتب والمقالات في

Fred Householder. "Preface." in Salman Al - Ani Reading. P. viii

(١٥)

Michael B. Brame. Arabic phonology: Implications for Phonological Theory and Historical Semitic.

Ph.D. Dissertation, MIT, 1970

Noam Chomsky and Morris Halle. The Sound Pattern of English. (New York: Harper and Row, 1968). (١٧)

تلك الفترة. وما زالت الإشارة إليها تتكرر بوصفها عملاً كلاسيكيًّا في النظرية الصواتية وفي الدراسات العربية.

ويبيِّن مايكل بريم في مقدمة رسالته أن لعمله ذاك هدفين: (١) الإسهام في المعرفة التي تترَّايد بشكل سريع عن النظرية الصواتية، و(٢) الإسهام في مجال اللسانيات السامية بمعالجة واحدة من اللغات السامية معالجة أعمق مما سبقها. ويبيِّن أن الهدف الأول لا يتحقق إلا بمعالجة لغة واحدة تختبر بفحصها المقولات النظرية في مجال الدراسة الصوتية. ولذلك فقد فحص عدداً كبيراً من القواعد الصواتية في اللغة العربية لكي يختبر كفاية النظرية الصواتية التوليدية ولتحديد الجوانب التي ينبغي مراجعتها في هذه النظرية. ثم يبيِّن عدداً من المقولات النظرية في هذه النظرية مما يمكن للغة العربية أن تعد معياراً في إمكانها أو عدم إمكانها. أما فيما يخص الهدف الثاني فيقول: "إنه يبدو أن اللسانيات السامية في وضعها الراهن مفلسة. فليس هناك إلى الآن أي وصف صواتي معاصر لأي لغة سامية يتجاوز تحليلاً التحويين العرب القدماء. إنني أعتقد أن النحو العربي خاصٌ قد بلغ أدنى درجات الانحطاط على أيدي العلماء الغربيين. فلقد تجاهلت اللسانيات الغربية تجاهلاً يكاد يكون تماماً كثيراً من العمق والأصالحة اللذين أورشاهم النحويون العرب. وهذا صحيح في الأقل فيما يخص المسألة التي استرعت انتباهم، وهي مسألة تحديد الأصل أو التمثيل العميق للغة....".^(١٨)

وفي خلال ٤٦٧ صفحة يعالج بعض المقولات النظرية مثل الترتيب بين القواعد الصواتية ترتيباً خطياً linear، وكذلك تطبيق القواعد الصواتية تطبيقاً دوريًا Cyclic وهو مقولتان شغلتا المشتغلين بالتنظير الصواتي منذ النموذج النظري الذي أتى به تشومسكي وهاله في سنة ١٩٦٨م، وما زال الانشغال بهما مستمراً إلى الآن. وقد وجد أن هناك ما يقرب من ٣٨ قاعدة صواتية وشرطًا تحكم التركيب الصواتي للغة العربية النموذجية العصرية وتكون نتيجة للتشابك

فيما بينها بنية صوتية متضامنة تفسر الاطراد الموجود في اللغة. كما تعرض فيها إلى بعض البحث التاريخي في اللغات السامية. وقد عالج بريم بعض المقولات النظرية هذه أو غيرها مستعملاً مادة لغوية من اللهجات العربية أو اللهجات التي تفرعت عنها مثل اللغة المالطية. ولم يكن بريم الوحيد الذي عالج اللغة العربية بقصد الإسهام في النظرية السانية فقد وجد عدد كبير من الدراسات من هذا النوع لا يمكن حصرها هنا.

وفي سنة ١٩٧٩ أتى جون مكارثي رسالته للدكتوراه في معهد ماساتشوستس وكانت بعنوان "مسائل شكلية في الصوامة والصرف الساميين"^(١٩) وقد اعتمد تحليل العبرية والعربية الفصحى ولهجتي دمشق والقاهرة في التدليل على بعض المقولات النظرية التي اقترحها. وفي هذه الرسالة أسس مكارثي نظرية جديدة في التحليل الصواتي. فقد كان المتبع في التحليل أن ينظر إلى الكلمة كأنها مركبة من أجزاء متتابعة وهو ما يدعى بالتركيب السلسلـي concatenative. وهذا التركيب هو الذي يوجد في كثير من اللغات خاصة اللغات الهندية الأوروبية التي أسست عليها النظرية السانية الحديثة بمختلف فروعها. وبخلاف ذلك رأى مكارثي - مستقيداً من النظرية الصواتية ذات المستويات المستقلة Autosegmental Phonology - أن النظرية الصواتية المعيار التي يمثلها كتاب تشومسكي وهاله لا يمكن تطبيقها على اللغات السامية، وذلك بسبب أن المورفيمات في هذه اللغات ليست متواالية بل متداخلة nonconcatenative. ففي العربية مثلاً نجد أن الجذور الثلاثة للكلمـة هي التي تحمل المعنى الأساسي فهي لذلك تعتبر مورفيناً مستقلاً، ويضاف إلى هذا المورفيم حركات تدخل بين أجزائه ومكونات أخرى تضاف قبـله وبعده. فكلمة مثل (كتب) إنما هي عبارة عن مورفيمين مستقلين هما كـتـبـ وحرـكة الفتحـةـ التي تـشـغلـ مـوضـعـيـنـ أحـدـهـماـ بينـ الكـافـ وـالـتـاءـ وـالـأـخـرـ بـيـنـ التـاءـ وـالـبـاءـ،ـ وـلـاـ تـكـوـنـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ مـنـ هـذـيـنـ

John Joseph McCarthy. III. Formal Problems in semitic Phonology and (١٩)
Morphology. Ph.D. Dissertation. MIT. 1979.

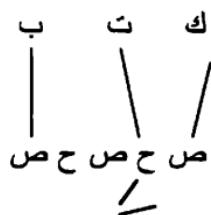
المورفيمين فقط بل ابن الوزن (فعل) يكون مورفيناً ثالثاً معناه أن هذه الكلمة: فعل ماضٍ مبنيٍ للمعلوم. ولما كانت هذه المورفيمات الثلاثة مستقلة الواحد منها عن المورفيمات الأخرى فلابد أن تشغل مستويات مختلفة في التحليل ولذلك اقترح مكارثي التمثيل الآتي لمثل هذه الكلمة:

ك ت ب

ص ح ص ح ص - (حيث يعني (ص) صوت صامت، و (ح) حركة)

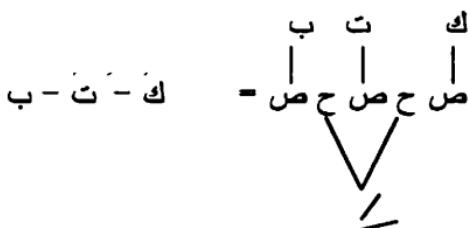
فالأصوات الصحيحة الثلاثة تكون مورفيناً واحداً معناه شيءٌ خاص بالكتابة، أما التابع من الأصوات الصحيحة والحركات فهو وزن الكلمة ومعناه "فعل ماضٍ" أما الفتحة فمعناها "أن الفعل ماضٍ مبنيٍ للمعلوم". وبذلك تكون المورفيمات متواالية على هذا المستوى المجرد من التمثيل. أما التداخل فيما بين هذه المورفيمات الثلاثة المكونة للفعل (كتب) فيتم عن طريق بعض قواعد الوصل association بين أي مورفيم والوزن. وقواعد الوصل هذه محكومة بالشروط التي تراها النظرية الصواتية ذات المستويات المستقلة.

ويتم وصل المورفيمات على النحو التالي:



وفي هذه الخطوة يوصل بين كل واحد من أجزاء المورفيم (كت ب) وموضع محدد في الوزن (ص ح ص ح ص).

وفي الخطوة الثانية يوصل بين الفتحة والموضع الأول للحركة (ح) وكذلك الموضع الثاني:



وبهذه الكيفية يمكن أن تحل اللغات التي لا تخضع للترتيب السلسلى المعروف في النظرية المعيار.

وكانـت هذه النظرية بداية لما سـمى فيما بعد (الصـواتـة الـوزـنـيـة) metrical phonology بل زوجـت هذه النـظرـيـة بـنـظـرـيـة الصـواتـة ذاتـ المـسـتـوـيـاتـ المـسـتـقـلـةـ Autosegmental فأصبحـ اسمـهاـ "الصـواتـةـ الـوزـنـيـةـ ذاتـ المـسـتـوـيـاتـ المـسـتـقـلـةـ" .Metrical Phonology

ولم تـكن دراسـةـ مـكارـثـيـ هذهـ إـلاـ بـدـاـيـةـ لـنـظـرـيـةـ ماـ زـالـتـ مـسـتـمـرـةـ يـتـمـ تـعـمـيقـهاـ باـسـتـمرـارـ. وـكـانـتـ اللـغـةـ الـعـرـبـيـةـ دـائـماـ هيـ الـمـثـالـ الـبـارـزـ الـذـيـ يـسـتـعـملـ فـيـ التـدـلـيلـ عـلـيـهـاـ. وـقـدـ كـتـبـ مـكارـثـيـ نـفـسـهـ عـدـدـاـ كـبـيرـاـ مـنـ الـمـقـالـاتـ فـيـ هـذـهـ النـظـرـيـةـ وـذـلـكـ مـثـلـ (1980، 1981، 1983، 1986) (٢٠)ـ وـغـيرـ ذـلـكـ. كـمـ أـنـ هـذـهـ النـظـرـيـةـ اـسـتـقـطـبـتـ أـبـرـزـ الـبـاحـثـيـنـ الـمـنـظـرـيـنـ فـيـ الصـوـاتـةـ مـثـلـ آـلـانـ بـرـنـسـ الـذـيـ كـتـبـ بـالـاشـتـراكـ مـعـ مـكارـثـيـ عـدـدـاـ مـنـ الـمـقـالـاتـ كـانـ مـوـضـعـهـ تـطـوـيرـ هـذـهـ النـظـرـيـةـ مـسـتـعـمـلـيـنـ اللـغـةـ الـعـرـبـيـةـ مـثـالـاـ (مـكارـثـيـ وـبـرـنـسـ 1990ـ وـغـيرـ ذـلـكـ). كـمـ اـكـتـبـ

John J. McCarthy, " A Note on the accentuation of Damascene of Arabic." (٢٠) Studies in the Linguistic Science (1980), 10.2.

John J. Mc Carthy, "A Prosodic Account of Arabic Broken Plurals" Current Trends in African Linguistics I (ed)By L. Dihoff,(Dordrecht:Foris, 1983) PP. 289- 263

J. McCarthy and A. Prince. "Foot and Word In prosodic morphology: The Arabic Broken Plural," Natural Language and Linguistic Theory 8 (1990) PP. 109 - 183.

برنس نفسه عدداً من المقالات مثل (١٩٨٧، ١٩٩٠) (٢١). وكذلك كتب أحد رواد البحث اللساني الصوائي وهو موريس هاله أستاذ مايكل بريم وجون مكارثي عدداً من المقالات كان يخصص بعضها للتركيب الوزني للغة العربية أو يشير في شايا أبحاثه للغة العربية.

وقد انتشر الاهتمام باللغة العربية نتيجة لهذه النظرية وغيرها من النظريات اللسانية المعاصرة مما نتج عنه إنشاء بعض المجلات المتخصصة في الدراسات اللسانية عن اللغة العربية مثل *Journal of Arabic Linguistics* في سنة ١٩٧٨م وإنشاء جمعية اللسانيات العربية *Arabic Linguistic Society* سنة ١٩٨٨م في مدينة سولت ليك بولاية يوتاه في أمريكا. كما نشر عدد من الكتب عن بعض القضايا في اللغة العربية وكذلك كثيراً ما نجد مقالات في أشهر الدوريات المتخصصة تعالج قضايا في اللغة العربية بقصد الإسهام في النظرية اللسانية. كما خصصت بعض الدوريات أعداداً خاصة عن الدراسات اللسانية العربية مثل: *Arabica* في سنتها ٢٨ عددي ٢ (١٩٨١م) و *Historiographia linguistica* في سنتها الثامنة عددي ٢ و ٣ (١٩٨١م) و *Anthropological International linguistics* في سنتها الثامنة والعشرين العدد ١ (١٩٨٦م) وكذلك *Journal of the Sociology of Language* ٦١ (١٩٨٦م) وغير ذلك.

أما فيما يخص الجمعية اللسانية العربية في أمريكا فقد قامت منذ ١٩٨٨م بعقد ندوات سنوية تجمع الأبحاث التي تلقى فيها في مجموعات نشر منها إلى الآن أربع وذلك عن دار نشر جون بنجامين للنشر الشهيرة. وقد افتتحت مشيرة عيد وهي من مؤسسي هذه الجمعية ومن أبرز الباحثين في اللسانيات العربية في أمريكا المجموعة الأولى بمقال طويل بعنوان "اللسانيات العربية : الوضع الحاضر" (٢٢) تحدث فيه عن التوسع الذي طرأ في السنوات الأخيرة على

Alan Prince, "Planes and Copying," *Linguistics of Rhythmic Organization*, in (٢١) *Papers from Chicago Linguistic Society*, vol.2, (1990) PP. 355 - 398

Mushira Eid, "Arabic Linguistics: The Current Scene" in *Perspectives on Arabic Linguistics I*. ED By Mushira Eid, (Amsterdam / Philadelphia: John

الدراسة اللسانية المهمة باللغة العربية فذكرت كثرة الأبحاث والاهتمام بهذه اللغة في المؤتمرات والندوات اللسانية العالمية الشهيرة مثل اجتماعات جمعية اللسانيات الأمريكية وجمعية شيكاغو اللسانية وغير ذلك، كما ذكرت عدداً من المؤتمرات التي اختصت باللغة العربية. كما ذكرت أن الاهتمام باللغة العربية كان ذا شقين أحدهما: البحث في اللغة العربية لذاتها، وثانيهما: البحث فيها لغرض اختبار المقولات النظرية اللسانية وتطويرها. كما تناولت كثيراً من المواضيع التي استحوذت على اهتمام الدارسين. ويمكن عد هذا المقبال أوفى تغطية للنشاط الذي تركز حول اللغة العربية في السنوات الأخيرة. وهو يشير بوضوح إلى أن اللغة العربية تحتل موقعاً متميزاً بين اللغات في هذا النشاط.

وفي هذه المجموعة يكتب اللسانى الأمريكى المهم باللغة العربية تشارلز فرجسون مقالاً بعنوان " فأتوا بسورة من مثله": اللغة العربية مقاييساً للمجتمع العربي^(٢٣) يقارن فيه بين وضع الدراسة عن اللغة العربية قبل أربعين سنة والوضع في سنة ١٩٨٨م، فيبين العدد الكبير من المقالات والكتب التي نشرت عنها. كما يتحدث عن وضع الدراسات اللسانية العربية في الفترة المبكرة التي يمكن وصفها بالقلة كما أنها كانت تهتم بالجانب التاريخي من الدراسة. ثم يشير إلى بعض الخصائص العربية التي لفتت أنظار الدارسين اللسانيين. كما أشار إلى التغير اللغوي في العالم العربي الذي ينحو نحو خلق لغة نموذجية جديدة خلافاً للوضع الذي كان قد وصفه في مقالة له سنة ١٩٥٩م بعنوان "الازدواجية"^(٤) كان قد تنبأ فيه باحتمال انفصال العالم العربي لغرياً إلى ثلاث مجموعات وهي: بلاد الشام والعراق، ومصر والسودان، والمغرب العربي. لكنه في هذا المقال يؤكد أن هذا الاحتمال لا يزيد على كونه احتمالاً واحداً بين احتمالات أخرى

Benjamins Publishing co., 1990) PP. 3 - 37

Charles A. Ferguson. " Come forth with a Surah Like it: Arabic as a measure (٢٣) of Arab Society." in M. Eid . PP. 39 - 51

Charles A. Ferguson. "Diglossia". "Reprinted in Pier Paolo Giglioli (eds) (٤) Language and Social Context. (London : Penguin Books , 1972)PP. 232 - 251

وقد احتوت هذه المجموعة على تسعه مقالات تناولت ثلاثة مواضيع هي: المنظور النحوي: ويحوي خمسة مقالات تناولت بعض المسائل النحوية في العربية من خلال النظرية اللسانية التركيبية، والموضوع الآخر هو منظور تحليل النص ويحتوي على مقالين تناولت فيما مسائل مثل ظاهرة الشفوية وتحليل اختفاء حركات الإعراب تاريخياً في نص يعود إلى نصوص مسيحية من جنوب فلسطين. والموضوع الثالث هو المنظور اللغوي النفسي وتناول فيه ذاكرة ثانوي اللغة وكذلك ظاهرة سبق اللسان. وكما هو واضح فإن هذه المجموعة تغطي نواحي مهمة من حيث وصف اللغة العربية لذاتها واتخاذها سبيلاً لمناقشة بعض المسائل النظرية العامة.

أما المجموعة الثانية فقد حررت أبحاثها مشيرة عيد بالاشراك مع جون مكارثي وتحوي ثلاثة محاور هي: المنظور الصرفي والصواتي وتحتوي على ستة أبحاث، والمحور الثاني المنظور الدلالي ويحوي بحثين، والمحور الثالث المنظور اللساني الاجتماعي. ويقدم جون مكارثي ومشيرة عيد لهذه المجموعة مبينين أنه "يحدث أحياناً أن بعض الحقائق في لغة معينة أو عائلة لغوية ما تتعدى الاهتمامات الضيقة (عن هذه اللغة أو العائلة اللغوية) وتدخل في الضمير الجمعي للمنظرين اللسانيين بعامة. وتتصبح هذه الحقائق عندئذ جزءاً مما يسمى (بالحالات الكلاسيكية) التي يجب على التقطير اللاحق أن يأخذها في الحسبان منذ البدء. وهذه الحالات قليلة، ولذلك فإنه من اللافت للنظر أن تسهم لغة واحدة بحالتين كلاسيكيتين في مجال نظري واحد. وعلى الرغم من ذلك فإن ذلك ما حدث فيما يخص الصرف العربي"^(٢٠). والثالثان الكلاسيكيتان اللتان أسهمنا الصرف العربي بهما في التقطير الصرفي اللساني ما أسمهم به مايكل بريم من تدليل على ما يسمى

"الدورة التحويلية" Transform mational cycle والحالة الأخرى أن الصرف العربي قدم دليلاً على ما أصبح يسمى بالنظرية الصواتية غير الخطية.

وقد احتوى المحور الأول على مقال طويل كتبه جون مكارثي وعالم اللسانيات الشهير آلان برنس بعنوان "الصرف التطريزي والصرف النمطي" (٢٦). وهذا المقال تطوير للنظرية الصواتية غير الخطية يذهب بعيداً في مستوى التجريد إذ يقترح مبادئ عامة قليلة تحكم ظواهر كثيرة في الجانب الصواتي. وقد أصبح هذا المقال واحداً من المراجع التي لا يكاد يخلو من الإشارة إليه أي بحث في الصواتة. ويحلل جون مور الأفعال المضعفة في اللغة العربية المعاصرة معتمداً أساساً على نظرية مكارثي وبرنس مدخلاً عليها بعض التعديلات الطفيفة (٢٧). كما يكتب روبرت راتكليف مقالاً عن جموع التكسير في العربية (٢٨). كما تكتب سميرة فروانة مقالاً عن وصل المستويات المختلفة للمورفيّمات المكونة للكلمة (٢٩). وتحال س. دوجلاس جونسون نظرية الدورة في اللهجات الشامية (٣٠) وتقترح بدليلاً لتحليل مايكل بريم لحذف الحركات في هذه اللهجات. وتكتب محسن أبو منصور عن الحركات المزيدة والتضييف وتركيب المقطع في اللهجة المكية (٣١) وتقترح تحليلاً يعتمد على تركيب المقاطع لتنسّير بعض الظواهر الصوتية في هذه اللهجة. ويكتب جون إيسيل عن التنظيم الجهوّي

J. McCarthy and A. Prince. "Prosodic Morphology and Templatice Morphology." (٢٦)
"in Meid and J. McCarthy, PP. 1-54.

John Moore. "Double Verbs in Modern Standard Arabic". in M. Eid and J. (٢٧)
McCarthy, PP. 55-93.

Robert R. Ratcliffe. "Arabic Broken Plurals: Arguments for two folds (٢٨)
classification of Morphology." in M. Eid and J. McCarthy , PP. 94-119.

Samir Farwaneh. "Well - Formed Associations in Arabic: Rules or condition?" (٢٩)
in M. Eid and J. McCarthy PP. 120- 142.

C. Douglas Johnson. "Levantine Cyclogenesis". in M. Eid and J. McCarthy. (٣٠)
PP.143- 166.

Mahasen Hasan Abu - Mansur. "Epenthesis, Gemination and Syllable (٣١)
Structure", in M. Eid and J. McCarthy, PP. 167-191

للأفعال في اللهجة القاهرة^(٣٢). ويكتب محمود البطل عن عناصر الربط في النصوص التثوية العربية^(٣٣). ويكتب ديلورث باركنسون عن الاختلافات الإملائية في اللغة العربية المعاصرة متخدًا من رسم الهمزة مثالاً^(٣٤). كما يكتب أخيراً عادل الطوسي عن نطق غير العرب للعربية واتخاذ ذلك دليلاً على أن تبسيط اللغة وقواعدها هو مسلك عام ينطبق على تبسيط العربية وغيرها من اللغات وإن كان هناك ما يختلف فيه هذه الظاهرة في العربية عن غيرها^(٣٥).

وهكذا نرى أن هدف هذه الأبحاث كلها هو دراسة بعض الظواهر في العربية للإسهام في تطوير الدراسة اللسانية النظرية. ومن الأدلة على أثر مثل هذه الدراسات أن البحث الصواتي الآن يأخذ النظرية التي أسست على اللغات السامية وخاصة العربية ذات التركيب الصرفي المتميّز عن غيره نموذجاً يعم على لغات تختلف عن اللغات السامية في أن المورفيّات فيها متتابعة بدل أن تكون مستقلة بعضها عن بعض. ومن ذلك ما نجده في مكارثي ١٩٨٩م^(٣٦) وبرنس ١٩٨٧م^(٣٧).

وتحتوي المجموعة الثالثة من هذه السلسلة على ثلاثة محاور: الأول عن اللغة العربية وصلتها باللغات الأخرى، والمحور الثاني عن النحو، والثالث عن اللسانيات النفسية واللسانيات الاجتماعية. وتفتح مشيرة عيد التي حررت هذه

John C. Eisele, "Aspectual Classification of verbs in Cairene Arabic", in M Eid (٣٢) and J. McCarthy, PP. 192 - 233.

Mahmoud Al - Batal, "Connectives as Cohesive Elements in Modern Expository (٣٣) Arabic Text", in M. Eid and J. McCarthy, PP.234-268

Dilwort B. Parkinson, "Orthographic Variation in Modern Standard Arabic: The (٣٤) Case of the Hamza", in M. Eid and J. McCarthy , PP.269 - 295.

Adel I. Twaissi, "Foreigner Talks in Arabic: Evidence for the Universality of (٣٥) Language Simplification", in M. Eid and J. McCarthy, PP. 296 - 326

J. McCarthy, "Linear order in Phonological Representation, "Linguistic (٣٦) Inquiry, 20.1 (1989) PP. 71 - 99

A. Prince, "Planes and Copying, "Linguistic Inquiry, 18.2 (1987) PP. 491 - 509 (٣٧)

المجموعة بالاشتراك مع عالم اللسانيات الشهير برنارد كومبرى هذه المجموعة بمقدمة توضح فيها الخطوط العامة للأبحاث المتضمنة فيها. ويكتب كومبرى المقال الأول بعنوان (أهمية اللغة العربية للنظرية اللسانية العامة) (٣٨). ويبين فيها بأدلة جديدة أهمية العربية للتقطير اللسانى. فيقول في مقدمة مقاله "... يجب ألا تكون اللسانيات العربية موضوعاً مستقلاً، سواء أكان ذلك بعدمأخذها من النظرية اللسانية العامة أم بعدم إسهامها في النظرية العامة، وهو أمر أكثر أهمية هنا، وأريد أن أؤكد بعضاً من أوجه الأهمية للإسهام الذي أعتقد أن دراسة العربية يمكن أن تقدمه للنظرية اللسانية العامة. وبالمقابل فإنه يمكن أن يظن أنه من غير المفيد أن يبرهن الإنسان على أهمية العربية لكي يشجع دراسة العربية، إذا أخذنا في الحسبان أن هذه اللغة قد درست دراسة مستفيضة بوصفها لغة حضارة مهمة ودين مهم.... ولذلك فإنني أود أن أبين حتى لأولئك اللسانيين الذين لا يفهمون هذا المنظور الحضاري الواسع أن اللغة العربية لديها الكثير مما تقدمه لهم" (٣٩).

ويناقش في هذا المقال عدداً من المواضيع ومن أخصها الطريقة التي تعبّر بها اللغة العربية ولهجاتها عن الزمن والجهة. وينطلق من وصف هذه الظواهر إلى مواضيع أكثر عمقاً في النظرية اللسانية العامة.

وتكتب مشيرة عيد مقالاً عن الجملة الاسمية في العربية والعبرية (٤٠) تقترح فيه أن في الجملة الاسمية في اللغتين رابطاً قد يعبر عنه أحياناً بالضمير يؤدي وظيفة فعل الكون. ويكتب جون مكارثي مقالاً عن الأصوات الحلقة في

Bernard Comrie. "On the Importance of Arabic for General Linguistic (٣٨) Theory", in Bernard Comrie and M. Eid (eds.) Perspectives on Arabic Linguistics III (Amsterdam Philadelphia: John Benjamins Publishing CO., 1991) PP. 3-30.

B. Comrie. Ibid. PP. 3-4 (٣٩)

Mushira Eid. "Verbless Sentences in Arabic and Hebrew." In B. Comrie (٤٠) and M. Eid, p. 31-61.

العربية^(٤١) يرى فيه أن نظرية الملامح التمييزية في النظرية اللسانية الصواتية ليس فيها ملمح يمكن أن يعبر عن هذه الأصوات. ولذلك يقترح إضافة ملمح هو "الحجيرية" إلى قائمة هذه الملامح في النظرية. ويكتب عواد الحربي مقالاً عن الكلمات العربية في إحدى اللغات الأندونيسية^(٤٢) يحلل فيه النظريات المقترحة لتفسير دخول الكلمات الأجنبية في لغات أخرى. ويكتب عبد الجود محمود مقالاً عن التحليل التقابلاني في بعض أنواع الجمل في اللغتين الإنجليزية والعربية يتطرق فيه إلى اختبار بعض النظريات اللسانية المقترحة لتحليل أنواع تلك الجمل^(٤٣). وتكتب محاسن أبو منصور عن الحركات المزيدة في اللهجة المكية منطلقة من ذلك الوصف إلى مناقشة بعض النظريات الصواتية لتحليل هذه الحركات المزيدة^(٤٤) ويكتب كينيث بيزلி عن التحليل الحاسوبي للصرف العربي^(٤٥). ويحلل العباس بن مأمون أفعال التعديبة في العربية المغربية^(٤٦) وذلك في إطار نظرية الربط العامل^(Government and Binding theory) التي اقترحتها تسومسكي. وهناك ثلاثة مقالات عن اللسانيات الاجتماعية واللسانيات النفسية هي "الرجال والنساء والتوعّي اللغوي في العالم العربي" كتبه كينيث ولترز^(٤٧)، و"تغيير الرمز والانسجام اللغوي في العالم العربي" كتبه عبد

John McCarthy. "Semitic Gutturals and Distinctive feature Theory". in B. (٤١) Comprie and M. Eid. PP. 63-91

Awwad Ahmad Al - Ahmadi Al - Harbi. "Arabic Loanwords in Acehnese". in (٤٢) B. Comprie and M. Eid. PP. 93 - 117

Abdel Gawad T. Mahmoud. "A Contrastive Study of Middle and Unaccusative (٤٣) Constructions in Arabic and English". in B. Comprie and M. Eid. PP. 119 - 134

Mahasen Hasan Abu - Mansour. "Epenthesis in Makkan Arabic: Unsyllabified (٤٤) consonants Vs. Degenerate syllables". in B. Comprie and M. Eid. PP 137 - 154.

Kenneth R. Beesley. "Computer Analysis of Arabic Morphology: A Two - Level (٤٥) Approach with Detours". in B. Comprie and M. Eid 155 - 172.

El - Abas Ben Mamoun. "Causative in Moroccan Arabic". in B. Comprie and (٤٦) M. Eid PP. 173 - 195.

Keith Walters. "Women, Men, and Linguistic Variations In The Arab World". (٤٧) in B. Comprie and M. Eid. PP. 199 - 229

الرحيم أبو ملحم (٤٨)، وفيه يتعرض للمستويات اللغوية التي يستعملها العرب في أحاديثهم اليومية. والمقال الأخير يعالج ظاهرة تحصل عند بعض من يصابون بإصابة في أدمغتهم عندما يتكلمون العربية (٤٩).

أما المجموعة الرابعة فهي من تحرير إلين بروسلو ومشيرة عيد وجون مكارثي. وتحوي ثلاثة محاور: الأول عن اللهجات العربية ومقتضياتها للسانيات العامة، والثاني عن اللسانيات الاجتماعية، والثالث عن الدراسات التاريخية. وقدم جون مكارثي وإلين بروسلو لهذه المجموعة ثم تكتب بروسلو مقالاً عن مقاييس الاختلافات الصواتية في اللهجات العربية (٥٠). وتبيّن فيه أنه على الرغم من الاختلافات الظاهرة بين هذه اللهجات إلا أنه تحكمها مبادئ عامة قليلة، وأن ما يلاحظ من هذه الاختلافات سببه تغيير ضيق يعود إلى مبدأ خاص بتركيب المقطع. وتكتب محسن أبو منصور عن "قصص المقطع المغلق وعلاقته بالمستويات الصرفية" (٥١) تقارن فيه بين اللهجة المكية واللهجة المصرية في ظاهرة قصر المقطع المغلق وتقترح فيه وجود مستوى آخر في الصرف يمكن أن يفسر الاختلاف بين اللهجات واللغات. ويكتب ديفد تيستن عن الكاف التي تستخدم ضميراً للمتكلّم في بعض اللهجات اليمنية (٥٢) ويشير إلى أن هذه الظاهرة ربما كانت بسبب أثر اللغات العربية الجنوبية القديمة. كما تكتب فريدة أبو حيدر

Abdel - Rahman Abu - Melhim. "Code - switching And Linguistic (٤٨) Accommodation In Arabic". in Arabic." In B. Comrie and M. Eid. PP. 232-250

Sabah Safi - Stagni. "Agrammatism In Arabic B. Comrie and M. Eid. PP. 250- (٤٩) 270

Ellen Broselow. "Parametric Variation in Arabic Dialect Phonology." in Ellen (٥٠) Broselow - low. Mushira Eid and John McCarthy (eds) Perspectives on Arabic Linguistics IV (Amsterdam- Philadelphia: John Benjamins Publishing Co.. 1992) PP. 7- 45

Mahasen Hasan Abu - Mansour. "Closed Syllable Shortening And (٥١) Morphological Levels". in Broselow,Eid and McCarthy PP. 47 - 75.

David Testen. "Extra - Arabic Affiliations of K - Yemenii". Broselow. Eid and (٥٢) McCarthy. PP. 77- 89.

عن أثر اللغة العربية المعاصرة على انسجام اللهجات البغدادية التي تتكلّمها طوائف متعددة^(٥٣). وتكتب مشيرة عيد عن الضمانات وأدوات الاستفهام والمطابقة في اللهجات العربية^(٥٤). ويكتب جون إيزل عن الأفعال المساعدة في اللهجات المصرية من خلال المقوله التحويه المسماء "Aux" وهي إحدى المقولات المقترن بوجودها في التحليل التركيبي للجمل^(٥٥)، ويقترح فيه تحليلًا للظواهر التركيبية لا يلغا إلى اقتراح هذه المقوله. وتكتب نيلو فار هايري عن التنويعات الأنوية في اللهجه المصريه مركزه على ظاهره صوتية هي تقديم بعض الأصوات الخلفية بحيث تتطيق من مقدم الفم^(٥٦). ويكتب كيث وولترز عن نطق الضمة الطويلة في إحدى اللهجات التونسيه متخدًا هذه الظاهرة وسيلة لتحديد الاختلافات اللغوية في الأوضاع اللغوية التي توجد في مناطق لقاء لغوي بين الفرنسيه والعربيه^(٥٧). ويكتب أحمد عطاونة عن مزج الرموز في كلام الذين يتكلمون الإنجليزية والعربية لغتين أصليتين^(٥٨)، يناقش هذه الظاهرة مقارناً إياها بأوضاع مشابهة في أماكن أخرى من العالم. ويكتب ر. كيرك بيلناب وأسمامة شبانة عن جموع الأشياء غير العاقلة في اللغة العربية الفصحى واللغة العربية المعاصرة والمطابقة

Farida Abu - Haidar, " Shifting Boundaries: The Effect of Standard Arabic on (٥٢) Dialect convergence in Baghdad", in Broselow, Eid, and McCarthy, PP. 91 - 106

Mushira Eid, " Pronouns, Questions and Agreement", in Broselow, Eid, and (٥٤) McCarthy PP. 107- 141.

John C. Eisele, "Egyptian Arabic Auxiliaries And The Category of Aux", in (٥٥) Broselow Eid , and Mc Carthy, PP. 143 - 165.

Niloofer Haeri, "Synchronic Variation In Cairene Arabic: The Case of (٥٦) Palatalization", in Broselow, Eid and McCarthy, PP. 169 - 180.

Keith Walters, "A sociolinguistic Description of (u:) in Korba Arabic : Defining (٥٧) Linguistic Variables in Contact Situation and Relic Area", in Broselow, Eid and McCarthy, PP. 181 - 217

Ahmad Atawneh, "Code - Mixing In Arabic - English Bilinguals", in Broselow, (٥٨) Eid and McCarthy, PP. 219 - 241.

بين الأسماء الجمع والصفات^(٥٩)، ويقرّان فيها بعض النتائج عن تاريخ اللغة العربية. وأخيراً تكتب كارين ريدننج عن التحليل التركيبي الصرفي في كتاب الجمل في التحوّل محلة في اللغة الوصفية والمنهج في هذا الكتاب المنسوب للخليل بن أحمد^(٦٠).

وتختتم كل واحدة من المقالات في المجموعات الأربع بقائمة للمراجع تشهد على مدى العمل العلمي المتشعب والمتعمق الذي حظيت به اللغة العربية.

مكانة الدراسات النحوية العربية

ظللت الإشارات إلى إسهام العرب المسلمين في دراسة اللغة نادرة، فكثير من كتب تاريخ البحث اللغوي إما أن تتجاهل ذلك الإسهام أو أن تقلل منه إذا ذكرته، ومن ذلك ما يقوله ج.-س. جرين: "من اللافت للنظر أنه يبدو أن العرب لم يسهموا بشيء في دراسة اللغة يمكن أن يقارن بدراساتهم التي أدت إلى توسيع الرياضيات، والفلك والطبيعة والطب والتاريخ الطبيعي وتطويرها"^(٦١).

وإذا ما ذكر تاريخ النحو العربي فكثيراً ما يقرن بأثر أجنبى أسلهم فى نشوئه. ومن ذلك أن النحو العربي متأثر بالدراسات اليونانية. أو متأثر بالدراسات الهندية. لكن هذا الحال تغير خصوصاً مع ازدهار الدراسات اللسانية المتأثرة بفكر شومسكي. وذلك أن شومسكي ينظر إلى اللغات عموماً على أنها تمثلات لشيء واحد عام في بني الإنسان مخصوصين به. ولذلك لا تستغرب التشابهات

R. Kirk and Osama Shabanchi. "Variable Agreement and Non - Human Plurals (٥٩)" In Classical and Modern Standard Arabic". In Broselow, Eid and McCarthy, PP 245 - 262.

Karin C. Ryding. "Morphosyntactic Analysis In Al - Jumal Fil L- Nahw: (٦٠) Discourse Structure And Metalanguage". In Broselow, Eid, and McCarthy, PP. 263-277

(٦١) نقلًا عن Kees Versteegh في كتابه:

Greek Elements In Arabic Linguistic Thinking (Leiden Brill, 1977) PP. VII - VIII.

الكثيرة العميقية بين اللغات كما لا تستغرب أن يصل بنو الإنسان في دراسة لغاتهم إلى نتائج متشابهة. ونتيجة لهذا الأثر بدأ توجه جديد فيما يخص الدراسات العربية في الغرب ذلك هو البحث في تاريخ النحو العربي.

ومن أوائل الأبحاث التي تحو هذا النحو مقال كتبه ديفيد بترسون بعنوان "بعض الوسائل التفسيرية عند النحويين العرب" (٦١). ويناقش فيه لجوء النحويين العرب إلى التأويل والتجريد، ويختتم بقوله: "... يجب أن يكون واضحاً من النقاش الذي تقدم أن النحويين العرب لم يكونوا وصفيين لا يهتمون إلا بالظاهر بأي حال. بل إنهم بنويون بالمعنى نفسه الذي يصنف به أكثر الدرس اللساني في القرن العشرين ومن ضمنه النحو التوليدي التحويلي بأنه بنوي - إن النحويين العرب كانوا مهتمين بالتحليل البنوي الذي يصل الأشكال بعضها ببعض وذلك ما يؤدي إلى تفسيرها. إن من اللافت للنظر أن تكون بعض تحليلاتهم مجردة ومصوّحة بمصطلحات تشبه ما يستعمله اللسانيون اليوم... إن دليل نجاحهم يبيّن أن عملهم لم يتجاوز إلا في حالات قليلة" (٦٢) ولنذكر هنا ما قاله مايكيل بريم في مقدمة رسالته للدكتوراه وهو ما أشير إليه من قبل في هذا البحث. وهناك أعمال كثيرة اهتمت بهذا الجانب، لكنني سوف أهتم هنا بعدد من الأبحاث التي صدرت أخيراً.

ومن أشهر العاملين في هذا الاتجاه مايكيل كارتر فقد كتب عدداً كبيراً من المقالات والكتب عن موضوع تاريخ النحو العربي خصوصاً ما يتعلق بكتاب سيبويه (٦٤). ومن ذلك المقالات والكتب التالية : "عشرون درهماً في كتاب

David Peterson, "Some Explanatory Methods of the Arab Grammarians", in (٦٢)
Paul M. Peranteau, Judith N. Levi, and Gloria C. Phrase (eds.) Papers from the
8th Regional Meeting of Chicago Linguistic Society, 1972) 502 - 515.

David Peterson, "Some Explanatory....." P 513 (٦٣)

Michael G. Carter. A study of Sibawaihi's Principals of Grammatical Analysis. (٦٤)
Ph.D. Dissertation, Oxford University, 1968.

سيبويه^(٦٥). وهو يتحدث عن استعمال سيبويه لهذا التعبير للتمثيل في كثير من الأحيان. و "أصول النحو العربي"^(٦٦)، و "تحوي عربي من القرن الثامن الميلادي"^(٦٧)، و "الصرف والخلاف: مساهمة النحو العربي"^(٦٨)، و "اللسانيات العربية"^(٦٩) وهو كتاب حق فيه وترجم مخطوطاً عربياً نحوياً هو "تور السجية في حل المسائل الأجرمية" لمؤلفه سيدي محمد الشربيني الذي عاش في القرن السادس عشر الميلادي في مصر. وتحتوي هذه الترجمة على النص العربي ثم ترجمته إلى اللغة الإنجليزية مضافاً إلى ذلك تعليقات مفصلة عن مسائل النحو العربي والخلاف فيها ومناقشتها بعض الأعمال الحديثة التي ناقشت بعض القضايا التي ذكرت في الكتاب. ويختتم بفهرس للأيات القرآنية والأبيات الشعرية المستشهد بها والأسماء والمؤلفين وعناوين الكتب. وزيادة على ذلك فهناك أثنتا عشرة صفحة تحتوي على المصطلحات العربية المستعملة وترجمتها إلى مصطلحات إنجليزية. " واستعمال أسماء العلم في كتاب سيبويه أداة للاختبار"^(٧٠)، و "متى صارت كلمة النحو اسماً على النحو"^(٧١)، و "المصطلح "سبب" في النحو

- Michael G. Carter. "Twenty Dirhams in the Kitab of Sibawaih". Bulletin of (٦٥) School of Oriental And African School. 35 (1972). PP 485 - 496
- Studies.Michael G. Carter. "Les Origions de la Grammaire Arabe". Revue des (٦٦) PP. 69 97. (Etudes Islamique. 40 (1972)
- Michael G. Carter. "An Arabic Grammarian of the Eighth Century A.D". (٦٧) Journal of Americal Oriental Society. 93 (1973) PP. 146 - 157.
- Michael G. Carter. "Sarf et Khilaf: Contribution a la Grammaire Arabe". (٦٨) Arabica. 20 (1973) PP. 292 - 304.
- Michael G. Carter. Arabic Linguistics. (AmesterdamL Philadelphia: John (٦٩) Benjamins Publishing Co., 1981).
- Michael G. Carter. "The Use Of Proper Names as a testing Device in Sibawaih's (٧٠) Kitab". In Versteegh, Koerner, and Niederrehe (eds.) The History of Linguistics in the Middle East. (Amesterdan/ Philadelphia: John Benjamins Publishing Co.. 1983) PP. 109 - 120.
- Michael G. Carter. "When did the Arabic Word Nahw First Come to Denote (٧١) Grammar". Language and Communication 5 (1985) PP. 265 - 272.

العربي" (٧٢)، وغير ذلك كثیر. كما أسهם مع كيس فريستينغ في تحرير كتاب بعنوان "دراسات تاريخ النحو العربي" (٧٣). ويحتوي هذا الكتاب على اثنين وعشرين مقالاً تهتم كلها بتاريخ النحو العربي وهي حصيلة مؤتمر عُقد في جامعة نيمجن في ألمانيا في سنة ١٩٨٧م.

ويقول المحرران في مقدمة هذا الكتاب "يمكن أن يشار هنا إلى نقطتين مهمتين يعني بهما مؤرخ اللسانيات : فالنقطة الأولى أن الاهتمام العميق الظاهر الآن باللسانيات العربية هو من غير شك نتيجة لتطور اللسانيات العامة وصقلها إذ وضع هذا لتطور العلماء الغربيين في مستوى يمكنهم فيه أن يقدروا عمق التفكير اللساني العربي ودقته؛ وبغض النظر عن النواحي التي يمكن أن تكون اللسانيات النظرية قد فشلت في إنجازها في الدوائر العلمية الغربية إلا أنها أسمحت من غير شك إسهاماً موجباً في فهمنا للسانيات غير الغربية. والنقطة الثانية هي أنه من الواضح أنه على المستوى النظري الكلي أو على المستوى التطبيقي كليهما فإن هناك بعض الدروس التي يمكن للسانيات الحديثة أن تتعلمها من النحويين العرب القدماء. إن مفهوم الكليات اللسانية في الأقل ربما لا يمكن نقاشه الآن من غير النظر في التجارب المتشابهة في اللغة العربية، حيث يجب لا يؤكد تطبيق كثير من معطيات اللسانيات المعاصرة من غير الإشارة إلى التقاليد اللسانية التي تعد اللغة العربية أشهرها من حيث النضج الذي لا يقل عن نضج الأنظمة اللسانية المألوفة مثل الهندية أو الصينية. إن المنهج باللسانيات العامة الذي يعرف العربية أو هو على استعداد لأن يتعلم من العربية ما يمكنه من فهم محتوى المقالات الموجودة في هذه المجموعة قد يجد بعض المعلومات التي يمكن أن تقود إلى تعديل بعض آرائه التي تأسست كلها على التقاليد الغربية"

أما عن ما تتصف به المقالات التي تؤرخ للنشاط النحوي العربي في هذه

Michael G. Carter. "The term Sabab in Arabic grammar," *Zeitschrift Fur arabische Linguistik*, 15 (1985) PP. 53 - 66.

Kees Versteegh and Michael G. Carter. *Studies in the History of Arabic Grammar II*. (Amsterdam/ Philadelphia: John Benjamins Publishing Co., 1990).

المجموعة فيقول المحرر ان : "إن الملاحظ في (المقالات التي تهتم بتاريخ بعض النحوين) أنها تتعذر حدود المناهج التقليدية في البحث، تلك التي تركز أساساً على التفصيلات الخاصة بسيرة حياة النحوين، وتحو نحو فحص إنتاجهم العلمي بوصفه منظومة من الأفكار الثابتة التي لابد أنهم حصلوا عليها من سابقهم، وبهذه الطريقة لم يعترف إلا بوجود عدد قليل من العباقرة". أما البديل فهو: " كما يتبيّن من عدد من المقالات في هذه المجموعة، فإن النحو المسلم كان حراً في تطوير أي رأي يراه معقولاً ومتماشياً مع دينه، ولذلك فإن القارئ المعاصر يجب أن يتوقف عن النظر إلى الإسلام على أنه عنصر ثابت، وأن ينظر بدلاً عن ذلك إلى الخصوصية والمبادرة التي كان المتفقون المسلمون أحراً في اتخاذها".

والمقال الأول في هذه المجموعة كتبته جورجينا أليوب بعنوان " وهذا ما لا يقال في كتاب سيبويه: مفهوم التمثيل"^(٧٤). وقد تحدثت فيه عن مفهوم التمثيل الذي يتكرر ايراده في كتاب سيبويه أداة من أدوات التحليل.

ويكتب رمزي بعلبكي عن "الإعراب والبناء: من المادة اللسانية إلى النظرية النحوية"^(٧٥). ويناقش بعلبكي في هذا المقال هذين المصطلحين ويرى أن سيبويه ضحى بالاختلافات اللهجية في سبيل تكوين نظرية لسانية منضبطة. ويكتب مونيك برناردز عن "النحوي البصري أبي عمرو الجرمي: موقعه بين سيبويه والمفرد"^(٧٦) ويحاول فيه أن يؤرخ لآراء الجرمي. ومنها ما يخص الاعتراض على بعض آراء سيبويه. ويكتب هائز هنريش بيسستر فيلت عن

Georgine Ayoub. "De ce Qui" Ne DIT Pas Dans Le Livre De Sibawayh: La^(٧٤) Notion De TAMTIL. in versteegh and Carter. PP. 1-15"

Ramzi Baalbaki. "LRAB and BINA from Linguistic Reality To Grammatical Theory". in Versteegh and Carter. 17-33.

Monique P.L.M Bernards. "The Basran Grammarian Bu Umar Al - Garmi: His^(٧٦) Position Between Sibawayh And Murbarrad". Versteegh and Carter. PP. 35-47

"الفصل الذي كتبه ابن فرغون عن النحو العربي في كتابه جوامع العلوم"^(٧٧). ويكتب هارتموت بويزن عن "غوليلوم بوسطال (١٥١٠ - ١٥٨١م) وكتابه عن مصطلحات النحو العربي"^(٧٨). ويكتب مايكل كارتر عن "قاضي، قاض (قاض) ما العنصر الغريب بينها"^(٧٩). ويرى أن الشكل غير الممكن منها هو (قاض) وذلك اعتماداً على فحصه لكتاب سيبويه. ويرى أن وجود (قاض) في كتاب سيبويه كان نتيجة خطأ من النسخ والمحققين. ويكتب جانيوس دانيكي عن "النظرية الصوتية للمبرد"^(٨٠). ويرى أنها لم تأت بشيء جديد يتجاوز نظرية سيبويه. ويكتب كنجا ديفيني عن "مناهج الفراء اللسانية في كتابه معانى القرآن"^(٨١). ويقارن بين مناهج الفراء ومناهج سيبويه، فيرى أن الفراء ليس مهتماً بالتنظير أساساً بل إن تنظيره يأتي انطلاقاً من تفسيره لبعض الآيات. أما سيبويه فإن هدفه هو صوغ نظرية متماسكة للغة العربية ويأتي بالنصوص لتدعم ذلك التنظير. ويكتب جوزيف ديسي عن "معالجة النحوين العرب للمصطلح حرف"^(٨٢). ويكتب إيفهارد ديتز عن "جمع المادة اللغوية عند العرب قديماً وحديثاً"^(٨٣). ويتحدث فيه عن التقنيات التي استعملها العرب القدماء في جمع المادة اللغوية. ويرى أن النحوين العرب أخذوا اللغة من ثلاثة مصادر: القرآن

Hans - Hinrich Biesterfeldt, "IBN Farighun's Chapter on Arabic Grammar in (٧٧) His Compendium of The Sciences", in Versteegh and Carter, PP. 49 - 56.

Hartmut Bobzin, "Guillaume Postel (1510 - 1581) Und Die Terminologie Der (٧٨) Arabischen National Grammatik", In Versteegh and Carter, PP. 57 - 71

Michael G. Carter, "Qadi Qadi, QAD : Which one is the Odd Man Out?" in (٧٩) Versteegh and Carter, PP. 3 - 90

Janusz Danecki, "The Phonetrical Theory of Mubarrad", in Versteegh and (٨٠) Carter, PP. 91 - 99.

Kinga Devenyi, "On Farra's Linguistic Methods In His Work Maani Al (٨١) Quran", In Versteegh and Carter, PP. 101 - 110

Joseph Dichy, "Grammatologie De L' ARAB: Les Sens Du Mot Harf Ou Le (٨٢) Labyrinthe D'une Evidence". In Versteegh and Carter, PP 111-128

Everhard Ditters, "Arabic Corpus Linguistics In Past and Present". In versteegh (٨٣) and Carter , PP. 129-141

الكريم، والشعر الجاهلي، وكلام البدو. وتختلف هذه المستويات بعضها عن بعض، وذلك ما أثر في وصف اللغة العربية، إذ نحت النظرية إلى معالجة هذه المصادر الثلاثة وكأنها متماثلة. ويكتب بو جمعة الأخضر عن الفرق الذي يرآه بين النحو العربي الذي يعطي الأهمية لكلمة والمدارس اللسانية الحديثة التي تعطي الأولوية للجملة. ويرى أن التفكير اللساني العربي يجب أن نقرأه قراءة جديدة تقوم على الأخذ والعطاء بينه وبين المدارس اللسانية الحديثة^(٨٤). ويكتب عبد العالى العمرانى جمال عن الربط بين المسند والمسند إليه^(٨٥). وتكتب روز الدين جوابين عن "الاحتجاج بالأقوى في الفقه والنحو والكلام"^(٨٦). ويعنى الاحتجاج بالأقوى أنه إذا صح أمر في شيء أقل فإنه يصح أيضاً في شيء أقوى منه. ومثل ذلك يقول القائد اليونانى زينوفون لجنوده "إنه ما دام أن جيشاً أقل من الجنود اليونان استطاع هزيمة الفرس وفتح مدنهم فإن الجنود اليونانيين لا بد أنهم يستطيعون مثل ذلك" وقد تتبع الكاتبة استعمال هذه الحجة عند الشافعى فى الفقه وعند سيبويه فى النحو وعند المتكلمين مثل الجاحظ والنظام. وتنتهي من ذلك إلى أن هذه الحجة فى النحو والفقه والكلام كانت نتيجة للبيئة العلمية العربية المحلية ولم تكن نتيجة لتأثير أجنبى. وقد بدأ استعمال هذه العلة فى الفقه؛ ولما كان سيبويه فى أول أمره مشتغلًا بالحديث الذى لم يكن متخصصاً عن الفقه قد اكتسب هذه الحجة واستعملها فى كتابه. ويكتب جنفيه همبرت عن "تحقيق كتاب سيبويه وعن المخطوطات التى كانت أساساً لهذه التحقيقات"^(٨٧) ويبين فيها عدداً من الملاحظات على هذه التحقيقات. ويكتب بير لارشير عن "عناصر

Boujema El - Akhdar, "Le Patrimoine Linguistique Arabe Ancien : Problèmes (٨٤) De Relecture," in Versteegh and Carter, PP. 143 - 149

Abdelali Elamrani - Jamal, "Verbe, Copule, Nom Dérive (Fil, Kalima, Ism) (٨٥) Mustagg) Dans Les Commentaires Arabes Du Peri Hermeneias D' Aristote (avec un texte inédit d'Ibn Rusd), In Versteegh and Carter, PP. 151 - 164

Rosalind Gwynne, "The A Fortiori Argument in Fiqh, Nahw, and Kalam," In (٨٦) VerSteegh and Carter, PP. 165 - 177.

Genevieve Humbert "Remarques Sur les Editions Du Kitab De Sibawayhi Et (٨٧) Leur Base Manuscrite," in Versteegh and Carter, PP. 179 - 194

المقامية في النظرية العربية النحوية فيما بعد الفترة الكلاسيكية^(٨٨) ويناقش ما ورد في كتاب شرح الكافية للاسترابادي من عناصر ليست جزءاً من النحو بل هي تمثيل مجرد للمعنى وللظروف التي يقع فيها الكلام. ومن ذلك التفريق في الجملة الإنسانية بين الجملة الطلبية والجملة الإيقاعية. "فأنت في الطلبية لست على يقين من حصول مضمونها... وأما الإيقاعية نحو بعث وطلقت فإن المتكلم بها لا ينظر أيضاً إلى وقت يحصل فيه مضمونها بل مقصوده مجرد ايقاع مضمونها وهو مناف لقصد وقت الوقع بل يعرف بالعقل لا من دلالة اللفظ أن وقت التلفظ بالضبط الإيقاع وقت وقوع مضمونه". ويشير إلى أن وجود مثل هذه العناصر في الوصف النحوي العربي يدل على معاصرتها لما يناقش اليوم حول الموضوع. وتكتب فيفيان لو عن "هل هناك تأثير هندي على دراسة العرب للأصوات أم أن التشابه بين الدراسيين كان نتيجة تشابه عارض؟"^(٨٩). وتبيّن فيه أن القول بأن العرب أنسوا وصفهم الصوتي للغتهم على استعارتهم هذا الوصف من الهندوس أمر غير ممكن. وذلك أنه في الحالات المعروفة تاريخياً عن اقتباس نظام وصفي من لغة إلى لغة أخرى مثل اقتباس الرومان من اليونان، واليهود من العرب، واللغات الأوروبية الحديثة من الرومان والبابليين والصينيين من الغرب فإن هذا الاقتباس تميز في هذه الحالات جميعاً بوجود عدد كبير من الأفكار المرتبطة بالوصف المقتسس، وعدد كبير من الكلمات المقترضة من الأصل، وترجمات لبعض تلك الكلمات. لكن هذا ليس هو الواقع في العربية. فلغة الوصف الصوتي ومصطلحاته خالية تماماً من هذه المظاهر. وكان مصدر الزعم بأن العرب استعاروا من الوصف الصوتي من الهندوس - كما تبيّن - مساواة بعض الباحثين بين كلمة "مخرج" عند النحاة العرب وكلمة Sthana عند الهندوس. وقد بيّنت أن هذا الزعم ليس صحيحاً بل هو وليد عدم فهم المصطلحات الهندية. لما كان العرب قد أنسوا وصفهم الصوتي على أساس نظرية فإنه ليس

Pierre Larcher, "Elements Pragmatiques Dans La Théorie Grammaticale Arabe (٨٨) Post-classique", in Versteegh and Carter PP. 195 - 214.

Vivien Law, "Indian Influence on Early Arab Phonetics - or Coincidence?" in (٨٩) Versteegh and Carter. PP. 215 - 227.

هناك حاجة للاستعارة من الآخرين. ويكتب أحمد المتوكل عن تحليل السكاكى لمفهوم "الغرض" وهو ما يبين أن هذه المناقشة ذات صلة بالنقاش الحديث فى التحليلات الفلسفية واللسانية عن الصلة بين الفكر واللغة^(٩٠). ويؤرخ أحمد مختار عمر للدراسات النحوية في مصر في العصور الأولى^(٩١). ويكتب جوناثان أوين عن "بعض المفاهيم التي كانت وراء تطور النظرية العربية النحوية"^(٩٢).

ويناقش في هذا البحث بعض التحليلات المتعاقبة لبعض القضايا النحوية ويشير إلى أن تغير التحليلات يدل على تطور في النظرية النحوية. ومثل ذلك التحليلات المختلفة عند سيبويه والمبرد وابن الزجاج والجرجاني للإضافة؛ وتحليلات سيبويه والأخفش والمبرد للمنصوبات. ويرى أن المدارس النحوية العربية لا تختلف بين بصرىيين وكوفيين وبغداديين... إلخ مكаниاً بل تختلف زمانياً، ونظرياً بين المعاصرين. ويكتب رافائيل تالمون عن "الفراء المتفاسف": تفسير قول غامض منسوب لطلب^(٩٣). ويناقش فيه الفوله التي ترى أن النحو العربي أقيم على أساس يونانية ويؤيد هذه المقوله برد بعض المصطلحات التي استعملها الفراء إلى أصولها اليونانية التي كانت معروفة للعرب في تلك الفترة.

ويكتب كيس فريستينغ عن "مصطلح "الاتساع" والمفاهيم المتعلقة به في النحو العربي وهل تدل على حرية المتكلم؟"^(٩٤). ويقصد به استعمال هذا

Ahmad Moutawakil. "LA Notion D' Actes De Langage Dans La Pensee Linguistique Arab Ancienne". In Versteegh and Carter. PP. 229 - 238.

Ahmad Mokhtar Omar. "Grammatical Studies In Muslim Egypt". Versteegh (٩١) and Carter PP. 239 - 251.

Johnathan Owens. "Themes In The Development of Arabic Grammatical (٩٢) Theory" in Versteegh and Carter PP. 253 - 263.

Rafael Talmon. "The Philosophizing Farra". An Interpretation of An Obscure (٩٣) Saying Attributed to the Grammarian . Tha' lab. In Versteegh and Carter. PP. 265 - 279.

Kees Versteegh "Freedom of the Speaker? The Term Ittisa ' And Related (٩٤) Notions In Arabic Grammar". in Versteegh and Carter. PP 281 - 293.

المصطلح في الوصف في النحو العربي. ويدل هذا المصطلح على حرية المتكلم في التصرف بالكلام مجازاً وتوسعًا في القواعد. ويكتب رونالد وولف عن تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء^(٩٥). ويرى أن هذا ليس كتاباً واحداً إنما هو مزيج من كتب أخرى لابن مضاء. وينتهي الكتاب بفهرسين أحدهما للأسماء التي ذكرت في الكتاب والأخر في ٩ صفحات يحتوي على المصطلحات التي ذكرت. ويحتوي كل مقال على قائمة بالمراجع التي اعتمدتها المؤلف وهي تعطي صورة واضحة للنشاط الواسع في هذا الميدان الح邈.

ومن المبرزين في الإسهام بدراسة النحو العربي كذلك جوناثان أوين. فله عدد كبير من المقالات التي تناقش قضايا معينة في النظرية النحوية العربية. وسوف أقتصر هنا على عرض كتابين حديثين له في هذا الموضوع. والكتاب الأول هو "مقدمة للنظرية العربية النحوية في القرون الوسطى". ويقع في ٣٦١ صفحة^(٩٦). ويكون من مقدمة وثمانية فصول وثلاثة ملاحق وقائمة بالمراجع وثلاثة فهارس. وفي المدخل الذي صدر به الكتاب يشير إلى أن الفكرة التي محتواها أن الممارسة اللسانية العربية يمكن أن تفهم حق الفهم من خلال المبادئ اللسانية العامة لم تبدأ إلا في أوائل السبعينيات من القرن العشرين. كما يشير في المقدمة إلى أن كلمة "القرون الوسطى" التي تظهر في عنوان الكتاب يجب أن يفهم منها الفهم المتعدد عليه في الدراسات الغربية التي يمكن فيها أن تشير هذه العبارة إلى غموض المنهج وتعقيده. وذلك أن النظرية العربية النحوية في تلك الفترة تتشابه مع النظرية اللسانية المعاصرة في عدد من الأمور الأساسية، وهو ما يجعل مناقشتها أسهل بالنسبة للقارئ الغربي. ويشير كذلك إلى أنه يمكن البرهنة على أن أحد الأسباب التي أدت إلى عدم تقدير النظرية العربية حين

Ronald G. Wolfe, "Ibn Mada, Al - Qurtubi's Kitab Ar - radd' Ala N- NuhaT: (٩٥) An Historical Mishnomer", In Versteegh and Carter, PP 295 - 304

Jonathan Owens. The Foundations of Grammar: An Introduction to Medieval (٩٦) Arabic Grammatical Theory. Amsterdam/ Philadelphia: John Benjamins Publishing Co. 1988).

اكتشفها الغربيون في القرن التاسع عشر عندما تكونت التقاليد الاستشرافية، هو أنه لم يكن في الحضارة الأوروبية في تلك الفترة مثيل لها. ولم توضع هذه النظرية في منظور أحسن إلا مع التقاليد البنوية التي أتى بها دي سوسوروبلوم فيلد وتشومسكي^(٩٧).

ويتعرض في المقدمة^(١٨) إلى المعالم البارزة في تاريخ النحو العربي بدءاً من سيبويه ويشير إلى مصادر هذا النحو التي تتكون من كتب النحو الوصفية مثل كتاب سيبويه والكتب المتخصصة في مواضع معينة مثل كتاب المنصف لابن جني الذي يعالج الصرف وكتاب الزجاج "ما ينصرف وما لا ينصرف" الذي يعالج الممنوع من الصرف، وكتب أصول النحو مثل الإيضاح في علل النحو للزجاج والخصائص لابن جني، وكتب البلاغة مثل دلائل الإعجاز للجرجاني، وكتب اللغة والمعاجم، وكتب التفسير، وكتب أخرى ثانوية. ويبيّن هنا أنه سوف يتصرّ دراسته على الفترة الممتدة من المبرد إلى ابن عقيل وذلك بسبب تطور النظرية تطويراً محكماً من ناحية الأدوات الوصفية.

ويقول إنه على العكس من النظرية اللسانية المعاصرة التي تكون فيها مبادئ الوصف والتفسير معلنة واضحة فإن هذه المبادئ في النحو العربي لم تكن تذكر علناً في كل حال. لكن هذا لا يمنع الباحث المدقق من العثور عليها لأنها وإن لم تكن معلنة فإنها منفذة فعلاً، وهي ليست أقل من حيث الدقة^(٩٩).

وفي الفصل الثاني الذي عنونه بـ "البنية، والوظيفة، والفصيلة، والتعلق"^(١٠٠) يشير إلى الإطار الذي يحدد النحو العربي، فقد وعى النحويون أن الكلام له بنى محددة ولهذه البنى وظائف. وأنظهر ما يكون ذلك في الدراسات

Jonathan Owens. *The Foundations of Grammar*. P.L

(٩٧)

Jonathan Owen. *The Foundations of Grammar*. P.1 - 30

(٩٨)

Jonathan Owens. *The Foundations of Grammar*. P. 23

(٩٩)

Jonathan Owens. *The Foundations of Grammar*. "Structure. Function, Class, (١٠٠) and Dependence". PP. 31 - 88

الصرفية إذ نظر إلى كلمات اللغة كلها كamodel لموازين معينة.

وكذلك بحثهم عن الأصل لبعض الكلمات التي يخالف ظاهرها باطنها مثل الأفعال المعتلة ونظرتهم إليها على أنها مثل الكلمات غير المعتلة في خصوصيتها للموازين نفسها، كما أن نظرتهم إلى أن الجملة هي الوحدة الأساسية للتحليل النحووي قادتهم إلى دراسة الموضع التي تقع فيها الكلمات التي تتبع إلى فصائل معينة.

وقد قادهم البحث إلى فكرة "العامل" التي تظهر أنه لم يكونوا ينظرون إلى الكلمات في الجملة على أنها نتيجة للتتابع عشوائي. فهذه الكلمات يحكم بعضها بعضاً. فوجود كلمات معينة يستدعي وجود كلمات أخرى. ووجود كلمات معينة يوجب إعراباً معيناً في كلمات تبعها. وهذا مما يوضح نظرتهم إلى أن اللغة نتيجة لتركيب محكم. وعندما يقارن أوين هذه الأفكار بإحدى المدارس اللسانية لتحليل الجمل وهي مدرسة "تحو التعلق" dependency grammar يجد أن النظريتين تقولان الشيء نفسه. ويستمر في عقد مقارنات أخرى كلها تشير إلى هذه المشابهات.

وفي الفصل الثالث الذي خصصه للصرف^(١٠١) يناقش النظريات الصرفية العربية. وقد أشار إلى الاهتمام الواسع الذي أولته الدراسات العربية للصرف والأصوات. وأول ما يلاحظه أن النحو العربي فرق بين الصيغة ومعناها. كما يشير إلى تفریقهم بين الصوت والحرف. ويشير إلى انتباه النحوويين إلى أن الكلمات العربية تعود إلى جذور ثلاثة في الغالب واختراعهم للميزان الصرفي الذي يعين الجذور الأصول في الكلمة والحرروف المزيدة عليها التي تستعمل في تعين معانٍ فرعية. ويبين أن بعض الدراسات الحديثة أشارت إلى مماثلة هذه النظرية لنظرية اللسانى البريطانى فيرث. ويتوسع في عرض الدراسات الصرفية والمبادئ التي تحكمها ويعرض كثيراً من أوجه التحليل الذي جاءت به.

Jonathan Owens. The Foundations of Grammar "Morphology." PP. 89-124. (١٠١)

وفي الفصل الرابع "صيغ الكلمات"^(١٠٢) يتكلّم عن تصنّيف العلماء العرب الكلمات إلى أسماء وأفعال وحروف والمبادئ التي قادت إلى هذا التصنّيف. كما عرض لكثير من المسائل المتعلقة بهذا التصنّيف ومحاولة النحوين حل المشكلات التي تعرّض عليه والخلافات بين المدارس النحوية في ذلك. ويعقب على بعض هذه المشاكل بقوله: "ليس المهم هنا أن نعيّن من انتصر على الآخر، بل المهم هو أن نبين أن التحوّيين العرب وعوا وجود هذه المشكلات والحالات غير الواضحة، وأنهم استعملوا مبادئ لسانية عامة لحلها".^(١٠٣)

وفي الفصل الخامس "العبارة الاسمية"^(١٠٤) يتكلّم عن تحليل النحوين العرب لتراتيب يدخل فيها الاسم مثل الصفة والموصوف والحال والمضاف والتتابع الأخرى. وعلى الرغم من عدم تطوير النحو العربي لمقوله تماثيل "المركب الاسمي" في الدرس اللساني الحديث إلا أنه يمكن القول إن النحوين العرب كانوا واعين لها بصورة ضمنية.

وفي الفصل السادس "التعديه"^(١٠٥) يبيّن تحليل النحوين العرب للمفاعيل والوسائل التي يعدها الفعل إليها. ويرى أنه على الرغم من عدم وجود طريقة كاملة لمعالجة هذه القضية في النحو العربي إلا أن النحوين العرب قدموه مادة ضخمة تتعلق بهذه القضية وتناولوها بشكل مضطرب.

وفي الفصل السابع "الحذف"^(١٠٦) يعرض تقدير العلماء العرب تراتيب محذوفة في تحليلهم لبعض الجمل. وقد عرض للأدلة التي اتخذها العرب للتخلص على وجود المحذوفات على مستوى أعلى من التجريد. ومن هذه الوسائل:

Jonathan Owens. The Foundations of Grammar. "Word Class". PP. 125 - 147 (١٠٢)

Jonathan Owens. The Foundations of Grammar P. 147. (١٠٣)

Jonathan Owens. The Foundations of Grammar. " The Noun Phrase", PP. 148- (١٠٤)

160

Jonathan Owens. The Foundations of Grammar. " Transitivity," PP. 167 - 185 (١٠٥)

Jonathan Owens. The Foundation of Grammar. " Ellipsis", PP. 186 - 198 (١٠٦)

السياق، والتراكيب، والاتساع، والمجاز. كما عرض البعض المبادئ التي تحكم تقدير هذه التراكيب المحذوفة بحيث لا يكون تقديرها عشوائياً، كما تكلم عن بعض الخلافات حولها. ويقارن أوين بين سمات الحذف في النحو العربي والحذف في النحو التحويلي ويرى أن النحوين يتفقان في أن مسببات الحذف تركيبية أساساً. وذلك لوجود فكرة العامل في النحو العربي. ففي الجملة التالية:

زيداً ضربته.

يقدر أن (زيداً) منصوب بفعل محذوف يدل عليه الفعل المذكور. كما أن النحو التحويلي يرى أن جملة مثل:

Shave yourself

لابد أن يكون فيها فاعل الفعل المحذوف You وذلك لتفسير وجود الضمير على شكل Yourself بدلاً من أي شكل آخر. وعلى الرغم من هذا التشابه إلا أنه يبين أن هناك أربعة فروق بين النحو العربي والنحو التحويلي في مسألة الحذف. وأول هذه الفروق أن الحذف في النحو التحويلي هو نتيجة لكون الحذف لا يقع إلا إذا كان للمحذوف مثيل في النص. أما في النحو العربي فإن الحذف له سببان: السبب الأول تركيبي كما في الجملة المذكورة آنفاً، والسبب الثاني "مقامي" Pragmatic وذلك أن المحذوف يفهم من السياق. والفارق الثاني بين النحوين هو فرق في الاهتمام ففي الوقت الذي ينظر فيه النحو العربي إلى الحذف على أنه محاولة للوصول إلى معرفة المحذوف فإن النحو التحويلي يبدأ من الجمل الكاملة ويطبق عليها قواعد الحذف ليصل إلى الشكل الظاهري لها. والفرق الثالث هو في النحو التحويلي قواعد معينة للحذف أما في النحو العربي فإنه لم تحدد تلك القواعد بل لقد استندت تلك القواعد إلى المتكلم نفسه. والفرق الرابع هو أن النحو العربي كان ينظر إلى المعنى عندما يقترح الحذف وهذا ما لا نجده في النحو التحويلي.

ويعرض في الفصل الثامن لـ "الأصل في النظرية العربية"^(١٠٧) يعني بالأصل أنه في حال وجود أشكال مختلفة للمورفيم الواحد فإن واحداً منها يعد هو الأصل والأشكال الباقية فروع له. ويتبع عمل التحوين في هذه المسألة من اقتراحهم المقولات التالية:

<u>فرع</u>	<u>أصل</u>
أنقل	أخف
أضعف	أقوى
بعد	أول
ال فعل	الاسم
الجمع	المفرد
المؤنث	المذكر

إلى آخر ذلك.

ويقارن في هذا الفصل أيضاً بين النحو العربي والنحو التحويلي من حيث أوجه التشابه والاختلاف في هذه المسألة وهو يرى عدم التشابه بين التحوين لأن النحو التحويلي يسعى لتحويل جمل إلى جمل أخرى وذلك ما لم يحصل في النحو العربي. وينتهي إلى أنه من المضلل أن نساوي بين التحوين على الرغم من وجود بعض التشابه.

وفي الفصل التاسع "التركيب، والدلالة، والمقامية"^(١٠٨) يدرس ما عمله النحويون والبلاغيون العرب من ربط للمعنى بالشكل والعلاقة بينهما. ومن هؤلاء الذين اهتموا بهذه المسألة سيبويه والفارسي من التحويين والجرجاني من

Jonathan Owens. The Foundations of Grammar. "Markedness In Arabic (١٠٧) Theory". PP. 199 - 226.

Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory. " Syntax, Semantics, and (١٠٨) Pragmatic". PP. 227 - 264.

البالغين. ويعود مرة أخرى في هذا الفصل للمقارنة بين النحو التحويلي والنحو العربي في مسألة دراسة المعنى. ويرى أنه لا تشابه بين النحوين وذلك لاختلاف الاهتمام واختلاف التحليل.

ويختتم الكتاب بسبع وأربعين صفحة تحتوي على ٣٢١ تعليقاً ضمنها مناقشات على جانب كبير من الأهمية. وتأتي بعد هذه القائمة قائمة تحوي أسماء النحوين والأماكن التي عاشوا فيها وتاريخ وفياتهم. ويتبع هذه القائمة تلخيص لقواعد النحو العربي ومبادئه. ويتبعها قائمة بالأقوال النحوية التي استشهد بها وبعدها قائمة بالمراجع. وبعدها ملحق بأسماء العلماء القدماء التي وردت في الكتاب. ويتبع بقائمة بأسماء العلماء المعاصرین. وبعدها ملحق بالمواضيع التي نوقشت. واختتمت الملحق بملحق المصطلحات النحوية العربية التي ذكرت.

ومن هذا العرض السريع للكتاب نرى مدى عمق المعالجة وسعة التناول. ومثل هذه الدراسات التي تحو نحو التأطير المنهجي هي التي تتقص الدراسات العربية الحديثة إذ يتبيّن فيها المعنى الكلي والصورة الشاملة للنحو ومبادئه العاملة فيه. وهو يرتفع عن التفصيلات الدقيقة التي تمنع القارئ من رؤية المعالم البارزة المهمة لهذا الفكر العميق.

والكتاب الآخر لجوناثان أوين الذي سأعرضه هنا هو "النظريّة العربيّة النحوية المبكرة: التّوّع والتّوحّد"^(١٠٩) ويقع الكتاب في ٢٩٥ صفحة ويكون من مقدمة وعشرة فصول متّبوعة بملحقين وقائمة للمراجع وثلاثة ملاحق.

ويكاد يكون هذا الكتاب مكملاً للكتاب السابق وإن لم يكن ذلك الكتاب مهتماً بتاريخ الدراسات النحوية العربية غرضاً رئيسياً. فيهتم هذا الكتاب بمرحلة التأسيس التي يمثلها سيبويه والفراء خاصة بالإضافة إلى بعض النحوين

Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory: Heterogeneity and (١٠٩) standardization (Amsterdam/ Philadelphia : John Benjamins Publishing Co. 1990)

الآخرين الذين لم يكن لهم الدور نفسه في التأسيس مثل الجرمي والمازني والمسجستاني وقطرب. وعلى خلاف كثير من الكتب التي تؤرخ للنحو فلم يهتم أوين هنا بتفاصيل حياة النحويين بل كان جل الاهتمام منصبًا على آرائهم ودراساتهم النحوية وإذا ذكر بعض تلك التفاصيل فإنما لعلاقتها بتلك الآراء.

وقد درس في المقدمة^(١١٠) الآراء التي تصنف النحويين القدماء إلى مدرستي البصرة والكوفة وكذلك بغداد، وقد اقترح أن هذا التصنيف لم يكن موجوداً في الفترة المبكرة وأكثر الاحتمال أنه يعود إلى مرحلة لاحقة عندما استقر النحو. ودرس كذلك البدایات الأولى للنحو وصلته بالقراءات ثم عرض تعريفاً بأبرز النحويين وأعمالهم التي عرفت عنهم مثل الخليل والكسانی وسيبویه والفراء والأخفش والمبرد وثعلب والزجاج وابن السراج.

وفي الفصل الثاني^(١١١) استكملاً الصورة العامة للنحو فذكر ملاحظتين مهمتين هما: أن هناك كثيراً من القضايا المهمة التي شترک فيها المدارس النحوية المبكرة، والملاحظة الثانية أن النحو لم يتوقف تطوره عند ابن السراج. وقد مثل لذلك ببعض القضايا مثل فكرة العامل ودراسة الإضافة.

وفي الفصل الثالث "الفراء لسانياً"^(١١٢) يتحدث عن منهج الفراء كما يتمثل في كتابه "معانی القرآن". ويرى أن اهتمام الفراء كان بالتطبيق وذلك على عكس سيبویه الذي كان التظیر همه الأول. لكن دراسة الفراء في كتابه معانی القرآن تعطي صورة مجملة عن آرائه النظرية. ومن تلك الآراء أراوه عن "الأصل" و "الموضع" و "القواعد الكلية للغة" و "التابع" و "القياس". وكذلك دراسته للمذكر والمؤنث. ويقارن بين عمل الفراء في "معانی القرآن" وعمل

Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory. "Introduction". PP 1 -12. (١١٠)

Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory. "Two General Points". (١١١) PP. 13- 17.

Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory "Farra As Linguist". (١١٢) PP. 19-33

الزجاج الذي كتب كتاباً بالعنوان نفسه. ويدراسته لبعض آرائهم عن بعض الآيات، يرى أنه على الرغم من اختلاف المنهج والهدف وطريقة العرض فإن الفراء والزجاج يتبعان المبادئ نفسها وهذا ما يشير إلى أن منهج الفراء عموماً ليس مختلفاً عن منهج النحويين المعاصرين له. كما يشير ذلك إلى أن الخلاف بين البصريين والковيين لا يمكن أن يكون منهما مدرستين مختلفتين.

وفي الفصل الرابع "منهج سيبويه"^(١١٣) يعرض المؤلف منهج سيبويه ويقارنه بمنهج المدرسة البنوية الأمريكية في الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن. ولم يكن هذا المنهج معلنًا في سيبويه لكن كتابه كان نتيجة لمنهج محدد يمكن اكتشافه. ومن وجوه هذا المنهج استعمال سيبويه لفكرة "التبادل" وهي التي استعملها لتحديد الوظيفة التحوية وتوزيع الكلمات واكتشاف أصح الأشكال للكلمة وتحديد المعنى. ثم ذهب يعطي أمثلة لذلك. كما استعمل سيبويه بعض الطرق المنهجية الأخرى مثل استعمال الدليل السلبي والتصنيف والتبادل القياسي واستعمال الأمثلة الممثلة لغيرها وكذلك الكلمات واستعمال الأصل وغير ذلك. ويقارن بين سيبويه وابن السراج من حيث المنهج، حيث يرى أن النحو بلغ عند ابن السراج مرحلة من النضج المنهجي كبيرة.

وفي الفصل الخامس "التوابع"^(١١٤) يدرس هذه التركيبات ويطبق عليها منهج النحويين الأوائل مثل سيبويه وابن السراج والفراء والأخفش والمبرد وثعلب وأخرين مما يدل على تطور في تحليل هذه التوابع وإن كان اللاحقون لم يزيدوا من حيث المادة اللغوية شيئاً على ما ذكره سيبويه.

وفي الفصل السادس "بيان سيبويه والفراء من جهة والنحويين

Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory: "Sibawayh's (١١٣) methodology". PP. 36 -54

Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory: "Noun (١١٤) Complementation". PP. 55-102

المتأخرین"^(١١٥) يقارن بين النحوين السابقين واللاحقين وبين الخطوط العامة التي تساعد على فهم تطور التنظير النحوي العربي.

وفي الفصل السابع "الفراء حلقة وصل"^(١١٦) يدرس الفراء ممثلاً لحلقة تقع بين سببويه وبين النحوين المتأخرین ويعده ممثلاً لتطور الدراسة النحوية مقارناً إياه ببعض النحوين الآخرين.

وفي الفصل الثامن "الفراء وفترة التنوّع"^(١١٧) يبيّن أن الفراء كان ذا فكر نحوی متّميّز ومن أهم ما يتميّز به تفكيره استعماله مبادئ دلائلية في مقابل المبادئ الشكلية التي يستعملها سببويه.

وفي الفصل التاسع "نحويون غير بارزین"^(١١٨) يدرس عدداً من النحوين غير البارزین مثل لغة وابن كیسان وخلف الأحمر وثعلب وابن الأنباري ويبين إسهاماتهم ومدى موافقتهم للنحوين الكبار واختلافهم عنهم.

وفي الفصل العاشر "تطور مدريستي البصرة والكوفة"^(١١٩) يتحدث عن المبادئ التي اختلفت فيها المدرستان. والتطورات التي مرتا بها.

وفي الفصل الحادي عشر "التطور البنّوي للنظرية التركيبية العربية

Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory: "Sibawayh and Farra Vs. (١١٥)
Later Grammarians", PP 103 - 126

Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory: "Farra As Transitional (١١٦)
Figure", PP 127 - 156.

Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory: " Farra And The Period (١١٧)
of Heterogeneity" PP. 157 - 177

Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory: "Minor Writers", PP. (١١٨)
179 - 202.

Jonathan Owens. Early Arabic Grammatical Theory: "The Development of (١١٩)
The Basran And Kufan Schools", PP.203 - 219.

المبكرة^(١٢٠) يعرض العبادى التى كانت تؤطر النحو العربى منذ أطواره المبكرة. ويمكن أن يعد هذا الفصل خلاصة البحث كله إذ يعرض فيه المصطلحات التى استعملها النحويون المختلفون ويبين الأطوار التاريخية التى سلكتها هذه المصطلحات. وقد علل تسمية الفترة التى تسبق نهاية القرن الثالث الهجرى بأنها فترة التنوع بثلاثة أسباب هي : (١) أن هذه الفترة شهدت مبادئ مستقلة واضحة مختلفة عن الفترات اللاحقة، (٢) أن النحويين القدماء كانوا معروفين بكثرة الاختلاف فيما بينهم. (٣) أن التكير النحوى كان موجهاً إما لاتباع سيبويه أو الفراء.

وفي الملحق الأول يبين المواقع المتعلقة بالمسائل الصرفية الصوتية في كتابي الفراء والزجاج، ويبين المعانى المختلفة للكلمة "حرف" في كتب النحو وكذلك معانى المصطلحين المسند والمسند إليه عند الفراء، والمصطلح "الاشغال". ويبين مواقع التوابع الاسمية عند الأخفش، وبعض المصطلحات الأخرى التي استعملها الفراء، والمواقع التي ظهر فيها مصطلح "الإيقاع" في الجزء الأول من معانى القرآن للفراء، والمواقع التي أشار فيها ثعلب في مجالسه إلى البصريين والковفيين، والمواقع التي أشار فيها الزجاج في الجزء الأول من كتابه معانى القرآن للبصريين والkovfivin وغيرهم. وهناك ملحق آخر يحوى الأقوال التي استشهد بها من كتب النحويين. وملحق آخر يحوى أسماء النحويين وأماكن حياتهم وتاريخ وفياتهم. وهناك قائمة بأسماء المراجع والمصادر وفهرس للصفحات التي ذكر فيها النحويون في الكتاب، وفهرس للمصطلحات النحوية العربية، وفهرس للمواضيع التي نقشت في الكتاب.

ويتبين من هذا العرض الموجز للكتاب أنه يضع بين أيدينا تاريخاً للنحو العربي يختلف عن ما تعودنا عليه من كتب تاريخ النحو التي لا تعطي اهتماماً كافياً لدراسة تطور النحو نفسه وتاريخه، بل تهتم بدلاً من ذلك بحياة النحويين

وسرد القصص التي تروى عنهم. وتاريخ النحو في هذا الكتاب يعطي معنى للاختلافات التي نجدها بين النحويين ويرصد التطورات التي مر بها هذا النحو حتى استقر.

ولم تكن دراسة النحو العربي هي التي لفت الانتباه فقط بل إن العروض كان موضوعاً للدراسة. ومن بين من درسوا العروض العربي اللسانى الشهير موريس هاله^(١٢١) وكذلك ألان برنس^(١٢٢). لكن أكثر الدراسات الحديثة تفصيلاً هي دراسة جون مالنج التي ناقش فيها كثيراً من النقد الذي وجه إلى العروض العربي في الغرب، وبين أن نظرية الخليل محكمة جداً إذا نظر إليها على أنها تجريد يمكن أن يشق منه البحور ستة عشر، كما يمكن أن تصاغ العلل والزحافات صياغة مشابهة لصياغة القواعد الصوتية والصرفية التي جاءت بها المدرسة التوليدية التحويلية^(١٢٣).

وليس بالإمكان - كما قدمت - عرض كل ما كتب في الفترة الأخيرة عن النحو العربي لكن المطلع على الكتابين اللذين عرضتهما سيفاجأ بعدد البحوث التي كتبت وسفاجأ بتنوعها وعمقها حتى ليقاد يقول المرء إنه لم يترك جانب واحد في هذا النحو لم يدرس.

Morris Halle "on The Metrics of pre - Islamic Arabic Poetry". Quarterly (١٢١) Progress Report of the Research Laboratory of Electronics. 83 (Cambridge. . MA : MIT Press. 1966) 83 , PP. 113-116.

Alan Prince. " Metrical Forme. " In Paul Kiparsky and Gilbert Yoonmans (eds.) (١٢٢) Phonetics And Phonology: Rhythm And Meters. I. (New York: Academic Press. Inc. 1989) PP. 45 - 80

Joan Maling. The Theory Of Classical Arabic Meter. Ph. D.Dissertation. MIT. (١٢٣) Cam Bridge. MA. 1973.

وقد نشرت كاملة في مجلة الأبحاث التي تصدر عن الجامعة الأمريكية، العدد ٢٦ (١٩٧٣ - ١٩٨٨) ص ص ٢٩ - ١٠٦ .

الموقف من اللغة العربية بصفتها لغة

سبق أن قدمت أن الدراسات الغربية عن اللغة العربية كانت قد اكتسبت سمعة سيئة عند العرب المحدثين نتيجة لكتابات بعض المفكرين الغربيين والمستشرقين، ذلك أن بعض المفكرين الغربيين في القرن التاسع عشر كانوا عنصريين في توجهاتهم الفكرية مما نتج عنه الاعتراض بكل ما هو أوروبي والغض من كل ما ليس أوروباً. وقد عمّلت اللغات على أيدي هؤلاء معاملة تتسق بالزعم بأن اللغات غير الأوروبية قديمها وحديثها مختلف ولا يمكن أن تقارن باللغات الأوروبية في الجمال والإحكام والمنطقية. ومن الكتب التي تلخص تلك التوجهات وتترصد تلك المقولات وتبين مدى إغراقها في العنصرية كتاب "لغات الجنّة" الذي سبقت الإشارة إليه. وفيه عرض لأراء المفكرين الغربيين الذين عرفت عنهم تلك المواقف غير العلمية من أمثال المستشرق الفرنسي رينان وغيره. ويبيّن تاريخ تلك التوجهات في أوروبا منذ القديم حتى بزوغ فجر الدراسات اللسانية العلمية على يدي دي سوسيير. وبذلك انثارت تلك المقولات بحيث لا يعتقد أحد الآن بأفضلية لغة على لغة^(١٢٤). كما عرض إدوارد سعيد لتلك المقولات والقائلين بها مثل رينان وسلفستردي ساسي وغيرهم وبين مدى الشطط الذي ارتكبه هؤلاء^(١٢٥).

ومن الكتب التي صدرت حديثاً وتتصدى للمقولات الأوروبية القديمة عن اللغة العربية كتاب ديفد جستس "دلالات الشكل في اللغة العربية في مرآة اللغات الأوروبية"^(١٢٦). ويقع الكتاب في ٤٣٢ صفحة ويتكون من مقدمة واثني عشر فصلاً في أربعة أبواب ويختتم بقائمة للمراجع وعدد من الفهارس. وفي المقدمة يقول إن اللغة العربية عانت من الوصف بالغرابة والرمي بالصفات الجاهزة بالدرجة التي عانت منها اللغة الصينية وزاد الأمر سوءاً بفعل العوامل السياسية.

(١٢٤) حمزة بن قيلان المزياني "التحيز اللغوي...".

Edward W. Said. Orientalism. (New York: Pantheon Books , 1978). (١٢٥)

David Justice. The Semantics of Form In Arabic. In The Mirror of European Languages (١٢٦) Amsterdam Philadelphia : John Benjamins Publishing CO. 1987.

ومن التوجهات التي تسهم في زيادة الأمر سوءاً ما نقله عن أحد الكتاب في مراجعة لكتاب جوناثان رابان "الجزيرة العربية: رحلة في خلال المنعرجات"، ونشرته جريدة نيويورك تايمز: إن طبيعة لغة الجزيرة العربية، كما يقول المؤلف، منعرجات من الغموض حيث من الصعب أن تجد أي معنى حرفي (لأي كلمة)، وإنما كل ما هناك إشارات رمزية. تلك هي اللغة التي تعبر فيها كلمة واحدة باختلاف ضئيل عن "الجماع" و "الاشتراكية" فهل من الغريب إذن، كما يتساءل المؤلف - أن يكون من الصعب فهم العرب". ويبين أن غرضه من الكتاب هو أن يكون مرآة متعاطفة مع اللغة العربية. فهو سيحاول أن يتحقق من الاستراتيجيات والبني التي تبدو مميزة للعربية وأن يزيل ما علق بها من غموض بتوضيح أن هذه المميزات تشبه ما يوجد في اللغات الأوروبية المعروفة.

وفي الفصل التمهيدي "تعريف اللغة المدرستة"^(١٢٧) يتكلم عن تاريخ اللغة العربية ويشير إلى أنها ليست شيئاً واحداً بل هي مستويات مختلفة تتند من الفصحى القديمة إلى اللهجات المعاصرة. وهي بذلك تشبه اللغات الكبرى.

وفي الفصل الأول "صعوبة العربية"^(١٢٨) يشير إلى وصف اللغة العربية بأنها من أصعب اللغات إذ تقارن بالصينية واليابانية والكوردية وغير ذلك من اللغات. ويقول أنه وجد العربية أصعب عند تعلمه لها من اللغات التي تعلمها من فصيلة اللغات الهندية الأوروبية، لكن هذه الصعوبة لا تعود إلى اللغة العربية بوصفها نظاماً لغوياً. فالعربية - في رأيه - لغة مطردة من جهة البنية وهناك عوامل كثيرة في هذا الاطراد تجعل تعلمها أسهل. ويشير في الوقت نفسه إلى بعض أوجه الصعوبة فيها مثل تعدد أشكال جمع الأسماء، لكنها في ذلك لا تختلف عن الألمانية أو اللاتينية. أما أسباب الصعوبة فهي ليست لغوية بحتة بل هي تاريخية وأسلوبية واجتماعية. ويفصل في الصعوبات التي تثار دائماً ويصف

David Justice. The Semantics of form In Arabic. " Definition of the Language (١٢٧) of Study". PP. 11 - 15.

David Justice. The Semantics of form In Arabic. " The Difficulty of Arabic". (١٢٨)
PP 17 - 31.

بعض الحلول لها.

وفي الفصل الثاني "الخطوط العامة للعربية"^(١٢٩) يعرض إلى بعض العيوب التي تتسق إلى العربية مثل الترافق والمشترك اللغطي واللفاظية والخشونة. ويورد قوله يكثير إيراده وتوصف به العربية فحواه "إن الكلمة في العربية تعني معناها، وضد ذلك المعنى، و شيئاً فاضحاً و شيئاً عن الجمل". وهو لا ينكر وجود الترافق والمشترك اللغطي وغير ذلك لكنه يحصر هذه الصفات في اللغة العربية بصورةها التي توجد في القواميس، أما اللغة كما تستعمل فليس فيها شيء كثيرة من ذلك. ويقارن هذه الخصائص بمثيلاتها في اللغات الأوروبية. ويعرض لغير ذلك من هذه المزاعم التي تؤخذ على العربية مثل: أن المعنى العام للكلمات المشتقة من جذر واحد واحد فكان هذه الكلمات المختلفة تتلخص في الشيء نفسه، والسطحية والعنف والإطباب والازدواجية اللغوية والغموض والتقص الترتكبي واللعب بالكلمات ووصفها بالتأخر واصفاها بالأصوات الحلقية القبيحة. وعندما يناقش هذه الصفات يوضح أن ما يصفه بعض الناس بهذه الصفات هي أمور موجودة في كثير من اللغات ومن بينها اللغات الأوروبية.

وفي الفصل الثالث "الربط بين الشكل والاستعمال"^(١٣٠) يعرض للزعم بأن اللغة العربية مرآة للعقلية العربية. وهذا الفصل من أطرف الفصول وأجملها. ويبين فيه أن ما تعبّر عنه العربية تعبّر عنه اللغات الأخرى بشكل مشابه وبذلك ينتهي الزعم القائل إن شكل الكلمة يحدد معناها أو أن هذه اللغة تصوّر قصور العقلية العربية.

David Justice. The Semantics of form in Arabic. "Thumbnail Sketches of (١٢٩) Arabic", PP. 33 - 52.

David Justice. The Semantics of form in Arabic. "The Form - usc (١٣٠) Connection", PP. 53 - 96.

وفي الفصل الرابع "حو التثنية وثنية النحو"^(١٣١) يعرض ظاهرة التثنية في العربية واتخاذ بعض الناس هذه الظاهرة دلالة على وجود قواعد لا معنى لها. ويشير فيه إلى أن اللغات الأوروبية كانت فيها تاريخاً هذه الظاهرة كما أنها توجد في بعض اللغات الأخرى المعاصرة. ويبين أن العربية قد تستعمل التثنية إما لأغراض عميقة للتحديد أو وسيلة للجمال الأسلوبى أو لبعض الأغراض الأخرى. أما مفهوم التثنية فهو من المفاهيم التي بنيت اللغة عليها في مختلف وجوهها.

وفي الفصل الخامس "اعتباطية الإشارة"^(١٣٢) يدرس عدم الارتباط في العربية بين شكل الكلمة ومعناها وذلك على الرغم من الحدود الصارمة على شكل الكلمات فيها.

وفي الفصل السادس "الترافق"^(١٣٣) يدرس اتصاف اللغة العربية بسعة قاموسها. لكن هذه السعة تعود إلى أن القواميس العربية قد حوت كل الكلمات التي استعملت في خلال تاريخها من غير تمييز للمستعمل منها في فترة معينة من المستعمل في غير تلك الفترة. ويناقش ما يناسب إلى العربية من عدم قدرتها على الرغم من هذه السعة أن تعبر عن بعض الأمور. ويرهون على أن هذه الظاهرة ليست مقصورة على العربية.

وفي الفصل السابع "الأضداد"^(١٣٤) يناقش ما يناسب إلى العربية من كون الكلمة تعنى أحياناً الشيء وضده وذلك مثل "خانق" التي تعنى الفاعل والمفعول، و "باع" بمعنى "باع" و "اشترى" إلى غير ذلك ويبين أن هذه الظاهرة موجودة في

David Justice. The Semantics of form In Arabic. "The Grammar of Duality (١٣١) And the Duality of Grammar". PP 97 - 152.

David Justice. The Semantics of form In Arabic. "L'Arbitraire Du Signe". 153 (١٣٢) - 174.

David Justice. the Semantics of form in Arabic. "Accumulation". PP 175 - 193 (١٣٣)

David Justice. The Semantics of form In Arabic. "Enantiosemantics". PP. 175 (١٣٤)

اللغات الأخرى. ومن ذلك في الإنجليزية *rent* التي تدل على "أجر" و "استأجر". ويعرض لهذه الظاهرة في التركيب أيضاً مثل دلالة "الواو" على العطف وعلى التخيير. وكما يؤكد، فإن مثل هذه الظاهرة موجودة وإن كان ذلك بنسب متفاوتة في اللغات كلها. فيجب ألا تؤخذ دلالة على شيء له علاقة "بعقل" المتكلمين بهذه اللغات. ويجب أن تفسر هذه الظاهرة تفسيراً لغوياً بوصفها نتيجة لتطورات لغوية أو للتوسيع المجازي أو غير ذلك.

وفي الفصل الثامن "أسماء النوع"^(١٣٥) يتحدث عن استعمالات هذا التركيب الاسمي ويبين أسباب وجودها وأنها لا توحى بأي مظاهر من مظاهر النقص بل إن لها أسباباً لغوية مثل: أن إمكان وجود صيغة خاصة مرده لطوعية تركيب الجنور في العربية واتساعها، ولأن العربية لا تستعمل التركيب المجزي أو الإسنادي كثيراً فـإن في هذه الصيغة تعويضاً عن ذلك ولعدم اختلاطها بغيرها.

وفي الفصل التاسع "شكل التركيب"^(١٣٦) يناقش التراكيب النحوية مستعملة استعمالاً طبيعياً. ويبين أن العربية مثلها مثل اللغات الأخرى في استعمال تلك التراكيب.

وفي الفصل العاشر "الإطناب"^(١٣٧) يناقش ما يوصف بأنه إطناب لا حاجة له في العربية مثل "ليل أليل" ويبين أن أكثر هذا الإطناب إنما هو لأغراض أسلوبية كما هو موجود في الأداب الأخرى.

David Justice. The Semantics of form In Arabic, " Nouns of Manner", PP. 217 (١٣٥) - 234.

David Justice. The Semantics of form In Arabic, " The shape of syntax", (١٣٦) PP.235 - 276.

David Justice. The Semantics of form In Arabic, " Pleonasm," PP 277 - 287. (١٣٧)

وفي الفصل الحادي عشر "المخصصات"^(١٣٨) يناقش التوابع الاسمية مثل التمييز والحال ويبين وظيفتها في اللغة العربية وجود ما يشبهها في اللغات الأخرى.

وفي الفصل الثاني عشر "التعدية والوصف"^(١٣٩) يدرس الطريقة التي تعبّر بها العربية عن التعدية وذلك بصيغ خاصة للأفعال ويرى أن اللغات الأخرى تعبّر عن المعنى بأساليب خاصة بها.

ويختتم كل فصل من هذه الفصول بعدد من الهوامش.

إن ما يميز هذا الكتاب هو الأسلوب الذي تغلب عليه السخرية والمفارقة حين يورد مأخذًا على العربية فيكشف بهذا الأسلوب مدى جهل القائلين بهذا المأخذ أو تحاملهم على الرغم من أن ما يأخذونه على اللغة العربية موجود في اللغات التي يعرفون. وبين أن مصدر هذه المأخذ ليس إلا المواقف الجاهزة غير العلمية من اللغات التي لا يعرفها هؤلاء أو النية المبيتة التي مصدرها العداء السياسي أو الحضاري لأهل هذه اللغة.

إن كتاب ديفيد جستس يحتل مكاناً مميزاً بين الكتب التي تدعو إلى الموضوعية والدراسة العلمية للغة. وهو جدير بأن يقرأ المتخصصون من العرب وغيرهم وذلك لعمق المعالجة للمسائل التي تعرض لها وللمقارنة بين اللغات.

وبالإضافة إلى هذا الكتاب كثيراً ما نجد إشارات متعددة في كتابات الدارسين لبعض المواقف السلبية التي كانت سائدة في بعض الدراسات الغربية عن اللغة العربية. إذ يحاول هؤلاء الدارسون دفع التهم التي توجه إلى هذه اللغة.

David Justice. The Semantics of form In Arabic. " Specification". PP. 289 - (١٣٨) 361.

David Justice. The Semantics of form Arabic. " Causatives and Ascriptives". (١٣٩) PP. 363 - 409.

ومن ذلك ما ي قوله مايكل بريم في مقدمة رسالته للدكتوراه: "... إن اللغة التي سأبحث فيها في هذه الرسالة هي لغة حية. فهي اللغة الأدبية التي توحد كل الدول العربية، وهي التي ما تزال مستعملة في المدارس والمحاضرات والإذاعة والصحف والتئتميل والوظائف الرسمية الأخرى. إن الزعم بأن هذا النوع الأدبي للعربية هو نوع مصنوع وسطحي إنما هو قول يدل على جهل قاتل". بل إن الفروق التي تفصل بين اللغة الأدبية العربية من التوقيعات العامية المختلفة إنما هي فروق مبالغ فيها في الدراسات الماضية...." إلى غير ذلك:

لقد ولى الزمن الذي كانت تروج فيه كتابات مثل كتابات شوبى^(١٤٠) ورافائيل بتاي^(١٤١) مما يخرج على مقاييس العلمية لاعتمادها على فرضيات مثل فرضية سابير وورف التي أسيء تفسيرها واستعمالها في كثير من الأحيان وهي فرضية نقضتها البحوث اللاحقة^(١٤٢).

خاتمة

كان القصد من كتابة ما تقدم بيان أن كثيراً من المفاهيم الشائعة في الثقافة العربية المعاصرة عن الدراسة اللسانية المعاصرة المتعلقة باللغة العربية إنما هي نتيجة للجهل بالتقدم الذي يتحقق كل يوم في هذا المجال الحيوي. ولم يكن أهدف إلى كتابة عرض تفصيلي للأعمال المنجزة؛ بل إن ما قصدته هو التدليل بشكل موجز على هذا النشاط العلمي الذي يبدو أن كثيراً من المتخصصين في اللغة العربية في العالم العربي إنما غير واعين به أو لا يقدرون حق قدره.

وإلى جانب شك هؤلاء المتخصصين بما ينجز في الغرب عن اللغة

E. Shouby. "The Influence of the Arabic Language on the Psychology of the Arabs". The Middle East Journal. Vol 5 (1951).

Raphael Patai. The Arab Mind. 2nd Edition (New York: Charles Scribner's Sons. 1976).

انظر خاصة الفصل الذي عنوانه: Under the Spell of Language. " من ص ٤١ - ٧٢ . حمزة قبلان المزياني "التحيز اللغوي.....".

العربية لارتباط هذه الدراسات في الضمير الجمعي العربي بدراسة اللهجات بدلاً من الفصحي، وبالدراسات الاستشرافية التي كانت في بعض الأحيان أداء في يد المستعمر، فإن هناك سبباً آخر جوهرياً هو القول بأن الأجانب لا يمكن أن يفهموا اللغة العربية مثل فهم أبنائها لها. وللرد على هذا القول ينبغي الإشارة إلى أن بعض الباحثين في هذه المجالات هم من العرب. وبالإضافة إلى هذه الحجة فإن القول بأن الأجانب أقل قدرة على فهم اللغة العربية من أبنائها هو قول ينقصه الدليل. أما الحقيقة فهي أن غير العربي يمكن أن يفهم تركيب اللغة العربية فيما يتساوى مع فهم الناطقين بها إذا توافرت له أدوات البحث وكان جاداً. ويمكن أن يدلل على صدق هذه المقوله بأن أبرز علماء اللغة العربية لم يكونوا عرباً، بل لقد اتهم بعضهم بعدم إجاده اللغة العربية، وأول هؤلاء سيبويه^(١٤٣).

وإذا نظرنا في تاريخ اللغات الأخرى فإننا نجد أحياناً أن أوفى كتب التحو لبعض اللغات كتبها علماء لم يكونوا من أهل تلك اللغات. وأظهر مثال على ذلك أوتو جسبرسن الذي كتب عن نحو اللغة الإنجليزية وهو دانماركي الأصل واللغة. وعلى الرغم من ذلك فإن كتاباته عنها ما تزال تتمتع بمكانة عالية في الدراسات الإنجليزية^(١٤٤).

وهناك ملاحظة مهمة جداً هي أن الأجنبي في بعض الأحيان قد يكون أكثر قدرة على الفهم. وقد حدث هذا فعلاً في دراسة بعض المجتمعات. ومن ذلك ما يقوله ديل إيكلمان: " يعد الكتابان اللذان ألفهما باحثان أجنبيان عن المجتمع الأمريكي، في كثير من الجوانب، من أهم وأجود ما كتب في دراسة المجتمع

(١٤٣) أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأنطليسي. طبقات النحوين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية دار المعارف ١٩٨٤ ص ٦٦.

(١٤٤) انظر مثلاً: James D. McCawley, "Review of," Otto Jesperson: Facets of his Life: and Work. Edited by Arne Juul and Hans F. Nielsen. (Amsterdam/ Philadelphia: John Benjamins Publishing Co. 1989) Languag. Vol.67, No.1 (1991) PP. 117-120
وكذلك: Julia S. Faalk, " Otto Jesperson, Leonard Bloomfield, And American Structural Linguistics", Language. Vol. 68, no 3 (1992) PP. 465 - 491.

الأمريكي وتأويل قيمه الأساسية. ونعني بهما كتاب الأستقراطي الفرنسي الكسيس دوتوكفيل "الديمقراطية في أمريكا" الذي صدر في سنة ١٨٣٥ م، وكتاب السويدي المعاصر كونار ميردال "مأزق أمريكا" الذي صدر سنة ١٩٤٤ م. ويمكن للمرء أن يجاج في هذا الباب ويقول بما أن هذين الملاحظين، وإن كانوا أجنبيين عن المجتمع الأمريكي، فإنهما كانا أكثر وعيًا بالجوانب الأساسية والثابتة من الأمريكيين الذين يأخذون تلك الجوانب على أساس أنها بدويات أو يكونون على وعي ضعيف بها" (١٤٥).

وهذا يصح في فهم اللغة أيضًا. فلذلك يجب ألا يستخف بما يكتبه غير العرب عنها. وهذه ليست دعوة لأن يسلم بكل ما يكتبون لكنها دعوة إلى الاطلاع عليه وقراءته قراءة نقدية والاستفادة من الحوار معه.

كما يتبيّن من البحث التي عرض جانب منها أن اللغة العربية لا تزال مجالاً بكرًا للدراسة. فهناك قضايا كثيرة جداً في اللغة العربية الفصحى وفي اللهجات العربية لم تبحث أو لم تتلّ حظاً كافياً من البحث أو أنها في حاجة إلى إعادة التحليل. وهذه المسألة تدعو إلى التفاؤل إذ إن التحقيق من وجود هذه القضايا سيكون دافعاً إلى الانخراط بحماس في البحث اللساني في هذه اللغة. وما له صلة بهذا الموضوع أن المقوله التي تردد عن النحو العربي ومفادها أنه لا يمكن الزيادة فيه على ما كتبه النحويون العرب القدماء ليست دقيقة تماماً. فقد كشفت الأبحاث التي عرضت - على الرغم من تقديرها لاسهامات النحويين القدماء - أن هناك جوانب عديدة ما تزال في حاجة إلى دراسة.

إن أول شروط النهضة باللسانيات في العالم العربي - في ظني - هو أن نفهم حق الفهم النحو العربي بمنظقهاته الفكرية وتقنياته وأطره النظرية ولا نستطيع أن نحقق هذا الفهم إذا اكتفينا بالنظر إليه من داخله فقط. إنني أظن - كما ذكر ذلك بعض الباحثين من أشیر إليهم أعلاه - أن الدراسة اللسانية

(١٤٥) ديل إيكلمان. الإسلام في المغرب. ترجمة محمد أغيف. (الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٨٩ م) ج ١، ص ١١.

الحديثة قادرة على مدننا بالأدوات المنهجية والأطر النظرية التي نستطيع بها فهم النحو العربي فهماً دقيقاً. وتعلق هذه النقطة بما يسمى أحياناً "إحياء التراث". فإن إحياء التراث لا يعني في نظري إلا تفسيره تفسيراً يجعله معاصرأ لنا. وهذا التفسير المعاصر ليس تكلاً إذا ما تعلق الأمر بالنحو العربي - فقد بينَ كثير من الأبحاث التي عرضت أن هناك أرضية مشتركة في المنطلقات والأهداف والتقنيات بين اللسانيات والنحو العربي. ولا يعني هذا أبداً أن نكتفي - كما يفعل بعض الباحثين العرب المعاصرين - بالمقارنات السطحية منطلقي منها إلى الفخر أو إلى تأكيد أسبقية العرب في هذا المجال، بل الهدف هو إقامة الصلة بين منجزات النحو المعاصرة والبناء على ذلك مساهمن في وصف اللغة العربية وصفاً وافياً ومطورين للنظرية اللسانية المعاصرة نفسها.

ويعني هذا أن الفصل الحاد بين النحويين واللسانيين في الثقافة العربية يجب أن يحل محله الاتصال لخير الفريقين. ومن مقتضيات هذه الصلة أن ينخرط دارس اللسانيات المعاصرة في قراءة النحو العربي قراءة قصدها الأول فهم هذا النحو ومن بعد ذلك نقده وتمحیصه. أما النحووي فيجب عليه الاطلاع على منهجيات اللسانيات الحديثة إذ سيكون قادرًا نتيجة لذلك على الإسهام فيها بما يعرفه معرفة حقة من منهجيات النحو.

وهذه الدعوة للاتصال بين الفريقين قصدها إزالة الجفاء بين الفريقين وتوحيد الجهد بقصد تحقيق نهضة لغوية ليست غريبة على الثقافة العربية. وعلى الرغم مما يشاع في الجو الثقافي العام من ضعف الصلة بين النحو واللسانيات إلا أن الواقع يؤكد أن نشاط النحووي ودارس اللسانيات واحد في الأساس. فالنحووي ودارس اللسانيات كلاهما لا بد لهما من جمع المادة اللغوية ولا بد له من وصفها ولا بد له من تفسيرها. وعند هذه النقطة يتوقف دارس اللسانيات ويستمر دارس النحو في جعل القواعد التي توصل إليهـا موضوعاً للتطبيق في تعليمـه الناس اللغة.

وخلاصة القول أن واحداً من معوقات النهضة العلمية اللغوية في الثقافة

العربية المعاصرة هو شيوع بعض المقولات التي لا تستند إلى حقيقة. وذلك مثل أن النظريات اللسانية المعاصرة لا يصلح تطبيقها على اللغة العربية لأن هذه النظريات أقيمت على لغات غريبة. وأن الدراسة في اللسانية المعاصرة قصدها فيما يتعلق باللغة العربية تعريف اللهجات وإحلالها محل اللغة الفصحى، أو أن الدراسة اللسانية المعاصرة ت يريد أن تكون بديلاً للنحو العربي بعد إزاحته من مركز الصدارة في الدراسة العربية. إن شيوع هذه المقولات يمكن أن يوصف بأنه نتيجة لما يسميه شومسكي "مشكلة أورويل" نسبة إلى الروائي الإنجليزي الشهير مؤلف رواية (١٩٨٤). ويعني بذلك أن كثيراً من المقولات في المجالات الاجتماعية والسياسية والفكرية تقوم على أساس يمكن بقليل من البحث التأكيد من عدم صحتها، وعلى الرغم من ذلك تبقى ساندة من غير أي تساؤل^(١٤٦).

ولذلك فإنه لا يسع المتخصص في النحو العربي في هذا العصر أن يتجاهل التقدم الذي ينجز في اللسانيات، كما أنه لا غنى له عن الإطلاع على ما يكتب باللغات الأخرى عن الدراسات العربية. وبدلاً من القطيعة بينه وبين المتخصصين في هذه المجالات فإنه ينبغي عليه أن يسعى إلى الاطلاع على ذلك والاستفادة منه والحوار معه.

Noam Chomsky. *Knowledge of Language: Its Nature, Origin , and use*. (New) (١٤٦)
York: Praeger. 1986) P. xxiii

وتلبيه على هذه المشكلة ببعض الظواهر السياسية في الكتاب نفسه، ص ص ٢٦٧ - ٢٨٧.

الصرف بين سيبويه والفراء

د. حسن حمزة و د. سلام بزي - حمزة

جامعة لومبير / ليون ٢

مركز البحث في المصطلح والترجمة C.R.T.T

أ- وحدة النظرية النحوية العربية

تتميز النظرية النحوية العربية بقدر كبير من الاستقرار منذ الكتاب الأول الذي وصل إلينا، كتاب سيبويه، إلى أيامنا هذه. بيد أن هذه النظرية لم تغل الباب أمام التغيير لتكرر نفسها على الدوام. وسيكون من قصر النظر اعتبار تاريخ الفكر النحوي العربي كله تقليداً واجتراراً مملأ لعمل الأولين، فمواطن التجديد كثيرة في التراث النحوي العربي. غير أن هذا التجديد لم يصل إلى حد القطيعة النظرية مع سيبويه، فلم يقدم نظرية جديدة تختلف عن النظرية التي جاء بها الكتاب، فكانت خلافات النحويين العرب عبر العصور تتواتر في داخل النظرية النحوية لا في خارجها. أما ما سمي بـ "مدارس النحو العربي" في البصرة والköفّة وغيرها من حواضر العالم العربي الإسلامي فلا يجوز أن ينظر إليه على أن كل "مدرسة" فيه شكل خطأ نظرياً بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما هو استعمال لمصطلح المدرسة على سبيل الاتساع. والرجوع إلى النحاة الأوليين الذين يقال عنهم إنهم يشكلون أسس "مدارس البصرة والköفّة" من أمثال سيبويه والفراء يعزز قناعتنا بأن هؤلاء النحاة إنما كانوا يصدرون عن منطلق نظري واحد^(١). بل أن كثيراً من نقاط الخلاف الفرعية التي سجلتها كتب النحو عامة، وكتب الخلاف خاصة، لا تشكل مواضيع خلافية حقيقة بين النحاة

(١) انظر : Hassan HAMZE: Unité et diversité dans la tradition grammaticale arabe.

الأولين^(٢). وستتناول في هذه الدراسة واحدة من المسائل التي اعتبرها الأقدمون، ويعتبرها الدارسون جميعاً في أيامنا مسألة خلافية مسلماً بها، وهي مسألة الصرف.

بــ القول باختلاف البصريين والkovفيين

يخصص ابن الأثباري في كتاب الإنصاف عدداً من الفصول أو المسائل لموضوع النصب، ولا سيما المسألتين الخامسة والسبعين والسادسة والسبعين، وهما تتناولان على التوالي عامل النصب في الفعل المضارع بعد واو المعيبة وعامل النصب في الفعل المضارع بعد فاء السبيبية. وخلاصة قول ابن الأثباري أن البصريين ينصبون الفعل المضارع في هذه الموضع بــ "أن" مقدرة، وأن الكوفيين يختلفون: فمنهم من ينصب الفعل بالحرف نفسه، ومنهم من ينصبه بالصرف. ويقدم النحاة العرب تفصيلات أخرى: فابن جني ينسب القول بالصرف إلى البغداديين (سر صناعة الإعراب، ٢٢٦/١). والسيوطى ينسب القول بالصرف إلى الفراء، ويدرك أن الكسانى وأصحابه يقولون بأن "الواو" هي الناصب لل فعل، لا الخلاف. ويجعل النصب بالخلاف وجهة نظر الفراء وقوم من الكوفيين. (همم الهوامع، ٤/١١٧). والعلانى يقول: "ذهب الكوفيون ومنتبعهم من البغداديين إلى أن النصب في هذه الأماكن بالخلاف ويسمونه الصرف" (الفصول المفيدة في الواو المزيدة، ٢١٨). أما الأستراباذى فيقول: "إن الظاهر من مذهب الفراء أنه جعل الخلاف أمراً معنوياً ناصباً" (شرح الكافية ٢٤١/٢).

هذه خلاصة آراء القوم في الصرف. ولم نجد أحداً تصدى لمعارضة هذه الآراء، فلا يقدم الدارسون المعاصرون، فيما نعلم، جديداً في الموضوع لأنهم يتبعون الأقدمين في ما ذكروه^(٣). أما ما كتبه ميخائيل كارتير عن الصرف

(٢) انظر محمد خير الحلواني: *الخلاف النحوى*. وانظر: Hassani HAMZE: La coordination à un pronom "conjoint"

(٣) انظر على سبيل المثال مهدى مخزومى: مدرسة الكوفة، ص ٢٩٢ وما بعدها؛ شوقى ضيف: المدارس النحوية، ص ١٦٤ وما بعدها؛ عبدالرحمن السيد: مدرسة البصرة، ص ١١٥..... الخ.

والخلاف فإنه لا يمس جوهر الخلاف في المسألة التي تعنينا رغم حديثه عن الشبه بين تحليلي سيبويه والفراء، فهو كما يقول، يأخذ النتائج التي توصل إليها مهدي مخزومي ويتطورها ويعدها^(٤)، غير أنه عن ب جانب، وأهمل جانباً آخر هو بيت القصيد في الخلاف النحوي. فقد أصاب في تأكيده أن "الخلاف" أو "الصرف" أمر مشترك بين البصريين والковيين. غير أنه اعتبر اشتراهم في هذه المسألة خاتمة المطاف، فكانه جعل اتفاق الفريقين على القول بـ "الخلاف" و "الصرف" ردأ على من زعم اختلافهم، فأهمل بحث العامل عند الفراء وما يناسب إليه من القول بأن الصرف عامل معنوي ناصب بنفسه. وإنما يقع الخلاف في عامل النصب في الفعل المضارع لا في العمليات الذهنية المؤدية إليه.

ج- العطف والصرف

الواو والفاء وأو من حروف العطف. وحرروف العطف تجمع بين المتعاطفين في حركة الإعراب وفي المعنى. يقول سيبويه: "فإن قلت: مررت برجل وامرأة" فقد أشركت الواو بينهما في الباء فجريا عليه "وكذلك إن قلت: "مررت برجل فامرأة" أو "مررت برجل أو امرأة" فاو أشركت بينهما في الجر، وأنثت المروء لأحدهما دون الآخر، وسوت بينهما في الدعوى" (الكتاب، ٤٣٧-٤٣٨).

أما في الفعل المضارع المنصوب بعد ما يعرف بـ "او المعية" فلا يشير سيبويه إلى الجمع بين الفعلين، بل إلى اختلافهما في حركة الآخر وفي المعنى. يقول في الجملة المشهورة التي تداولتها كتب النحو:

لا تأكل السمك وتشرب اللبن

"ومنك أن ينجزم في الأول لأنك إنما أراد أن يقول له: لا تجمع بين اللبن والسمك، ولا ينهاه أن يأكل السمك على حدة ويشرب اللبن على حدة، فإذا جزم فكانه نهاية أن يأكل السمك على كل حال أو يشرب اللبن على كل حال" (الكتاب،

(٤) انظر: Sarf et kilâf. P.294

ويقول في تفسير انتصاب الفعل المضارع في مثل: "لا تأثيني فتحدثي":

لم ترد أن تدخل الآخر فيما دخل فيه الأول، فتقول: لا تأثيني ولا تحذثني، ولكنك لما حولت المعنى عن ذلك تحول إلى الاسم،^(٥) (الكتاب، ٢٨/٣).

فسيبويه يفسر للنصب في هذه المواقف برغبة المتكلم في ألا يشرك بين الأول والآخر، فهو يحول معنى الآخر فيخرجه من معنى الأول.^(٦)

إن تعليل سيبويه للنصب في هذه الأفعال المضارعة يقوم على التمييز بين العطف الذي يشرك الآخر فيما دخل فيه الأول، والتحويل الذي يخرج الآخر مما دخل فيه الأول، فيحول المعنى بتحويل حركة الفعل المضارع من الرفع أو الجزم إلى النصب.

إن هذا التعليل نفسه هو تعليل الفراء للصرف. فقد حده حين ذكره لأول مرة في كتابه، فقال:

Salam HAMZE: *Les unités amorphes libres dans le Kitâb de Sibawayhi*, (٥) انظر : PP. 196-201

(٦) يقول عبدالقاهر الجرجاني عن الواو في مثل:

أحبُ إلَيْيِّ من لَبِسِ الشَّفُوفِ
للبس عباءة وتقرب عيني

إن الغرض منها أن يجمع بين لبس العباءة وقرة العين، فيقال: إنها جميأً أحب من لبس الشفوف. وليس المقصود أن لبس العباءة أحب من لبس الشفوف [...] فلو رفعت لكان التقدير: للبس عباءة أحب إلى من لبس الشفوف. ثم تقول: وتقرب عيني. وليس هذا دليلاً [كذا] على أن المحبة تحصل من لبس العباءة مقتناً بقرة العين.

وبينبني أن يعلم أن الواو هنا ليس للعطف فقط كقولك: زيد وعمرو خير من بكر، تزيد أن كل واحد منها خيراً من بكر، وإنما الواو متضمن لمعنى: مع؛ فكانه قال: للبس عباءة مع قرة العين أحب إلى، كما تقول: الشرح والمشروح خير من المشروح، تزيد أنها جميأً خيراً من هذا الواحد، ولا تزيد أن كل واحد من الشرح والمشروح خيراً. كيف وفي ذلك استحالة؛ لأنها بمنزلة أن تقول: كل واحد من زيد وعمرو خير من زيد، وهو كقولك: زيد خيراً من زيد، وهذا محل (شرح المقتصد، ١٠٥٩/٢).^(٧)

"فَإِنْ قُلْتَ: 'وَمَا الصَّرْفُ؟' قُلْتَ: أَنْ تَأْتِي بِالْوَوْا مَعْطُوفَةً عَلَى كَلَامٍ فِي أُولَئِكَ حَادِثَةٍ لَا تَسْتَقِيمُ إِبْعَانَتِهَا عَلَى مَا عَطَفَ عَلَيْهَا، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَهُوَ الصَّرْفُ، كَفُولُ الشَّاعِرِ:

لَا تَهُ عنْ خَلْقِ وَتَأْتِي مِثْلَه
عَارٌ عَلَيْكِ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيم

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِبْعادَةً "لَا" فِي "تَأْتِي مِثْلَه" فَذَلِكَ سَمِيٌّ صَرْفًا، إِذَا كَانَ مَعْطُوفًا وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَنْ يَعُادُ فِيهِ الْحَادِثُ الَّذِي قَبْلَهُ" (معاني القرآن، ٣٣-٣٤/١) ^(٧).

وقال في موضع آخر:

"وَالصَّرْفُ أَنْ يَجْتَمِعَ الْفَعْلَانُ بِالْوَوْا أَوْ ثُمَّ أَوْ الْفَاءُ أَوْ "أَوْ"، وَفِي أُولَئِكَ حَدَّ أَوْ اسْتِفَاهَامٍ، ثُمَّ تَرَى ذَلِكَ الْجَدُّ أَوْ الْاسْتِفَاهَامُ مُمْتَنِعًا أَنْ يَكُونَ فِي الْعَطْفِ، فَذَلِكَ الصَّرْفُ (...) يَقُولُونَ: لَا يَسْعَنِي شَيْءٌ وَيُضَيقُ عَنِّي، وَلَا تَكُرْ "لَا" فِي "يُضَيقُ". فَهَذَا تَفْسِيرُ الصَّرْفِ" (معاني القرآن، ٢٣٦/١).

والصرف بهذا المعنى مصطلح ورد أول ما ورد في معاني القرآن للفراء. وربما يكون الفراء واضع هذا المصطلح، وإن أشار إلى استعمال التحوين له ^(٨).

د- تقدير المعنى

واضح مما ذكرنا أن التحويل عند سيبويه هو الصرف عند الفراء. وواضح أنهما يلجان في تعليلهما نصب المضارع في الأمثلة السابقة إلى العمليات

(٧) في الكتاب، ٣/٤٢: "وَإِنَّمَا أَرَادَ لَا يَجْتَمِعَ النَّهْيُ وَالْإِتِّيَانُ" فصار "تَأْتِي" على إضمار "أَنْ":

(٨) لم يرد مصطلح الصرف بهذا المعنى الخاص في كتاب سيبويه. إلا أنه ورد في موضوع واحد (الكتاب ٣١/٣) في سياق قريب من السياق الذي يستعمله فيه الفراء، وذلك في تعليله لنصب الفعل المضارع في مثل: "مَا أَتَيْتَنَا فَحَدَّثَنَا؛ لَأَنْ حِدَّ الْكَلَامِ أَنْ يَقُولَ: مَا أَتَيْتَنَا فَحَدَّثَنَا" باستخدام الفعل الماضي. فلما صرف إلى المضارع نصب، لأنَّه ضعيف أنْ يعطِي المضارع على الماضي.

الذهبية التي تبني المعنى، أي إلى قصد المتكلم الجمع والاشراك بين الحكمين، أو قصده صرف الحكم الثاني عن الأول^(٩)، كما يرجعان إلى هذه العمليات الذهبية لتعليل نصب المستثنى بعد "إلا"، وهي عمليات يريد بها المتكلم إخراج الآخر مما دخل فيه الأول كما يقول سيبويه، أو مخالفة الثاني للأول كما يقول الفراء^(١٠)، في تفسيره للآية ١٥٠ من سورة البقرة:

(وقوله: "نلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم".

يقول الفائق: "يكون كيف استثنى الذين ظلموا في هذا الموضوع؟ ولعلهم توهموا أن ما بعد إلا يخالف ما قبلها، فإن كان ما قبل إلا فاعلاً كان الذي بعدها خارجاً من الفعل الذي ذكر، وإن كان قد نفى قبلها الفعل ثبت لما بعد إلا". كما تقول: "ذهب الناس إلا زيداً" فـ "زيد" خارج من الذهاب، و "لم يذهب الناس إلا زيد" فـ "زيد" ذاهب والذهب مثبت لـ "زيد" (معاني القرآن، ٨٩/١).

كما أنه يعلل نصب المستثنى بالانقطاع في الآية التالية:

"فلو لا كانت قرية أمنت فتفعلها إيمانها إلا قوم يونس" (يونس/٩٨) فيقول: "وهي في قراءة أبي: (فهلأ) ومعناهما أنهم لم يؤمنوا، ثم استثنى قوم يونس بالنصب على الانقطاع مما قبله" (معاني القرآن، ٤٧٩/١).

(٩) انظر ما يجوز فيه العطف والصرف تبعاً لقصد المتكلم. (الكتاب، ٤/٣) و (معاني القرآن، ١١٥/١، ٢٢١، ٢٣٥، إلخ).

(١٠) يبدو أن مهدي مخزومي لا يهتم كثيراً بالعمليات الذهبية التي يعلل الكوفيون بها الاستثناء، بل يصرّف هذه إلى العامل فيه. فهو يقول:

(مقالة الخليل في نصب المستثنى بـ "إلا" هي سميث القول بالخلاف عند الكوفيين. ولكنهم رسموا له حدوداً وطبقوه في موضوعات أخرى. فقالوا بالخلاف في أربعة مواضع لم يكن المستثنى بـ "إلا" واحداً منها). ثم يضيف معلقاً: (ومن الغريب أن يقول الكوفيون بالنصب على الخلاف في هذه المواضع) ولا يقولوا به في نصب المستثنى بـ "إلا" مع أن المخالفة بين المستثنى وما قبله أبين منها في هذه الموضع). (مدرسة الكوفة، ٢٩٢).

والانقطاع مصطلح قد يستخدمه الفراء في مكان مصطلح الصرف، كما فعل في المثل التالي: "لست لأبي إن لم أقتلك أو تسبقني في الأرض؟؛ فقد جعل الفعل "تسبق" منصوباً على أن آخره منقطع من أوله (معاني القرآن، ٧١/٢). غير أنه يفضل استعمال مصطلح الصرف في الأفعال المنصوبة بعد حروف النسق لأن المنصوب فيها مختلف عن المنصوب بعد الاستثناء. ووجه الاختلاف بينهما أنك إن لم تصرف عطفت فأعادت أمام الثاني النفي أو الاستفهام الذي يسبق الأول، وليس ذلك في الاستثناء. ويبدو أن مصطلح القطع أوسع مجالاً من مصطلح الصرف؛ فالفراء يسبقه في الصرف (معاني القرآن، ٧١/٢)، وفي الاستثناء (٤٧٩/١)، قبل الاستئناف (٢٢٤، ١)، وفي الحال (٣٤٨/١) وفي التمييز (٦/٢). فكل صرف انقطاع، وليس كل انقطاع صرفاً. إنما الصرف الانقطاع بعد الواو والفاء و ثم و أو.

هـ- بين تقدير الإعراب وتقدير المعنى

حين يعلل سيبويه النصب في الفعل المضارع بعد الواو المعية أو بعد فاء السibilية بالتحول، أو بخروج الآخر مما دخل فيه الأول، فإنما يقدم المعنى الذي قام في الذهن وأدى إلى تغيير الإعراب. غير أنه لا يكتفي بذلك، فلا يعتبر هذا المعنى عاملاً. وإنما يبحث عن عامل لفظي ناصب للفعل؛ ذلك أن تغير المعنى لا ينصب بنفسه، بل بعامل لفظي يقتضيه. يقول سيبويه في نصب الفعل المضارع في مثل "لأز منك أو تقضيني":

"اعلم أن ما انتصب بعد "أو" فإنه ينتصب على إضمار "أن"، كما انتصب في الفاء والواو على إضمارها" (الكتاب، ٤٦/٣).

ويقول المبرد في مثل ذلك:

"اعلم أن الفاء عاطفة في الفعل كما تعطف في الأسماء (...) فإن خالف الأول الثاني لم يجز أن يحمل عليه، فحمل الأول على معناه، فانتصب الثاني بإضمار "أن" (المقتضب، ١٣/٢).

أما الفراء فيقول بالنصب على الصرف في مواضع كثيرة من كتابه. وقد أحسن الأسترابادي صنعاً حين قال ابن ظاهر كلام الفراء يدل على أنه يجعل الصرف عاملاً ناصباً. فالقول ما قال. غير أنه يحسن لا يحمل كلام الفراء على ظاهره "فأكثرون ما ترى من هذه الآراء المختلفة والأقوال المستشنعة - كما يقول ابن جنى - إنما دعا إليها القائلين بها تعليتهم بظواهر هذه الأماكن". ويعطي ابن جنى مثلاً لذلك ظاهر كلام سيبويه الذي يقول "في بعض لفاظه: حتى الناصبة للفعل يعني في نحو قولنا: اتق الله حتى يدخلك الجنة". فإذا سمع هذا من يضعف نظره اعتماداً في جملة الحروف الناصبة للفعل، وإنما النصب بعدها بـ "أن" مضمراً) (الخصائص، ٢/٢٦٠-٢٦١).^(١١)

و- الصرف ليس عاملًا عند الفراء

يبدو مما ذكره ابن جنى وعبد القاهر الجرجاني أن البغداديين الذين ينسب إليهم القول والصرف، وهم كوفيون ببغداد^(١٢)، لم يميزوا مستويين مختلفين من مستويات التحليل اللغوي: العمليات الذهنية في الفعل المضارع المنصوب بعد وأو المعية وفاء السبيبة، وعامل النصب فيه، فسموا هذه العمليات الذهنية عاملًا. يقول ابن جنى:

"وقول البغداديين: إننا ننصب الجواب على الصرف" كلام فيه إجمال، بعضه فاسد وبعضه صحيح. أما الصحيح فقولهم: الصرف، أي ينصرف بالفعل الثاني عن معنى الأول، وهذا هو معنى قولنا: "إن الثاني يخالف الأول". فاما انتصابه بالصرف خطأ، ولا بد له من ناصب مقتض له؛ لأن المعاني لا تنصب

(١١) ومن مثل ذلك قول النحويين في مثل "الحمد لله" إن "لله" خبر المبتدأ، وإنما حرف الخفض وما يتبعه من صلة فعل أو معناه (انظر الزجاجي: اللامات، ٥٢-٥١). ومن ذلك قول الميوطي إن الزجاجي قد ذهب إلى أن "كان وأخواتها" حروف (همي الهوامش، ٢٨) ربما لأن ذلك قد ورد في أحد عناوين كتاب الجمل الذي يقول: باب الحروف التي ترتفع الأسماء وتتصب الأخبار (الجمل، ٤)، وإنما كان وأخواتها عند الزجاجي أفعال لا حروف. انظر الجمل، ١٠٣.

الأفعال، وإنما ترفعها المعنى. والمعنى الذي يرفع الفعل هو وقوع الفعل موقعه الاسم [...] وكما أن الأسماء لا تتناسب إلا بناصبه لفظي، فكذلك الأفعال لا تتناسب إلا بناصبه لفظي" (سر صناعة الإعراب، ٢٧٦/١-٢٧٧).

ويقول عبد القاهر الجرجاني:

"وأما قول البغداديين ابنه منصوب على الصرف، فالذى يصح منه أن يراد صرف الثاني عن إعراب الأول، فكأنهم لما قصدوا أن يكون الثاني غير داخل فى حكم الأول فنصبواه صار العدول به عن معنى الأول كأنه نصبه إذا كان سينا لإضمار "أن". فاما أن يراد أن النصب بنفس مخالفته للأول حتى كان عامله ذلك المعنى فلا. ولو جاز ذلك جاز أن تقول ابن "زيداً" في قوله "ضررت زيداً" ، لم يتناسب بالفعل وإنما عمل النصب فيه كونه مفعولاً؛ وذلك غير سديد" (المقتضى، ١٠٧٤-١٠٧٥).

في تقديرنا أن الصرف عند الفراء ليس عاملاً ناصباً، بل مثله كمثل التحويل، أو كمثل خروج الآخر مما دخل فيه الأول عند سيبويه، يشرح العمليات الذهنية عند المتكلم، ويربط تغير اللفظ بتغير المعنى، فيبرر تغير الإعراب برغبة المتكلم في ألا يدخل الآخر فيما دخل فيه الأول^(١٢) دون أن يعني ذلك أن الصرف نفسه هو العامل الذي يحدث النصب في الفعل المضارع. فالفراء يستعمل مصطلحات كثيرة يفسر بها تغير حركة الإعراب كالصرف، والخلاف، والعدل، والانقطاع مما قبله، والخروج مما قبله، إلخ. وقد يعطي المثال الواحد فيجعله منصوباً على الصرف مرة، وعلى أن آخره منقطع من أوله مرة أخرى، كما في المثال التالي: لا يسعني شيء ويسيق عنك (معانى القرآن، ٢١، ٢)؛

(١٢) يقول عبد القاهر الجرجاني في هذا المعنى:

"وإذا قلت: لا تأتينا فنعطيك، فعلت بالفعل الواقع بعد الفاء عن إعراب ما قبله، فنصبته وما قبله مرفوع في قوله: ما تأتينا فنعطيك، ومحزوم في نحو قوله تعالى: ولا تطغوا فيه بيفعل عليكم غضبي اطهه/١١ علم ضرورة أنه غير داخل فيما قبله؛ إذ لو شاركه لما عدل به عن إعرابه" (المقتضى، ٢/٦٣-١٠٦٣).

٢٣٦/١). ولا يعني الانقطاع ولا الصرف ولا المصطلحات الأخرى، ضرورة عوامل معنوية تغنى عن العامل اللغطي.

إننا نعتقد أن الفراء حين يتحدث عن الصرف، أو حين يقول بالنصب على الصرف فإنما يسعى، مثله مثل سيبويه في التحويل وفي خروج الآخر مما دخل فيه الأول، إلى تقدير المعنى لا إلى تقدير الإعراب^(١٤). وفي معانٍ القرآن ما يكاد يكون تصريحاً بذلك. وسوف نقدم عدداً من الأدلة على ما نقول:

- يستعمل الفراء مصطلح الصرف في مواطن غير التي ذكرناها من نصب الفعل المضارع لا يمكن أن يكون فيها ناصباً؛ فهو يستعمله في الأعداد المركبة المبنية على فتح الجزأين، من أحد عشر إلى تسعه عشر. ومعلوم أن هذه الأعداد لا تحتاج إلى عامل لتقدير الفتح فيها. يقول الفراء:

”ونـلـك أـنـهـم جـلـعـوا اـسـمـيـن مـعـرـوـفـيـن وـاحـدـاً، فـلـم يـضـيفـوا الـأـوـل إـلـى الثـانـي فـيـخـرـجـ منـعـنـيـالـعـدـدـ. وـلـم يـرـفـعـوا آخـرـهـ فـيـكـوـنـ بـمـنـزـلـةـ ”بـعـلـبـكـ“ إـذـ رـفـعـوا آخـرـهـاـ. وـاسـتـجـازـواـ أـنـ يـضـيفـواـ ”بـعـلـ“ إـلـىـ ”بـكـ“ لـأـنـ هـذـاـ لـأـيـرـفـ فـيـهـ الـانـفـصـالـ مـنـ ذـاـ، وـالـخـمـسـةـ تـنـفـرـ مـنـ الـعـشـرـةـ وـالـعـشـرـةـ مـنـ الـخـمـسـةـ، فـجـلـعـوـهـمـاـ بـإـعـرـابـ وـاحـدـ؛ لـأـنـ مـعـنـاهـمـاـ فـيـ الـأـصـلـ: هـذـهـ عـشـرـةـ وـخـمـسـةـ. فـلـمـاـ عـدـلـاـ عـنـ جـهـتـهـمـاـ أـعـطـيـاـ إـعـرـابـاـ وـاحـدـاـ فـيـ الـصـرـفـ^(١٥) كـمـاـ كـانـ إـعـرـابـهـمـاـ وـاحـدـاـ قـبـلـ أـنـ يـصـرـفـاـ)ـ (معـانـيـ الـقـرـآنـ ٣٢/٢ـ).

(١٤) انظر سيبويه في باب استعمال الفعل في النّفظ لا في المعنى (الكتاب، ٢١١/١) وانظر الأبواب الثلاثة التالية في الخصائص لابن جنّي: باب في الفرق بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى (٢٨٤-٢٧٩/١)، باب في تجانب المعاني والإعراب (٢٦٠-٢٥٥/٣)، باب في التفسير على المعنى دون النّفظ (٢٦٠/٣-٢٦٤).

(١٥) يقول محقق الكتاب في الحاشية: يُريد صرفهما عن حالة الإفراد إلى التركيب.

-٢ لا يستعمل الفراء مصطلح النصب بالصرف في معاني القرآن^(١٦)، بل مصطلح النصب على الصرف. وهذا لا يسمح بالقول إن الفراء يجعل الصرف ناصبياً. كما أن البابين اللذين عقدهما سيبويه لـ "ما ينتصب على التعظيم والمدح" (الكتاب، ٦٢/٢؛ ١٩٤/٢) لا يسمحان بالقول إن سيبويه يجعل التعظيم أو المدح عاماً ناصبياً^(١٧). وقد يستعمل الفراء مصطلحات أخرى في المنصوب على الصرف، كالنصب على الجواب (معاني القرآن، ٢٧٦/١)، والنصب على الانقطاع (معاني القرآن، ٢١/٢)، وليس الجواب والانقطاع ناصبيين. ويبعدو من الأمثلة التي أعطاها حين حدّ هذا المصطلح^(١٨) أنه يصرف همه إلى معناه لا إلى عمله، وأن الصرف يقوم على ألا تكرّ أمام الفعل الثاني أداة النفي الواردة أمام الفعل الأول، لا على نصب الفعل الثاني.

-٣ الصرف لا يعمل النصب؛ فالفعل قد يكون منصوباً وهو مصروف، ومرفوعاً وهو مصروف، وجزوماً وهو مصروف. واعتبار الصرف عاماً معنوياً ناصبياً في الفعل المنصوب يقتضي اعتباره رافعاً في المرفوع وجازماً في المجزوم ولم يقل بذلك أحد، بل يشير ما في معاني القرآن للفراء إلى خلاف ذلك.

(١٦) معاني القرآن، ١/٣٢، ٣٤، ٣٥، ٢٢١، ١١٥، ٢٩٢، ٢٧٦، ٢٣٦، ٢٣٥، ٢٢١، ١١٥، ٣٢/٢؛ ٤٠٨، ٣٩١، ٢٩٢، ٢٧٦، ٢٣٦، ٢٣٥، ٢٢١، ١١٥، ٣٤، ٣٢/٢، ٦٤، ٢٤/٢.

(١٧) والأمر كذلك عند الأسترابادي الذي يستعمل مصطلح "واو الصرف" التي نصبوها الفعل المضارع بعدها ليكون الصرف عن سفن الكلام المتقدم مرشدًا من أول الأمر أنها ليست للعطف" (شرح الكافية، ٢٤٦/٢)، ومصطلح "النصب على الصرف" (شرح الكافية، ٢٤٩/٢) في قول الشاعر:

وما أنا للشيء الذي ليس نافعي ويفضب منه صاحبي بقزول

والصرف عنده ليس ناصبياً بنفسه، لأنه بعد أن ذكر أن الظاهر من مذهب الفراء أنه يجعل الخلاف أمراً معنوياً ناصبياً يقول: "ولو أوجب الخلاف الانتصاب لم يجز العطف في النحو: ما مررت بزيد لكن عمرو، وجاءني زيد لا عمرو" (شرح الكافية، ٢٤١/٢).

(١٨) معاني القرآن، ١/٣٢، ٣٤، ٣٥.

- قد يكون الفعل الثاني مرفوعاً وهو مصروف إذا كان الفعل الأول منصوباً، كما في البيت التالي:

على الحكم المأتى يوماً إذا قضى قضيته أن لا يجوز ويقصد^(١٩)

ينقل السيوطي رأي الفراء في رفع الفعل الثاني "يقصد" فيقول:

"قال الفراء: "هو مرفوع على المخالفة" (الأشباه والنظائر، ٢٤٢، ٢)^(٢٠).

ووجه المخالفة فيه أن يخالف الفعل الثاني الأول فلا ينصب مثله لأن نصبه يقتضي تكرار "الا" الواردة أمام الفعل الأول، فيصبح المعنى: على الحكم ألا يجوز وألا يقصد، وهو خلاف المقصود. وأما سيبويه فيعمل رفع الفعل (يقصد) في البيت المذكور أعلاه بالانقطاع فيقول:

وما جاء منقطعاً قول الشاعر، وهو عبد الرحمن بن الحكم:

على الحكم المأتى يوماً إذا قضى قضيته أن لا يجوز ويقصد

كانه قال: عليه غير الجور، ولكنه يقصد، أو هو قاصد فابتدا، ولم يحمل الكلام على "أن") (الكتاب ٥٦/٣^(٢١)).

قد يأتي الفعل الثاني مصروفاً وحركة إعرابه هي حركة إعراب الفعل الأول. ووجه صرفه ألا يكرر فيه النفي الذي في الفعل الأول أو اليمين الذي في الفعل الأول. فلو كان الصرف ناصباً لوجب أن يكون الفعل المصروف منصوباً على أي حال لوجود ناصبته. يقول قائل للفراء:

(١٩) لم نجد هذا البيت في معاني القرآن للفراء.

(٢٠) يقول الاسترابادي: "وقولهم في نحو: لا تأكل السمك وشرب اللبن إنّه نصب على الصرف بمعنى قولهم: نصب على الخلاف سواء" (شرح الكافية، ٢٤١/٢).

(٢١) وبمثل هذا المصطح: الانقطاع من النسق والاستئناف، يعلل الفراء قراءة من قرأ: ولا يأمركم بالرفع في الآيتين: ما كان ليبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس ١٠٠ ولا يأمركم إال عمران، ٧٩-٨٠.

"هل يجوز في الأفاسيل التي نصبت بالواو على الصرف أن تكون مربوطة على ما قبلها وفيها معنى الصرف؟" ويجيب الفراء: "قلت: نعم. العرب تقول: "لست لأبي إن لم أقتلك أو تذهب نفسى"، ويقولون: "والله لأضربك أو تسقنى في الأرض". فهذا مربود على أول الكلام ومعناه الصرف؛ لأنّه لا يجوز على الثاني إعادة الجزم بـ "لم" ، ولا إعادة اليمين على "والله لتسقنى" (معاني القرآن، ٣٤/١).

إن ملاحظة أمثلة الصرف التي يقدمها الفراء تظهر أن الفعل المصنوف قد يكون منصوباً أو مرفوعاً أو مجزوماً، وإن كان النصب أغلب وأكثر، وأن حركته قد تماثل حركة الفعل الأول، وإن كانت المفایرية أغلب وأكثر. ولو كان الصرف عاملًا معنويًا ناصباً لما جاز أن يكون الفعل الثاني مجزوماً أو مرفوعاً وفيه معنى الصرف. ومع جواز جزم الفعلين في المثال الأول^(٢٢) فإن حد الكلام أن يقال: "لست لأبي إن لم أقتلك أو تذهب نفسى" لتبنيه السامع إلى أن إعادة "إن لم" أمام الفعل الثاني ليست مقصودة. كما أن حد الكلام في المثال الثاني أن يقال: "والله لأضربك أو تسقنى في الأرض لتبنيه السامع بتغيير حركة آخر الفعل الثاني إلى أن تكرار اليمين ليس مقصوداً فيه. غير أن ما يعني هنا هو أن الفراء يعتبر الفعل الثاني مصروفًا وهو مجزوم مربود على الفعل الأول تابع له في حركة آخره مما يعني أن الصرف ليس عاملًا ناصباً عنده.

إن مثل الصرف عند الفراء كمثل الخلاف والانقطاع والعدل يشرح العمليات الذهنية للمتكلم ويبذر تغيير حركة الآخر دون أن يكون عاملًا. فعندما ينصب المتكلم الفعل المضارع بعد "أو" فإنما ينصبه "ليؤذن نصبه بالانقطاع بما قبله" كما يقول الفراء (معاني القرآن، ٢/٧٠). فالتغيير يحدثه العامل ليؤذن بالصرف أو العدل أو القطع أو الخلاف الذي ينويه المتكلم، لا أن العامل هو الصرف نفسه أو العدل أو القطع أو الخلاف، وهذه معانٍ تهيئ للعوامل أن تعمل،

(٢٢) معاني القرآن، ٢/٧٢.

لأنها عوامل في أنفسها كما يقول الجرجاني^(٢٣)

وليس الفراء، فيما يبدو لنا، بعيداً عن هذا التصوير، فهو في الآية ٧٢ من سورة التوبه/براءة:

"وعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمَنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنَ وَرَضْوَانَ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرَ" يجعل العدل سبباً لرفع "رضوان"؛ لأنَّه عدل به عن أن ينسق على ما قبله فينصب. وليس العدل رافعاً لـ "رضوان" في نظر الفراء. إنما الرافع عنده هو الخبر "أكبر" عملاً بقول الكوفيين أن المبدأ والخبر يترافعان. يقول الفراء:

(وقوله: "ورَضْوَانَ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرَ" رفع بـ "الأَكْبَرَ"، وعدل عن أن ينسق على ما قبله وهو مما قد وعدهم الله تبارك وتعالي، ولكنه أوثر بالرفع لتفضيله) (معاني القرآن، ٤٦/١). فالرفع إذان بعدل الاسم المرفوع عمما قبله، لا أن العدل عامل رافع بنفسه.

ز - العامل في المنصوب على الصرف

ورد في معاني القرآن مرة واحدة مصطلح النصب بالواو على الصرف، على لسان سائل في ما يبدو^(٤٢)، ردأ على قول الفراء إن العرب تنصب الأسماء المعطوفة على المرفوع في مثل قولهم: لو تركت والأسد لأكلك، ولو خللت ورأيك لضللت: "لما لم يحسن في الثاني أن تقول: لو تركت وترك رأيك لضلال

(٢٢) فـ "زيداً" في "ضربت زيداً" منصوب بالفعل "ضرب" لا يكونه مفعولاً لأنَّه لو كان ذلك صحيحاً لما جاز أن يقال: "زيد مضروب" برفع زيد لأنَّه مفعول، ولقليل زيداً مضروب. فكون زيد مفعولاً في "ضربت زيداً" ليس بناصباً له، وإنما الصحيح أن يقال إن كونه مفعولاً هو الذي "أوجب أن يكون ضربت" عاملًا فيه النصب، فالذي يجوز نصبه بالفعل هو وقوع الفعل في المعنى عليه. (المقتضى، ١٠٧٥/٢).

(٤٤) في النص بعض الاضطراب، فقد جاء فيه: (قال فهل يجوز /...؟/ قلت: نعم /.../) دون ذكر القائل. يقول محقق الكتاب: "كان الأصل: قال قائل: وعلى هذا الافتراض يعود قال إلى سائل، و قلت إلى الفراء. (معاني القرآن، ٣٤/١).

تهبوا أن يعطفوا حرقاً لا يستقيم فيه ما حدث في الذي قبله. قال: فإن العرب تحبز الرفع، لو ترك عبدالله والأسد^(١) لأكله، فهل يجوز في الأفعال التي نصبت بالواو على الصرف أن تكون مردودة على ما قبلها وفيها معنى الصرف؟ قلت: نعم. العرب يقولون (..) (معاني القرآن، ٣٤/١).

وفي السؤال إشارة واضحة إلى أن الصرف ليس عاملًا ناصيًّا. وظاهر كلام السائل الذي لا يعارضه الفراء، أو السائل الذي يفترض الفراء وجوده، يشير إلى أنه يجعل الفعل منصوباً بالواو على الصرف لا بالصرف نفسه. فإن أخذنا بهذا القول على أنه قول الفراء فإنه يعني أن الواو عنده، لا الصرف، هي عامل النصب في الفعل المضارع إلا إن كان ذلك قد قيل على سبيل الاتساع.

على أن في معاني القرآن للفراء، وهو ليس كتاباً في النحو، موضعين على الأقل، يشير فيهما الفراء تلميحاً يقرب من التصريح، إلى أن النصب في الفعل المضارع المنصوب على الصرف إنما يكون بعامل لفظي هو "أن" المضمرة، لا بالواو ولا بالصرف نفسه:

١- يقول في الآية ٧٣ من سورة النساء: "يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً":

"العرب تتصلب ما أجبت بالفاء في "لَيْتَ"؛ لأنها تمنٌ، وفي التمني معنى: "يسريني أن تفعل فأفعل" فهذا نصب كأنه منسوب لقولك في الكلام: وبدت أن أقوم فيتبعني الناس" (معاني القرآن، ٢٧٦/١).

والنسق يقتضي التكرير. يقول الفراء في الآيتين:

(٢٥) يقول الفراء في تجويز الوجهين: "ما جاءت الواو ترد اسمًا على اسم قبله، وصبح أن ترد الفعل الذي رفع الأول على الثاني نصب؛ ألا ترى أنك لا تقول: لو تركت وترك الأسد لا يأكلك. فمن هنا أنما النصب. وجاز الرفع لأن الواو حرف نسق معروف فجاز فيه الوجهان للعلتين" (معاني القرآن، ٢٧١، ٢).

"وما كان ليشر أن يؤتني الله الكتاب والحكم والنبؤة [..] ولا يأمركم" (آل عمران/٨٠-٧٩). إن أكثر القراء على النصب "ولا يأمركم" لأنهم يردونها على "أن يؤتني الله"، فتكون: "ولا أن يأمركم". (معاني القرآن، ٢٢٤/١). فكان الفراء يقول: يسرني أن تفعل فـ (أن) أفعل، ولو لم تكن (أن) مكررة أمام الفعل الثاني لما جاز أن ينسق على الفعل الأول. ويبعد لنا أن الفراء لا يسعى لتقدير المعنى فحسب، بل إلى تقدير الإعراب كذلك لأنه يبرر النصب بالنسق الذي يقتضي التكرير، وليس في المثال ما يكرر إلا (أن) التي تتصلب الفعل الأول. فيكون الثاني منصوباً بـ "أن" المقدرة التي تدل عليها "أن" المظيرة أمام الأول.

- ويقول كذلك في المثالين التاليين:

"والله لأضربك أو تقرّ لي":

"وقال الذين كفروا لرسليم لخرجنكم من أرضنا أو لتعودنَ في ملتنا"

(إبراهيم/١٣):

(إن معنى "أو" هنا معنى "حتى" أو "إلا" /١٣/)، إلا أنها جاءت بحرف نسق؛ فمن العرب من يجعل الشرط متبعاً للذى قبله، ابن كان في الأول لام كان في الثاني لام، وإن كان الأول منصوباً أو مجزوماً نسقاً عليه، كقوله: "لتعودن". ومن العرب من ينصب بعد "أو" ليؤنن نصبه بالانقطاع عما قبله. وقال الشاعر (٢٧):

"لتغدرْنِ مُعَدَّ القصبيِّ مَنِي ذي الْقَادُورَةِ الْمَقْلُوبِيِّ
أو تحلفي بربك العلبي أني أبو ذيالك الصبي

فنصب "تحلفي" لأنه أراد: "أن تحلفي" (معاني القرآن، ٧٠/٢).

(٢٦) المقصود بالطبع: إلا أن.

(٢٧) في أمرأته وقد عاد فوجدها قد ولدت غلاماً فأنكرها.

وهذا القول للفراء شبيه بقول سيبويه:

"اعلم أن ما انتصب بعد "أو" فابه ينتصب على اضمamar "أن" (الكتاب، ٤٦/٣).

ح- إن هذه النتيجة التي وصلنا إليها تضيق شقة الخلاف بين البصريين والkovفيين، أو بين رأسي "المدرستين". ويظهر أن هذين النحوين كانوا يصدران عن نظرية واحدة، وأن كثيراً من الخلافات الفرعية التي تداولتها كتب النحاة لم تكن في حقيقة الأمر خلافات بين النحوين الأوائل^(٢٨) وإنما نظن أن النحاة الذين افتوا في التعليل وفي التوليد على مذاهب الأقدمين، ولا سيما نحاة القرن الرابع الهجري، قد أخذوا بظاهر كلام الفراء فوسعوا شقة الخلاف، وأن الآراء الخلافية المنسوبة إلى البصريين والkovفيين تحتاج إلى إعادة النظر فيها.

(٢٨) يقول الزجاجي بعد أن ينقل آراء الفراء في بناء قبل وبعد وحيثٌ فقط ومنذ ونحن على الضم: "ولولا كراهيّة التطويل لبَيَّنت ما يلزمُه في فصل فصل من هذا، ومن أين أخذه، وكيف ولده: لأنَّه كلَّه مأخوذ من معانِي كلام سيبويه". (شرح مقدمة رسالة أدب الكتاب، ورقة ٦ ظهر).

المصادر والمراجع

١- المصادر والمراجع العربية:

ابن الأباري: *الإنصاف في مسائل الخلاف*، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الفكر، د.ت.

ابن جني: *الخصائص*، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٧٦/١٩٥٧.

: سر صناعة الإعراب، تحقيق مصطفى السقا و محمد الزفراوى
وابراهيم مصطفى وعبد الله أمين، الجزء الأول، البابى الحلبى، القاهرة، ط١، ١٣٧٤/١٩٥٤.

الأستراباذى: *شرح الكافية*، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

الجرجاني: *المقصد في شرح الإيضاح*، تحقيق كاظم بحر المرجان، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة كتب التراث، رقم ١١٥، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢.

الحلواني (محمد خير): *الخلاف النحوى بين البصرىين والكرفيين* وكتاب الإنصاف، دار القلم العربى، حلب، ١٩٧٤.

الزجاجى: *كتاب الجمل في النحو*، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت ودار الأمل، إربد، ط١، ١٤٠٤/١٩٨٤.

: *كتاب اللامات*، تحقيق مازن المبارك، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٣٨٩/١٩٦٩.

: *شرح مقدمة أدب الكاتب لابن قتيبة*، مخطوط بدار الكتب المصرية، القاهرة، رقم ٢٩ ش أدب، عنوان المخطوط: *تفسير رسالة ابن سعيد في أدب الكتاب*.

سيبوبيه: *الكتاب*، تحقيق عبدالسلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧١-١٩٧٧.

السيد (عبد الرحمن): مدرسة البصرة النحوية، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٣٨٨/١٩٦٨ م.

السيوطى: الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٤٠٦ هـ/١٩٨٥ م.

: همع الهوامع، تحقيق عبدالسلام هارون وعبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م.

ضيف (شوقي): المدارس النحوية، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٧٩ م.
القراء: معانى القرآن، تحقيق محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م.

العلاني (صلاح الدين خليل بن كيكلاي): الفصول المقيدة في السوا والمزيدة، تحقيق حسن موسى الشاعر، دار البشير، عمان، ط١، ١٤١٠ هـ/١٩٩٠ م.
المفرد: المقتضب، تحقيق محمد عبدالخالق عصيمة، عالم الكتب، بيروت، ١٣٨٢/١٩٦٣ م.

مخزومي (مهدى): مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، البابى الحلبى، القاهرة، ط٢، ١٣٧٧ م/١٩٨٥ م.

٢- المراجع الأجنبية:

M.G. CARTER: Sarf et kilâf, contribution à l'histoire de la grammaire arabe, *Arabica*, XX, 1973, 292-304.

Hassan HAMZE: Unité et diversité dans la tradition grammaticale arabe, *Linguisticae Communicatio*, Fès, à paraître

Hassan HAMZE: La coordination à un pronom “conjoint”, *Arabica*, XXXVI, 1989, 249-271.

Salam Hamze: *Les unités amorphes libres dans le Kitâb de Sibawayhi*, thèse de 3^e cycle, Université de Provence, 1984.

طرفة بن العبد

نحو تصحيح الإطار الزمني لحياة الشعراء الجاهليين*

الدكتور عرسان حسين الراميني

قسم اللغة العربية - جامعة اليرموك

تشير المصادر إلى وفاة طرفة بن العبد البكري عادة في سياق القصة المشهورة الخاصة بما يسمى "صحيفة المتملس". وتتلخص هذه القصة في أن ملك الحيرة عمرو بن المنذر الثالث بن ماء السماء، المعروف لدى المؤرخين بعمرو بن هند، أرسل مع طرفة والمتلمس كتابين إلى عامله على البحرين يأمره بقتلهم. فكان أن فتح المتلمس كتابه فعلم ما فيه ونجا، بينما لم يفعل ذلك طرفة فانتهى به الأمر إلى القتل وهو شاب في العشرينات من عمره^(١).

*أشكر الأستاذ الدكتور عريف عبدالرحمن على تلطيفه بقراءة مسودة البحث.

(١) ترد القصة في مصادر عديدة. حول أكثر الروايات تفصيلاً، انظر: الأصفهاني (أبو الفرج على بن الحسين ت ٣٦٥هـ)؛ (كتاب الأغانى)، طبعة دار الثقافة، ج ٢، ص ٥٣٩ - ٥٤٠، البغدادي (عبد القادر بن عمر ١٠٣٠ - ١٠٩٣هـ)، خزانة الأدب، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٧، ج ٢، ص ٤١٥ - ٤٢٤؛ ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦هـ)، الشعر والشعراء Leiden ١٩٠٢، ص ٨٥ - ٩١، وانظر أيضاً: الميدانى (أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري ت ٥١٨هـ)، مجمع الأمثال تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت ١٩٨٧، رقم ٢١١٣ (صفحة ٢٢٤ - ٢٢٨)؛ أبو البقاء هبة الله الحلى، المناقب المزیدية في أخبار الملوك الأسدية، تحقيق صالح درادكة ومحمد خريسات، عمان ١٩٨٤، ج ١، ص ١٣١ - ١٤١؛ (وفيه أن كتاب طرفة كان إلى الرابع بن حوثرة العبدى عامل عمرو بن هند على البحرين، بينما كان كتاب المتلمس إلى المكعب أحد مرازية الفرس)؛ المرزبانى أبو عبد الله محمد بن عمران ت ٣٨٤هـ، معجم الشعراء، تحقيق عبد العفتار فراج، القاهرة ١٩٦٠، ص ٦ - ٦٦؛ المرتضى (على بن الحسين الموسوى ت ٤٣٦هـ)، غرر الفوائد ودرر القلائد (الأمالي)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٥٤، ج ١، ص ١٨٣ - ٥؛ ابن خلkan (شمس الدين أبو العباس أحمد ابن محمد ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨، ج ٦، ص ٢٩ - ٣٥.

لقد شك الدارسون المعاصرون في صحة كثير من تفاصيل قصة "صحيفة المتلمس"^(٢)، لكنهم في الوقت نفسه قبّلوا المعطيات الأساسية السابقة من غير مناقشة. ومن أهم هذه المعطيات الادعاء بأن المسؤول عن مقتل طرفة هو ابن المنذر الثالث، عمرو بن هند، الذي تولى حكم الحيرة ما بين سنتي ٥٥٤ و٥٦٩. وبناء على ذلك، أجمع الدارسون عموماً على أن طرفة عاش في الفترة الوسيطة من القرن السادس للميلاد، مع اختلافات طفيفة بينهم في تقدير السنة التقريرية لمقتله في تلك الفترة. إن هذا يوضحه الهاشمي حين يقول "غير أن بعض الباحثين المحدثين حاول تحديد سنة ولادته ووفاته بالأرقام. فقد ذهب كل من فون غرونباوم والزركلي إلى أنه عاش بين ٥٣٨-٥٦٤ م على وجه التقرير^(٣). وذهب كل من فؤاد أفرام البستانى وحنا الفاخوري إلى أن حياته كانت على وجه التقرير أيضاً بين ٥٤٣-٥٦٩. وقال مصطفى صادق الرافعى في تحديد سنة وفاته "ويقال ابن مقتله كان بعد سنة ٥٥٢ بعد الميلاد وقبل سنة ٥٦٤" وهذا ما رجحه الدكتور بدوي طبانة منكراً على الرافعى رقمه الأول. أما جرجي زيدان فذهب إلى أن وفاة طرفة كانت سنة ٥٠٠ م، وذهب شيخو إلى أن وفاته سنة ٥٦٤، وانفرد عمر فروخ بتحديد سنة وفاته بنحو ٥٦٠^٤. ويتابع الهاشمي فيقول "ونحن إذا نظرنا في هذه الأرقام.... ترجح لدينا أن أقربها إلى

(٢) لاحظ هذه الشكوك في: علي الجندي، الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد - تحقيق ودراسة لشعره وشخصيته، القاهرة ١٩٨٠، ص ١٥؛ وانظر أيضاً حسن جعفر نور الدين، طرفة بن العبد: سيرته وشعره، بيروت ١٩٩٠، ص ٣٥، من الطريف أن عمر فروخ يشير في الحاشية، إلى الرواية الشائعة عن مقتل طرفة واصفاً إياها بأنها مصنوعة، بينما في المتن يذكر من غير الإشارة إلى مصدره أن طرفة قُتل مع عمرو بن ماما (أمامة)، أخي عمرو بن هند أثناء رحلة تجارة لهما إلى اليمن^٥ (تاريخ الأدب العربي، بيروت ١٩٨٥، ص ١٣٦). إن الرواية المأذنة الخاصة برحنته مع عمرو بن ماما إلى اليمن لا يفهم منها ذلك، ثم إن شعره يدل على أنه عاد من تلك الرحلة سالماً(انظر ديوان طرفة بن العبد تحقيق درية الخطيب ولطفي الصنقال، دمشق ١٩٧٥ م، رقم ٤١).

(٣) يبدو أن الهاشمي أساء اقتباس جرونباوم هنا، إذ في الحقيقة يرى هذا الأخير أن التاريخ التقريري لولادة طرفة ووفاته هو سنتا ٥٣٥، ٥٦٨ على التوالي Gustave E. von Grunebaum, *Themes in Medieval Arabic Literature*, London 1981 (collected studies), Article iii, p.126.

الصواب في تاريخ ميلاده ما ذهب إليه كل من الزركلي وفون غرونباوم، أي نحو سنة ٥٣٨م. أما سنة مقتله فارجح أنها كانت نحو سنة ٥٦٧م، وذلك أن طرفة غادر حيّه مطوفاً في الآفاق...^(٤).

في مقابل ذلك كله، تحتوي بعض المصادر على روایات تختلف ما استقر في الأذهان من أن طرفة ينتمي إلى عهد عمرو بن المنذر الثالث، لكنها حتى الآن لم تلق اهتماماً كافياً في الدراسات المعاصرة^(٥). هذه الروایات تعود بالشاعر، بدلاً من ذلك، إلى فترة آخر الملوك اللخميين، النعمان بن المنذر، الذي حكم الحيرة خلال العقدين الأخيرين من القرن السادس للميلاد (٥٨٢/٥٨٠ - ٦٠٢/٦٠٤). ففي: "تشوة الطرف"، يخبرنا ابن سعيد الأنبلسي (ت ٦٨٥هـ) أن طرفة "كان ينادم النعمان بن المنذر" وأن هذا الأخير حتى عليه بسبب شعر هجاء

(٤) محمد علي الهاشمي، طرفة بن العبد: حياته وشعره، بيروت ١٩٨٠، صص ٤٠-٣٩.
بالإضافة إلى الدارسين الذين يذكرون الهاشمي هنا، انظر أيضاً، فيما يتعلق بالرأي التقليدي في طرفة: علي الجندي، طرفة، ص ١٠؛ حسن نور الدين، طرفة، Nicholson R.A., A Literary history of the Arabs, Cambridge, 1962 (first edn. 1906), pp. 107-14
ناصر الدين الأسد، "مقدمة لدراسة القبائل العربية في الخليج قبل الإسلام: هجراتها وعلاقتها بالقبائل الأخرى بالجزيرة العربية"، دراسات عربية وإسلامية (مودة إلى إحسان عباس بمناسبة بلوغه الستين)، تحرير وداد القاضي، بيروت ١٩٨١، ص ٤٧؛ Abdulla El-Tayibi, "Pre-Islamic Poetry", The Cambridge history of Arabic literature, London 1983 pp. 76-8 وصدر الإسلام، القاهرة ١٩٨٤، صص ٨١-٤؛ عمر شرف الدين، الشعر في ظلال المنازرة والغساسنة، القاهرة ١٩٨٧، صص ٥٥-٦٤؛ عبد العزيز بنوي، دراسات في الأدب الجاهلي، القاهرة ١٩٨٨، ص ٢٥٢؛ محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب الجاهلي: نصوص ودراسة، بيروت ١٩٩١، ص ١١٤.

(٥) فقط الهاشمي يذكر رواية الشريف المرتضى المشار إليها لاحقاً (حاشية ٧) ثم يرفضها بشدة على أساس أن "أبا منذر" في هذا الشعر ليس بالضرورة أن يكون النعمان، وأيضاً على أساس أن اسم عمرو بن هند يتكرر في شعر طرفة هو ثابت من الشعر الذي يذكره الشريف المرتضى وأنه من الثابت أن عمرو بن هند تولى الحكم قبل النعمان وأن طرفة مات في عهده (طرفة ص ٦٤).

فيه فكتب له والمتمس لعامله على البحرين بأن يقتلهم.^(١) وبعد أن يذكر ابن سعيد هذا الخبر، يشير إلى الرواية القائلة إن الذي أمر بقتل طرفة هو عمرو بن هند "وقد قيل ابن عمرو بن هند هو الذي أمر بقتله".

هذه الإشارة إلى الاختلاف فيمن أمر بقتل طرفة وربت قبل ذلك في كتاب "الغرر والدرر" للشريف المرتضى (٤٣٦هـ)، وفيه يزيد الشريف الرأي القائل بأن المسؤول عن قتل طرفة هو النعمان بن المنذر^(٢)، وهو بذلك يتفق مع ابن سعيد الأندلسي، الذي يعرض الخبر بطريق نفهم منها أنه يميل هو الآخر إلى هذا الرأي. وتلك الإشارة نفسها نصادفها كذلك في كتاب أقدم هو "جمهرة الأمثال" لأبي هلال العسكري (ت ٣٨٢هـ)، لكن من غير ترجيح مباشر لواحدة من الروايتين على الأخرى^(٣). بالإضافة إلى ذلك، يضمن خبر الصحيفة، كما ورد في رواية أبي عبيد، إشارة واضحة إلى أن هذه الحادثة وقعت في عهد النعمان بن المنذر "لما بلغ النعمان بن المنذر لحوق المتمس بالشام، وكانت غسان قتلت أباه يوم عين أباغ، شق عليه لحوقه بغان وحلف ألا يدخل العراق ولا يطعم بها

(٦) ابن سعيد الأندلسي (علي بن موسى بن محمد ت ٦٨٥)، نشوء الطرف في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق نصرت عبدالرحمن، عمان ١٩٨٢، ص ٢٢١-٢٢٢. من المحتمل جداً أن تكون القصة نفسها مصنوعة لكن فكرة علاقة طرفة ببلاد النعمان هي المهمة هنا.

(٧) ويقال ابن صاحب المتمس وطرفة في هذه القصة هو النعمان بن المنذر، وذلك أشبه بقول طرفة:

أبا منذر كانت غروراً صحيحتي
أبا منذر أفتبت فاستيق بعضنا
حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وأبو منذر هو النعمان بن المنذر، وكان النعمان بعد عمرو بن هند، وقد مدح طرفة النعمان، فلا يجوز أن يكون عمرو قتله، فيشبه أن تكون القصة من النعمان (ج ١، ص ١٨٥). أيضاً يورد الميداني البيت الثاني ويقول في التقييم له: "هذا من قول طرفة بن العبد حين أمر النعمان بقتله" (مجمع الأمثال، ج ١، ص ١٦٤).

(٨) الحسن بن عبدالله بن سهل، جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبدالمجيد قطامش، القاهرة ١٩٦٤، رقم ١٠٨٦.

حتى يموت^(٩). ومن الجدير باللحظة أن أبا العلاء المعربي انتبه إلى انقسام الناس إلى فريقين حول من المسؤول عن مقتل طرفة، لكنه لم يحاول تأييد فريق على آخر^(١٠). هذا الرأي الآخر في المصادر، وهو أن طرفة قُتل في عهد النعمان بن المنذر وليس في عهد عمرو بن هند، يوجد عليه دليل مباشر في شعر طرفة نفسه، وإن تجاهلت الدراسات المعاصرة عموماً هذه الحقيقة، ربما على أساس أن شعره الذي يمثل ذلك ليس من مرويات الأصمعي، الإخباري الأكثر احتراساً: ففي قصيدة له رائية يذكر طرفة النعمان حانقاً عليه بسبب مواعيده الكاذبة^(١١)؛ وفي قصيدة ضادية تعدد من مشاهير شعره، ينتقده بشدة بسبب حرب إبادة يسرها ضد ضبيعة، عشيرة الشاعر، بالتعاون مع الجماعات الموالية للحيرة بالبحرين^(١٢)؛ وأخيراً، يذكره في قصيدة يائية مشيراً مرة أخرى إلى

(٩) الأغاني، تفافة، ج ٣، ص ٥٤٩. ومع ذلك يقول أبو عبيدة في رواية أخرى مسندة إليه: «لما لحق المتملس بالشام هارباً من عمرو بن هند» (المصدر نفسه، ص ٥٥٤).

(١٠) (رسالة الغفران، تحقيق عائشة عبد الرحمن، القاهرة ١٩٧٧، ص ٣٣٨) اقتبسها جواد على (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت ١٩٦٩، ج ١، ص ٢٤٦) واقتبسها أيضاً الهاشمي (طرفة، ص ٦٣)، لكن من غير تعليق.

(١١) فدعها وانحل النعمان قولاً كنحت الفأس ينجد أو يغور

(ديوان طرفة، قصيدة ٣٨، بيت ٥)

(१२)

ألا أبلغها بكر العراق بن وائل
فإن يقتل النعمان قومي فإنما
في Glover على النعمان في الحرب ميلة

(السابق، قصيدة ٥٦، أبيات: ٤٠-٣٨). لاحظ ما جاء في تحقيق البيت الأول يقصد بالنصرى في هذا البيت و "النعمان" في البيتين ٣٩، ٤٠، الآتى: عمرو بن هند" (ديوان طرفة بن العبد: تحقيق وتحليل ونقد، القاهرة ١٩٥٨، اللبناني: ٦١٦، ٦١٧). وهذا أيضاً ما يقوله عمر شرف الدين دون الإشارة إلى الجندي (المتجردة، ص ٥٩، الحاشية).

سياسة التعسف التي يتبعها ضد قومه^(١٢). طبعاً، من ناحية نظرية، تعد رواية الأصمعي للشعر القديم أكثر دقة من غيرها، لكن يبقى تصحيف الشعر الجاهلي أمراً نسبياً عموماً. فالأشعار المروية عن غير طريق الأصمعي وسواء من ثقات المشتغلين بجمع الشعر الجاهلي تظل أشعاراً مقبولة ما لم يقم الدليل على بطلانها سواء كان هذا الدليل من داخل القصيدة أو خارجها. كذلك المرويات التي استقبلها الناس باحترام شديد منذ عصر التدوين حتى الآن، لا يدعى لها أحد مطلق الصحة. ومهما يكن من أمر، فإن قصائد طرفة آنفة الذكر لم توجه إليها قديماً اتهامات بالزيف، وكذلك لم يشك فيها أحد من محققى شعره، على الرغم من أن هؤلاء لم يحاولوا التوفيق بين الرأى الشائع حول مقتله من ناحية، وبين ذكر النعمان بن المنذر في شعره من ناحية أخرى. فقط درية الخطيب ولطفي الصقال أشاراً في معرض شرحهما على أحد الأبيات التي ذكر فيها النعمان إلى أن هذا الأخير هو عمرو بن هند^(١٣)، ثم أكدَا الشيء نفسه في فهرس الأعلام الملحق بالديوان، وذلك كما يفهم من قولهما "عمرو بن هند = النعمان بن المنذر = النصري = أبو منذر". لكنهما، في المقابل، لم يبينا للقارئ كيف حدث أن عمرو بن هند والنعمان بن المنذر شيء واحد.

طبعاً عمرو بن هند هو الآخر ورد ذكره في شعر طرفة، وبالتحديد في خمس قصائد منسوبة إلى الشاعر، واحدة منها فقط رواها الأصمعي، وهي قصيدة رائية تقع في ثمانية أبيات^(١٤)؛ ولكن من الطريف أن مروية الأصمعي

(١٢)

خرجنا وداعي الموت فينا يقودنا وكان لنا النعمان بالسيف حاديا

(السابق، قصيدة ٩١، بيت ٣).

(١٤) انظر حاشية ١٢.

(١٥) وهي القصيدة رقم ٩ في الديوان. أرقام القصائد وأرقام الأبيات الخاصة بالمواطن الأربع الباقية هي على التوالي: ١:٤١، ٢:٣٣، ٥:٥٠، ١:٦٦.

هذه جاءت في رواية ابن السكikt مكونة من ثلاثة وعشرين بيتاً^(١٦)، أي بزيادة خمسة عشر بيتاً تألف هي نفسها القصيدة الرائعة رقم ٣٨ في طبعة مجمع دمشق، حيث واحد من المواطن الثلاثة التي ذكر فيها النعمان، أي أن عمرو بن هند والنعمان بن المنذر ذكرا معاً في قصيدة واحدة في رواية ابن السكikt؛ وإذا ما صح أن كنية "أبو منذر" في شعر طرفة هي لعمرو بن هند، وهو الحاصل فعلًا كما يبدو^(١٧)، فإن القصيدة الضادية رقم ٥٦ في طبعة مجمع دمشق تمثل نموذجاً آخر يظهر فيه ذكر الشخصيتين معاً في موطن واحد. إن ما يمكن استفادته هنا هو أن بعض القدماء لم يجدوا حرجاً في نسبة شعر إلى طرفة يذكر فيه النعمان بن المنذر إلى جانب عمرو بن هند.

إذا كان عمرو بن هند هذا الذي يرد ذكره في شعر طرفة هو نفسه عمرو بن المنذر الثالث كما يعتقد عموماً، فإنه حتماً لا سبيل إلى التوفيق بين الروايتين المتضاربتين أعلاه، وبالتالي ينبغي أن نلقي جانباً كل ما يتعلق بالنعمان في شعر طرفة أو أن نقول مع طبعة مجمع دمشق إن النعمان بن المنذر هو عمرو بن هند وإن عمرو بن هند هو النعمان بن المنذر. لكن المصادر، لحسن الحظ تتيح لنا مخرجاً واسعاً من هذا المأزق. فالخطيب البغدادي (١٠٩٣-١٥٢ هـ) يروي خبر؛ "الصحيفة" في سياق تعليقه على الشاهد رقم ١٥٢ وفي نهاية الخبر يسجل ملاحظة مهمة فيقول "عمرو بن هند المذكور هنا هو من ملوك الحيرة، كان عاتياً جباراً ويسمى محرقاً أيضاً، لأنه حرقبني تعميم، وقيل بل حرق نخل اليمامه. والنعمان بن المنذر صاحب النابغة أخو عمرو بن هند، وسيأتي ابن شاء

(١٦) انظر (ديوان طرفة)، ص ١٥٢، حاشية ٤؛ قارن ما جاء في مقدمة التحقيق عن نسخة قازان (ص: ٢).

(١٧) من المستبعد أن تكون هذه الكنية للنعمان بن المنذر، على النقيض مما يرى المرتضى والميداني؛ (انظر حاشية ٧)، إذ من المعروف على نطاق واسع في المصادر أن كنية النعمان هي "أبو قابوس". Rothstein, G. *Die Dynastie der Lakhmiden in al-Hira*. Berlin 1899. p 107؛ ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ت ٧١١ هـ)، لسان العرب، مادة: قبس). أضاف إلى ذلك أنه في مقابل كنية "أبو قابوس"، التي ترد كثيراً في الشعر الجاهلي في سياق مخاطبة النعمان أو الحديث عنه، فإن كنية "أبو منذر" لم تستعمل لذلك قط، في حدود معرفتي.

الله تعالى نسب عمرو بن المنذر في نسب أخيه النعمان بن المنذر في الشاهد الثالث بعد هذا^(١٨). وفي تعليقه على هذا الشاهد الثالث، وهو الشاهد رقم ١٥٥ يتبع البغدادي ترافق ملوك آل نصر على حكم الحيرة نقلًا عن كتاب العمدة لابن رشيق (ت ٤٦٣ هـ)، ويقول في معرض ذلك مقتبساً هذا الأخير؛ تم عمرو بن المنذر بن المنذر وهو عمرو بن هند ملك بعد المنذر بن المنذر وقبل النعمان بن المنذر صاحب النابفة وهو آخر ملوك لخ^(١٩).

إن ما يذكره البغدادي في هذا الصدد أمكن تتبعه في مصادر أقدم من “العمدة”: فالقائمة بأسماء ملوك الحيرة وفق التسلسل الذي يراه ابن رشيق موجودة في معارف ابن قتيبة^(٢٠) المتوفى سنة ٢٧٦ هـ؛ أيضاً يروي المبرد^(٢١) خبر وفادة على عمرو بن هند قام بها أوس بن حرثة بن لأم وحاتم الطائي، ويعرف المبرد خلال ذلك بعمرو بن هند قائلاً إنه ابن المنذر بن المنذر بن ماء السماء^(٢٢)؛ كذلك في سياق شرحه على البيت الستين من معلقة الحارث بن حلزة الشكري، يخبرنا أبو جعفر النحاس أن عمرو بن هند لما قتل أبوه وجه أخاه

(١٨) خزانة الأدب، ج ٢، ص ٤٢٥. تعليق المحقق على معلومة البغدادي محاولة غير ضرورية للدفاع عن الرأي التقليدي؛ ابن وقوع تصحيف في العبارة هنا أمر يصعب تصوره، أولاً لوضوح السياق، ثانياً لورود هذه المعلومة في أشكال مختلفة في غير موطن في الخزانة (انظر، بالإضافة إلى ما سبق: ج ٢، ص ٤٥١؛ ج ٤، ص ٤٤٢؛ ج ٩، ص ٤٩٤؛ ج ١١، ص ٤٠١؛ ج ١١، ص ٢٦٩).

(١٩) ج ٢، ص ٤٥١. نص ابن رشيق يجري كالتالي: ثم المنذر بن المنذر، وهو الأصغر، ثم أخوه عمرو بن المنذر، وهو عمرو بن هند، ويسمى محرقاً لأنه حرقبني تميم، وقيل: بل حرق نخل اليمامة، ثم النعمان بن المنذر صاحب النابفة” (الحسن بن رشيق القررواني ٤٦٤ هـ، (العمدة، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، بيروت ١٩٧٢، ج ٢، ص ٢٢٩).

(٢٠) تحقيق ثروت عاكاشة، القاهرة ١٩٦٩، ص ٩-٦٤٥. من جانبه يقدم اليعقوبي رواية شاذة يظهر فيها ابنان المنذر الثالث، كل منهما اسمه عمرو، والثاني هو صاحب لقب “ابن هند”， وقد خلفا أبيهما الواحد بعد الآخر (اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر ت ٢٩٢ هـ)، تاريخ، بيروت، ص ٢١٠).

(٢١) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ت ٢٨٦ هـ، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والميد شحاته، القاهرة، ١٩٦١، ص ٢-٢٣١.

النعمان وحشد معه من قدر عليه من أهل مملكته وأمره أن يقاتلبني غسان ومن خالقه منبني تغلب^(٢٢). ابن ما يرويه ابن النحاس هنا يتفق، كما هو واضح، مع قائمة ابن قتيبة التي تجعل ملك عمرو بن هند بعد ملك المنذر بن المنذر وقبل ملك النعمان.

على أن أقدم مصدر بين أيدينا يستفيد منه، في الأقل، أن شخصية لخميء تعرف بعمرو بن هند [كانت معاصرة للنعمان بن المنذر هو هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٤٢٠ هـ]. ففي حديثه عن العداوة بين قبيلتي بكر وتغلب، يخبرنا أبو الفرج، بإسناد إلى ابن الكلبي، أن كلاماً من هاتين القبيلتين أودع رهناً لدى ملك الحيرة ضماناً للتزامهما بشروط الصلح الذي عقده هذا الأخير بينهما فلبيوا كذلك إلى ما شاء الله، ثم يتتابع أبو الفرج فيقول (بالإسناد نفسه) "فسرح النعمان بن المنذر ركباً منبني تغلب إلى جبل طيني في أمر من أموره فنزلوا بالطربة، وهي لبني شيبان وتيم اللات، فذكروا أنهم أجلوهم عن الماء وحملوهم على المفازة فمات القوم عطشاً. فلما بلغ ذلكبني تغلب غضبوا وأتوا عمرو بن هند فاستعدوه على بكر وقالوا غدرتم ونقضتم العهد وانتهكتم الحرمة وسفكتم الدماء".^(٢٣)

نظرياً، يمكن أن يفسر هذا الخبر، الذي ينقله ابن الكلبي عن أبيه، بطريق تتفق مع روایة أبي جعفر النحاس، التي بدورها تتفق مع تسلسل ملوك الحيرة في قائمة ابن قتيبة، أي أن عمرو بن هند كان ملك الحيرة آنذاك بينما كان النعمان بن المنذر في خدمته، وليس العكس. لكن عملياً، هذا التفسير لا يصح، لأنه ببساطة يتعارض مع رأي ابن الكلبي نفسه في تسلسل ملوك الحيرة. فعمرو بن

(٢٢) أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس ت ٣٣٨ هـ، شرح القصائد القصص المشهورات، تحقيق أحمد خطاب، بغداد، ١٩٧٣، ١، ص ٥٩٤. والرواية نفسها يوردها التبريزي أبو زكريا يحيى ابن علي بن محمد (٥٠٢ هـ)، شرح القصائد العشر، تحقيق فخر الدين قباؤة، بيروت ١٩٨٠، ٤٠١، ص ٤٠١.

(٢٣) أغاني (دار الكتب، القاهرة ١٩٢٧-١٩٧٤) ج ١١، ص ٤؛ (ستكون الإشارة من الأن فصاعداً إلى هذه الطبعة إلا إذا نص على غير ذلك).

هند، في روایته، هو عمرو بن المنذر الثالث بن ماء السماء ويضعه مباشرة بعد أخيه المنذر، ثم يضع بعده أخاه قابوساً، ثم أخاه المنذر بن المنذر، ثم ابن هذا الأخير النعمان بن المنذر بن المنذر^(٢٤). طبعاً، لن نخوض في تفاصيل الخلاف الشديد في المصادر حول تسلسل ملوك الحيرة وسني حكم كل منهم، فهذه القضية، وبخاصة بالنسبة إلى المنذر الثالث وخلفائه، قد حسمت منذ فترة طويلة نسبياً، والفضل في ذلك يعود لسديني سميث في مقالة عن أحداث الجزيرة العربية في القرن السادس للميلاد^(٢٥)، وقد جاءت نتائجه، وهي مبنية على استشارة مصادر متعددة، عربية وغير عربية ونقوش، تؤكد الهيكل العام لرواية ابن الكلبي عن ملوك الحيرة.^(٢٦)

من الواضح، إذن، أن بعض الإخباريين كان لديهم معلومات تشير إلى وجود أخ للنعمان بن المنذر يقال له عمرو بن هند وإلى أن عمراً هذا كان يتمتع بسلطة كبيرة في الحيرة ويقود الجيوش وينعم بلقب "ملك" تبعاً للعرف السائد آنذاك، وهو استعمال هذا اللقب أيضاً في مخاطبة أبناء الملك الفعلي وإخوته؛ ويبدو أن هذا الوضع دفع أناساً منهم إلى الاعتقاد بأن هذا الأمير اللخمي حكم الحيرة فترة من الزمن، وفي هذه الحالة لا يمكن أن يكون موقعه بين ملوك الحيرة إلا بعد أخيه المنذر بن المنذر وقبل أخيه النعمان، فوضعه هناك في

(٢٤) انظر قائمة ابن الكلبي بأسماء ملوك الحيرة وسني حكمهم في جواد علي: المفصل، ج ٣، ص ٣٠٦-٨. ومن الجدير ملاحظة أن قائمة ابن الكلبي، خاصة في الجزء الخاص بالمنذر الثالث وخلفائه، تتفق مع قائمة ابن حبيب (أبو جعفر محمد بن حبيب، (المحبر، تحقيق ١. Lichtstaedter، ١٩٦٢ ص ٣٥٨) وحمزة الأصفهاني (أبو عبد الله بن الحسن، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، بيروت ، ص ٨٢-٧).

(٢٥) Smith, S., "Events in Arabia in the sixth century A.D.", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 26(1954).

(٢٦) إن هذا التفسير لرواية ابن الكلبي يجد أيضاً ما يؤيده في رواية ينقلها الميداني، تجاري كالتالي: كان مخالف بن مزاحم الكلبي وقاصر بن سلمة الجذامي بباب النعمان بن المنذر، وكان بينهما عداوة، فأتى قاصر إلى ابن فرتى، وهو عمرو بن هند أخو النعمان بن المنذر، وقال... (مجمع الأمثال)، ج ١، ص ٣٦٩-٧٠). يقتبسها أحمد زكي صفت (جمهرة خطب العرب، القاهرة ١٩٦٢، ج ١، ص ٦٥).

قوائمه؛ لكن هذا الاعتقاد لم يعد له قيمة منذ أن أصبح من الثابت أن النعمان بن المنذر هو الذي خلف أبيه على عرش الحيرة. ابن عمرو بن هند في رواية ابن الكلبي أنفة الذكر ينبغي إذن أن يكون أميراً لخلياً مكلفاً بالإشراف على القبائل وإدارة شؤون الحرب في مملكة الحيرة في عهد أخيه النعمان بن المنذر^(٢٧).

هذه النتيجة يمكن تعزيزها بإشارة نادرة يوردها أبو الفرج الأصفهاني في سياق ترجمته للشاعر المنخل اليشكري. ففي حديثه عن سبب قتل المنخل^(٢٨) يقول أبو الفرج في رواية مسندة إلى أبي عمرو الشيباني^(٢٩): «إن المتجردة وأسمها ماوية، وقيل: هند بنت الأسود بن المنذر الكلبي». كانت عند ابن عم لها يقال له حلم، وهو الأسود بن المنذر بن حارثة الكلبي، وكانت أجمل أهل زمانها. فرأها المنذر الملك اللخمي فعشقاها. فجلس ذات يوم على شرابه ومعه حلم وامرأته المتجردة، فقال المنذر لحلم: إنه لا يليق بالرجل أن يقيم على المرأة زماناً طويلاً حتى لا يبقى في رأسه شعرة بيضاء إلا عرفتها، فهل لك أن تطلق امرأتك المتجردة وأطلق امرأتي سلمى قال: نعم. فأخذ كل واحد منها على صاحبه عهداً. قال فطلق المنذر امرأته سلمى وطلق حلم امرأته المتجردة، فتزوجها المنذر، ولم يطلق لسلمى أن تتزوج حلماً وحجبها، وهي أم ابنه النعمان بن المنذر، فقال النابغة يذكر ذلك:

(٢٧) ومع ذلك، انظر، حاشية ٣١.

(٢٨) المنخل يمثل حالة مشابهة لحالة طرفة من حيث اختلاف الإخباريين فيمن قتله أبو عمرو بن هند أم النعمان بن المنذر، والفرق بينهما، بالإضافة إلى دواعي القتل. إن الروايتين المتناقضتين هما، بالنسبة إلى المنخل، على درجة واحدة من الشيوع تقريباً. إن الدارسين المعاصرین يميلون في العادة إلى رفض رواية مقتل المنخل على يد عمرو بن هند، وذلك بسبب شهرة حبه للمتجردة امرأة النعمان (انظر عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي)، ج ١، ص ١٦٨-٩؛ أحمد الربعي، المتجردة، بغداد ١٩٧٨، ص ٣٢-٤١، ٣٦.

(٢٩) أغاني، ج ٢١ (تحقيق العزيز باشراوى بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم) ص ٢-١. هذه الرواية مذكورة في أكثر من مصدر، مع اختلافات طفيفة (انظر الربعي، المتجردة)، لكن في رواية أبي البقاء أن قصة حلم/حلم هي مع النعمان وليس مع أخيه، المنذر (المناقب، ج ١ - ١٤٧). لا يذكر الربعي رواية أبي البقاء.

قد خادعوا حلماً عن حرة خرد حتى تبطنها الخداع ذو الحلم^(٣٠)

قال ثم مات المنذر بن المنذر، فتروجها بعده النعمان بن المنذر، ابنه.".
وهكذا تجعل المصادر من المحتمل أن يكون للمنذر الرابع زوجة اسمها هند،
وبالتالي، أن يكون ابنه عمرو منسوباً لهند تلك^(٣١).

حتى الآن لا تعني هذه النتيجة فيما يتعلق ب الهوية عمرو بن هند سوى أنه
كان هناك أميران لخميان، كل واحد منها، كما يفهم الإخباريون، يحمل هذا
الاسم، الأول عمرو بن المنذر الثالث، الذي حكم الحيرة في أواسط القرن السادس
للميلاد، والثاني عمرو بن المنذر الرابع، وكان متوفياً جداً في عهد أخيه النعمان
في أواخر ذلك القرن؛ فأي منهما هو صاحب طرفة؟ إذا لم نشا إثارة شك حول
صحة الأبيات التي ورد فيها ذكر النعمان في الشعر المنسوب إلى طرفة، فإن
الإجابة عن هذا السؤال جاهزة على الفور؛ لكن ما دام دارسو حياته ومحققو
ديوانه قد غضوا الطرف عموماً عن ورود اسم النعمان في شعره، وبذلك عبروا
ضمرياً عن شكلهم في صحة الأبيات ذات العلاقة، فإنه ينبغي أن نقدم أدلة أخرى
تثبت أن عمرو بن هند الذي يذكره طرفة إنما هو عمرو بن المنذر الرابع أخو
النعمان. هذه الأدلة تتمثل إجمالاً في عدد من الحقائق تشير مجتمعة إلى أن طرفة
كان، في الواقع، نشطاً في أواخر القرن السادس للميلاد، وليس في أواسطه، وإذا
كان عمرو بن هند هو المسؤول عن قتله فلا بد أن يكون عمرو هذا هو ابن

(٣٠) في ديوان النابغة: وقال النابغة في زوج المتجردة واسمه جلم:
تسفهوا جلماً عن طفلة رؤد حتى تقمها الكراز ذو الحلم
ما كان من جلم في معصد خلف مغرب بيت الغنى ومورث العدم

(صنعة ابن السكين، تحقيق شكري فيصل، دمشق ١٩٦٨، قصيدة ٤٢).

(٣١) طبعاً هذا مخالف للاتجاه السائد في المصادر وهو أن هند التي ينسب إليها عمرو بن
المنذر هي ابنة ملك كندة المشهور الحارث بن عمرو وزوجة المنذر الثالث، لكن
المصادر هنا ليست مقنعة بتاتاً (انظر الخاتمة).

من بين الشخصيات القبلية القليلة إلى يرد ذكرها في شعر طرفة، يبرز عبد عمرو بن بشر بن عمرو بن مرثد بوصفه الأكثر حضوراً. فهو يستحوذ على قصيدين من أصل أربع عشرة قصيدة يرويها الأصمعي لطرفة^(٣٣)، وفي هاتين القصيدين يهجوه الشاعر هجاء مرأ ويتهمه بافشاء سره وبأنه يتذكر لأبناء عمومته، بينما هو سهل في معاملته للأبعد. إنه في ضوء هذه العلاقة المتواترة بين الرجلين يفسر المؤرخون عادة مقتل طرفة، إذ يقولون إن عبد عمرو بن بشر هو الذي أخبر عمرو بن هند بأهاجي طرفة فيه فأوغر صدره عليه وانتهى الأمر إلى الإيذاع بقتله. وفي سياق هذه القصة نفسها يخبرنا المؤرخون أن عبد عمرو بن بشر كان متزوجاً من اخت طرفة، ونفهم منهم أيضاً أنه كان يحظى بمكانة خاصة لدى عمرو بن هند، وأنه وبالتالي كان يتمتع بنفوذ واسع في أوساطبنيقيس بن ثعلبة، وهذا ما ينص عليه ابن قتيبة حرفاً حين يصف عبد عمرو بن بشر بأنه كان سيد زمانه^(٣٤)، وهو أيضاً ما يتضمنه ابن حبيب حين يدرج اسم عبد عمرو بن بشر في قائمة "الأشراف العرجان"^(٣٥).

إن الإشارات المتعلقة مباشرةً بعبد عمرو بن بشر محدودة للغاية، لكن لحسن الحظ توجد واحدة منها تتصحّب بوضوح عن الجيل الذي ينتمي إليه. فقد ورد ذكره بوصفه قائداً لإحدى الكتاب التي قاتلت الفرس في ذي قار^(٣٦)، أي بعد زمن يسير من إقصاء النعمان بن المنذر عن الحكم في سنة (٦٠٤/٦٠٢م). هذا يعني أن عبد عمرو بن بشر كان من رجال أواخر القرن السادس وأول السابع للميلاد، وهي حقيقة يمكن تعزيزها بأدلة ظرفية تتعلق مباشرةً بأقرباء لعبد

(٣٢) هذا لا يتعارض مع الرواية التي تنسد المسئولية عن قتل طرفة إلى النعمان بن المنذر(حاشية ٦): ابن عمرو بن هند يمثل النعمان.

(٣٣) مما ٤ و ٨ في الديوان.

(٣٤) الشعر والشعراء، ص ١٩٣.

(٣٥) المحرر، ص ٤، ٣٠.

(٣٦) أغاني ج ٢٤ (تحقيق العزياوي ومطر بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم)، ص ٦٦.

عمرو، وبالتحديد جده عمرو بن مرثد، وابنه حمران، وجماعة من أبناء عمه الأذندين. فجده عمرو بن مرثد كان زعيماً قبلياً مرموقاً في عهد المنذر الثالث، جد النعمان. فقد أسدَّ إليه المنذر، كما نفهم من الأنباري، مهمة جمع الإتاوة من قبائل ربيعة^(٣٧). وفي شعر طرفة يرد ذكره بطريقة تدل على سعة النفوذ الذي كان يتمتع به آنذاك، إذ يقول طرفة في معلقته (وربما كان قد أنشأها في بلاط الحيرة) ابن ربه (ويعني به ملك الحيرة على الأرجح) لو شاء جعله في منزلة قيس بن خالد ذي الجدين أو في منزلة عمرو بن مرثد^(٣٨)، وهو هنا يشير إلى منزلة هذين الزعيمين كشيء من الماضي بالطبع^(٣٩). هذه المكان لعمرو بن مرثد في بلاط الحيرة ينبغي أن تعود في تاريخها إلى الجزء الأخير من عهد المنذر الثالث، بعد أن قضى اللخميون على نفوذ كندة في شرق الجزيرة العربية ووسطها واستقطبوا وبالتالي قبائل بكر بن وائل إلى جانبهم، وتم ذلك في الثلاثينات من القرن السادس للميلاد^(٤٠). وهكذا إذا كانت زعامة عمرو بن مرثد قد انتعشت في أواسط القرن السادس ، فطبيعي أن تكون زعامة حفيده عبد عمرو بن بشر بدأت في الظهور في أواخر ذلك القرن.

كذلك أخبار حمران، الابن الوحيد المشهور لعبد عمرو بن بشر، تؤكد ما

(٣٧) الأنباري (محمد بن القاسم ت ٣٢٨ هـ)، *شرح المفضليات*، تحقيق Lyall, C., Oxford, 1921 ص ٢٢؛ من ١.

(٣٨)

فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد

(الديوان، قصيدة ١، بيت ٨٠).

(٣٩) وذلك في مقابل الخبر الذي يذكر عادة في شرح هذا البيت، وهو أن عمرو بن مرثد حين سمع قول طرفة استدعاه فأمر أبناءه، وهم سبعة، أن يعطوه عشراء من الإبل، ثم أمر ثلاثة من أحفاده أن يعطوه كذلك، حتى حصل له مائة بعير (انظر السابق). ربما تكون هذه القصة غير صحيحة بالنظر إلى العدالة بين طرفة وعائلة مرثد. أما ابن صحت، فإنه ليس دون مغزى أن يكون أبناء عمرو بن مرثد وأحفاده هم الذين أعطوا طرفة، وليس عمرو بن مرثد نفسه.

Olinger, G., "The King of Kinda", *Lunds Universitets-Irsskripts Nova series*, (٤٠) band 23(1927), pp. 90ff.

سبق. فحرمان ينتهي، كما هو واضح من تلك الأخبار، إلى جيل البعثة النبوية، أي إلى جيل العقدين الثاني والثالث من القرن السابع للميلاد. إنه هو شخصياً على الرغم من كونه، كما نفهم من ابن حبيب، واحداً من شيوخ القبائل المتنفذين في شرق الجزيرة العربية^(٤١)، ليس له اتصال مع النبي، وهو وضع طبيعي منذ أن كانت عائلة مرثد التي ينتمي إليها هي واحدة من أبرز العائلات المؤيدة للإمبراطورية الفارسية في البحرين؛ وقد تزعمت هذه العائلة ممثلاً بشريح بن ضبيعة، الملقب بالحطم، حملة عسكرية واسعة النطاق لإنهاء النفوذ الإسلامي هناك وإعادة المنطقة إلى حظيرة الفرس^(٤٢). لكن مع ذلك، تكتسب الإشارات المتعلقة بشيوخ معاصرين لحرمان مغزى خاصاً في صدد ما نحن فيه. فحرمان له اسم في سجل أيام العرب، إذ يذكره مؤرخو الأيام في ثلاث مواجهات كبيرة كلها حدثت مع تميميين^(٤٣)، ويزر من قادة تميم فيها كل من قيس بن عاصم والأهتم سنان بن سمي وفديكي بن عبد المنقريون: ابن قيس بن عاصم كان من أبرز صحابة النبي (ص) فيبني تميم^(٤٤)، والأهتم لم تكن له صحبة على ما يبدو، لكنه قاتل في يوم الكلاب الثاني^(٤٥)، وكان ذلك بعد مبعث النبي

(٤١) كان من أخذ المرباع في الجاهلية (المخبر، ص ٤٦٣).

(٤٢) انظر الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير ١٩٣٠ هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق، ١٩٠١-١٩٧٩، Leiden 1879-1901 de Goeje M.J. and others، مسلسلة ١، صص ١٩٦٠-١٩٦١؛ وقارن البلاذرى، فتوح البلدان، تحقيق صلاح المنجد، القاهرة ١٩٥٦-١٩٥٧، ص ١٠١؛ ابن أثيم (أبو محمد أحمد بن أثيم الكوفي ١٩٦٨-١٩٥٧)، (الفتوح)، حيدرآباد ١٩٦٨-١٩٥٧، صص ٤٥-٧، ٤٨، ٤٩؛ الكلاع البلنسى (أبو الربيع سليمان بن موسى ٦٣٤ هـ)، تاريخ الردة (مجتزأ من كتابه: الاكتفاء بما تضمنه من مفازى المصطفى ومفازى الخلفاء)، تحقيق خورشيد أحمد فارق، نبولىوى ١٩٧٠، صص ٦-١٣٥.

(٤٣) وهي أيام جدود، والنباج وثيثل، والزويرين؛ انظر: نفانض جرير والقرزدق، تحقيق Bevan, A.A., Leiden 1905-7 (الفارس)؛ ابن الأثير (عز الدين على أبو الحسن بن محمد ٦٣٠ هـ)، الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٥-١٩٦٧، ج ١، ص ٦٠٤-٦.

(٤٤) عينه النبي (ص) على صدقات واحد من التجمعين الرئيسين داخلبني سعد التميميين، وهو 'مقاعص والبطون' (أغانى)، ج ١٤، ص ٧٦؛ الطبرى، مسلسلة ١، صص ٩-١٩٠٨.

(٤٥) النفانض، صص ١٤٩-١٥٥.

(ص)^(٤٦)؛ أما فدكي بن عبد فقد ظهر ابنه مسمر ظهوراً واضحاً في أحداث الحرب الأهلية الأولى في الخلافة الإسلامية ولقي مصرعه بعد ذلك في معركة النهروان في سنة ٣٨ هـ (٦٥٩/٦٥٨)^(٤٧). أيضاً معلوماتنا عن بعض فرسان القبائل العاملين جنباً إلى جنب مع حمران في تلك المواجهات لها دلالتها هي الأخرى. فأشهر هؤلاء الفرسان هو الحارث بن شريك^(٤٨)، الملقب بالحوفزان، ووالد الحوفزان هذا، شريك بن عمرو، كان، كما نفهم من ابن الكلبي، قد كلفه النعمان بن المنذر قيادة القوة المنوط بها حفظ الأمن والنظام في مدينة الحيرة^(٤٩).

أيضاً ما نملمه من معلومات عن أبناء عم عبد عمرو بن بشر لاحاشير إلى الاتجاه نفسه. فللشاعر الأعشى ميمون بن قيس، وهو، مثل طرفة وعبد عمرو، ينحدر من ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، هجاء مدقع في أولاد شرحبيل بن عمرو ابن مرثد، وهو يخص بالذكر ضبيعة ووانلا^(٥٠). طبعاً كان الأعشى من رجال أواخر القرن السادس وأوائل السابع للميلاد، وإذا صع خبر وفاته على النبي بالمدينة^(٥١)، فإن حياته تكون قد امتدت إلى نهاية العشرينات من القرن السابع. ومهما يكن من أمر فإن معاصرة أبناء شرحبيل ابن عمرو بن مرثد للأعشى تعني في الوضع الطبيعي أن أبناء بشر بن عمرو بن مرثد، ومنهم عبد

(٤٦) كان يوم الصفقة من مقدمات يوم الكلاب الثاني، ويقول ابن الأثير: كان يوم الصفقة وقد بعث النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو بمكة بعد لم يهاجر (تاریخ، ج ١، ص ٢٠٦٢).

(٤٧) الطبراني، سلسلة ١ (الفهارس).

(٤٨) انظر أخباره في النقائض (الفهارس).

(٤٩) ولـ شرطة المنذر والنعمان من بعده (أبو منذر هشام بن محمد بن السابـ ت ٢٠٤ هـ، جمهرة النسب، تحقيق ناجي حسن، بيروت ١٩٨٦، ص ٥١٦). اقتبسه Kister, M.J., "Al-hira: some notes on its relations with Arabia". *Arabica* (٣) ١٩٦٨، p. ١٥٩, note ٣. وانظر أيضاً الميداني، مجمع الأمثال، رقم ٣٦١ (ج ١، ص ١٢٣).

(٥٠) اليوان، تحقيق محمد محمد حسين، بيروت ١٩٨٣، قصيدة ٤٤.

(٥١) يأتي ذلك في سياق قصيدة منسوبة إليه في مدح النبي عليه السلام (السابق، قصيدة ٧١).

عمره، كانوا هم أيضاً معاصرين له.

هناك زعيم قبلي آخر يظهر بوضوح في شعر طرفة، ومعلوماتنا عنه - مع أنها قليلة جداً - تشير أيضاً من غير شك إلى انتمامه إلى أواخر القرن السادس وأول السابع من التاريخ الميلادي. إنه قتادة بن مسلمة/سلمة الحنفي الذي يمدحه طرفة بقصيدة يرويها الأصمعي وتنتهي ببيت حاز على إعجاب البلاغيين على مر العصور^(٥٢). كان قتادة، بالإضافة إلى نفوذه الواسع في منطقة اليمامة^(٥٣)، شاعراً هو الآخر، إذ يسجل له أبو تمام في حماسته قصيدة قصيرة نسبياً يتحدث فيها عن بعض حروبها معبني تميم^(٥٤). هذه القصيدة مهمة في هذا السياق من حيث أنه يذكر فيها. "سراء آل مقاعس" بوصفهم قادة الجماعات التميمية المعادية^(٥٥)، إذ ابن بنى مقاعس كانوا مغمورين تماماً قبل أن يظهر فيهم قيس بن عاصم وفديكي بن عبد والأهتم^(٥٦)، وهؤلاء نشطوا جميعاً، كما مر؛ قبل قليل، في العقود الأولى من القرن السابع للميلاد. إن هذا التحديد لهوية "آل مقاعس" في شعر قتادة يتفق مع رواية نادرة مدونة في كل من أمثل الميدانى^(٥٧) ومعجم

(٥٢) فسقى بلادك غير مفسدتها صوب الربيع وديمة تهمي

(الديوان، قصيدة ٧). ومناسبتها أن قوم طرفة؛ "أصابهم سنة فأتوا قتادة فأحسن عطيتهم".

(٥٣) يرد اسمه في قائمة الجرارين (ابن حبيب، المجر، ص ٢٥٠).

(٥٤) المرزوقي (أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن ٤٢١ هـ)، شرح ديوان الحمسة، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، بيروت ١٩٩١، قصيدة ٢٥٨.

(٥٥) قاتلتهم حتى تكافأ جمعهم والخيل في سبل الدماء تعوم
إذ تتقدى بسراء آل مقاعس حذر الأسنة والسيوف تميم

(٥٦) كانت زعامة بنى سعد من قبل في يد بنى عوف بن كعب (قارن: ديوان أمرىء القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٥٨،

قصائد: ١٩٧٢، ٢٠١). Kister M.J., "Mecca and Tamim (Aspects of their relations . Journal of the Economic and social history of the Orient, viii (1965). PP 154f. Irsan Ramini, *The Tribe of Tamim and the origins of the early crisis in the Caliphate*. Ph.D.thesis, Cambridge Uni. 1989. p. 17f.

(٥٧) مجمع الأمثال، ج ٤، ص ٤؛ (اقرأ قتل فيه قيس بن عاصم قتادة بن مسلمة الحنفي").

ياقوت^(٥٨) تخبرنا أن قتادة بن مسلمة لقي مصرعه يوم الستار على يد قيس بن عاصم المنقري. ودليل آخر على تعين الفترة التي نشط فيها قتادة يمكّن أن يتلمس في شعر لليد بن ربيعة العامري يرثي فيه جماعة من بنى عامر بن صعصعة قُتلوا، كما يقول ابن منظور، في حرب مع قتادة بن مسلمة الحنفي^(٥٩)؛ ومعلوم أن ليبدأ كان من شعراء العقود الأولى من القرن السابع للميلاد وقد صحب النبي (ص) وعاش طويلاً بعده^(٦٠). إضافة إلى ما سبق، يرى الإخباريون في معرض حديثهم عن مطاردة ملك الحيرة للحارث بن ظالم المري^(٦١) أن هذا الأخير دخل مرة في جوار قتادة بن مسلمة؛ ونفهم منهم أيضاً في معرض حديثهم عن حرب داحس والغبراء أن قتادة بن مسلمة كان من بين الشيوخ الذين استجار بهم بنو عبس حين كان هؤلاء يطوفون بالقبائل بحثاً عن الحماية في أعقاب مقتل حذيفة بن بدر الفزاري في يوم الهباء المشهور. إن الإشارة إلى هذه الأحداث تبدو مهمة هنا من حيث إنها جمِيعاً وقعت في عهد النعمان بن المنذر^(٦٢).

بالإضافة إلى عبد عمرو بن بشر وقتادة بن مسلمة، يذكر طرفة بصورة عابرة أسماء زعماء قبليين آخرين معاصرین له كما هو واضح من سياق الشعر؛ وإذا صح تقديرنا بخصوص هويتهم، فإنهم هم الآخرون يكونون قد نشطوا عشية الإسلام. إن أسماءهم ترد في قصيدة نونية لطرفة بقى منها خمسة أبيات فقط^(٦٣)، وهي تجري على النحو التالي:

(٥٨) معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٨٢-١٧٢ (قارن ج ٢، ص ١٩٦-٢٠٠).

(٥٩) لسان العرب، مادة: منذر.

(٦٠) (ديوان ليدي)، تحقيق إحسان عباس، الكويت ١٩٦٢، ص ١١.

(٦١) أخبار هذه المطاردة يرويها أبو الفرج في إيهاب شديد (أغاني) ج ١١، ص ٩٤-٩٥.
(٦٢) .

(٦٣) أولاً، رواية مقتل الحارث بن ظالم في عهد النعمان هي رواية كل من البصريين والkovفيين (أغاني ج ١١، ص ١٢٠-٣)، وثانياً، مقدمات حرب داحس والغبراء نشأت في بلاط النعمان، وفقاً لرواية نادر لكتها صحيحة يذكرها البلاذري (أنساب الأشراف)، ج ٢ (مخطوط)، ص ١١٢٢-١٠؛ وانظر ١٩-٢٠ (Raminini, *Origins of crisis*, pp. ٨٧-١١٢).

(٦٤) الديوان، قصيدة ٨٧.

أبلغ سراة بنى بكر مفلقة فجدع الله من آذانها الينا
عنيت ثعلبة العجلی مالکة عند الحوادث إذ ألى وإذ غبنا
والمرء قيساً يرى نواحية بعثت تبكي لميت ولا تبكي به شجنا
وهانئاً هانئاً في الحسبي موسمة ناطت سخاباً وناطت فوقه ثكنا
ما دافعوا فيرى فيهم مكانهم ولا سمعنا لها من ذكرها حسنا

لا يحاول محققاً ديوان طرفة تحديد هوية "سراة بنى بكر" (ثعلبة وقيس وهانئ) المذكورين في هذه الأبيات، سوى أنها يفسران "ثعلبة العجلی" بقولهما: "ثعلبة العجلی: بنو ثعلبة من أجداد طرفة"^(٦٤)؛ وهذا أيضاً ما يقوله على الجندي "ثعلبة العجلی: يقصد بنى ثعلبة وهو أحد أجداد طرفة"^(٦٥). لكن طرفة ليس من بنى عجل، ثم هو لا يومي، كما يبدو، إلى عشائر، بل إلى أفراد بكر بن وائل. إن تاريخ هذه القبيلة كما وصل إلينا لا يعرف زعيماً مشهوراً باسم ثعلبة إلا ثعلبة بن سيار العجلی، المذكور في مواطنين من قصيدة منتخبة من قصائد الشعر الجاهلي منسوبة إلى المفضل التكري، من عبد القيس^(٦٦). ويورد ابن دريد أحد هذين المواطنين، ثم يقول معلقاً "يريد ثعلبة بن سيار.... وهو صاحب قبة ذي قار"^(٦٧). إذا صح ذلك فمن المرجح جداً أن يكون قيس وهانئ المذكورين هنا في شعر طرفة هما قيس بن مسعود الشيباني، أشهر زعيم بكري على الإطلاق في عصره، وهانئ بن قبيصة الشيباني، ولكليهما -كما هو حال ثعلبة بن سيار- علاقة وثيقة بيوم ذي قار؛ هذا اليوم يعود تاريخه، كما نعرف، إلى ما بعد إقصاء النعمان بن المنذر عن عرش الحيرة في عام ٦٠٤/٦٠٢ م.

(٦٤) السابق، ص ١٩٨ حاشية ٢.

(٦٥) ديوان طرفة، بيت ٧، ٩ (ص ٢٣٢).

(٦٦) الأصمعي (أبو سعيد عبد الملك بن قریب ٢١٦ هـ)، (الأصمعيات)، تحقيق أحمد محمد شاكر و عبد السلام هارون، بيروت ١٩٦٣، قصيدة ٩٦، البيتان ٣٤، ١٨.

(٦٧) جمهرة اللغة، حیدر أباد ١٣٤٥ هـ، ج ٣، ص ٥٠٣. ويسمه ابن حزم ثعلبة بن حنظلة بن سيار (جمهرة أنساب العرب، ص ٣١٢)، ولعل هذا يفسر تسمية صاحب قبة ذي قار في بعض المصادر بـ "حنظلة بن سيار".

ليس فقط سجل الشخصيات القبلية في شعر طرفة هو الذي يبين أن الشاعر ينتمي إلى أواخر القرن السادس للميلاد، بل أيضاً يتضمن شعره أدلة أخرى على ذلك، وبالتحديد في قصيدتين: الأولى رائية موجهة إلى "عمرو ابن هند"، وفيها تحرىض على الأخذ بثار أمير لخمي يكفي "أبا حسان"^(٦٨)؛ والثانية قصيدة الصادية التي يهاجم فيها الحيرة وبعض حلفائها من القبائل^(٦٩). في حديثهم عن مناسبة القصيدة الأولى، يقول شراح شعره ابن أبا حسان المذكور فيها هو عمرو بن أمامة، وهو أخ غير شقيق لعمرو بن هند، وإنه كان قد وقع بينه وبين هذا الأخير خلاف على السلطة في الحيرة، بحيث انتهى به الأمر إلى أن ذهب إلى اليمن واستعلن بملكها الحميري، فأرسل هذا معه جماعة من مراد عليهم هبيرة بن عبد يغوث، الملقب بالمشوش. لكن المراديين، كما يقول الشراح، ثاروا به وهم في الطريق إلى العراق وقتلوه في واد يقال له قضيب من أرض قيس عيلان، فقال طرفة هذه القصيدة يرثيه ويحرض عمرو بن هند على الأخذ بثاره^(٧٠). وكان طرفة حين رافق عمرو بن أمامة في رحلته تلك إلى اليمن، كما تقول القصة، قد أودع ماله عند عمرو بن قيس بن عامر الشيباني، الملقب بالأصم^(٧١).

مهما يكن من أمر الاضطراب الظاهر حتى في الخط العريض لقصة مناسبة القصيدة كما هو مبين أعلاه^(٧٢)، فإن القصة بشخصياتها المسماة فيها،

(٦٨) الديوان، قصيدة ٤١.

(٦٩) الديوان، قصيدة ٥٦.

(٧٠) القصة في أكثر صورها تفصيلاً يرويها الأبنباري (أبو بكر محمد بن القاسم ٣٢٨ هـ)، شرح القساند السابع الطوال، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٩، ص ١١٧-١٢١؛ وانظر أيضاً: المرزباني، (معجم الشعراء)، ص ١٢؛ ياقوت، معجم البلدان، مادة: قضيب، مرجح.

(٧١) السابق.

(٧٢) انتهى الحكم الحميري في اليمن في أوائل العشرينات من القرن السادس للميلاد، وحين عاد الحميريون إلى الحكم لفترة قصيرة نسبياً، بعد طرد الأحباش في أواسط السبعينيات من ذلك القرن، كانوا يعملون تحت وصاية الفرس، وبالتالي لم يكونوا ليؤيدوا ثورة ضد الحيرة.

وبالتحديد هبيرة بن عبد يغوث المرادي وعمرو بن قيس الشيباني، لا تتفق زمنياً مع فترة عمرو بن المنذر الثالث، بل مع فترة النعمان بن المنذر. هبيرة المكشوح، الذي تدعي القصة أنه قتل عمرو بن أمامة، يرد ذكره في أخبار يظهر منها أنه كان على صلة وطيدة بيزيد بن عبد العذان الحارثي^(٧٣). إن يزيد هذا، بالإضافة إلى أنه من مددوحي الأعشى ميمون بن قيس^(٧٤)، كان من قادة الجيش اليمني في يوم الكلاب الثاني، الذي وقع في العقد الثاني من القرن السابع للميلاد، وفي بعض الروايات أنه قتل في ذلك اليوم^(٧٥)، لكن كتب الصحابة تذكره بين أعضاء وفد نجران إلى النبي (ص)^(٧٦). أيضاً كان المكشوح متزوجاً من اخت عمرو بن معدى كرب الزبيدي^(٧٧)، وهذا الأخير أدرك النبي وشهد فتح الشام والعراق^(٧٨). ودليل آخر على الجيل الذي ينتمي إليه هبيرة هو أن ابنه قيس بن المكشوح، وكان سيداً مرموقاً جداً، نشط في عصر النبي وخلافة الراشدين. فقد كان من زعماء أهل اليمن الذين أعلنوا ولاءهم للنبي ثم ارتدوا، لكنه ثاب إلى الإسلام، وشارك بعد ذلك في عمليات الفتح في كل من العراق والشام، واستقر به المقام في الكوفة، ثم شهد صفين مع علي بن أبي طالب وقتل في المعركة في سنة ٣٧ هـ (٦٥٨ م)^(٧٩).

(٧٣) انظر الأغاني، ج ١٢، ص ٥ - (في بعض المواطن يتغير الاسم إلى قيس بن المكشوح، وهو تصحيف كما يبدو أو تداخل في الرواية (قارن ما سألني)).

(٧٤) الديوان، قصائد: ٢٢: ٣٢، ٤٧: ٣٢، ٤٢.

(٧٥) أغاني، ج ١٦، ص ٣٢٩ -. وتذكر له المصادر أيضاً مجموعة من الأخبار مع معاصرين للنبي (ص)، مثل: دريد بن الصمة، وعامر بن الطفيلي، وقيس بن عاصم (المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٥-٣٩، ج ١٢، ص ٩-١٠ ، على التوالي).

(٧٦) ابن حجر (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ٦٥٢ هـ/ ١٩٠٧ م)، (الإصابة في تمييز الصحابة)، القاهرة ١٩٠٧، ج ٦، ص ٣٤٥ .

(٧٧) خزانة الأدب، ج ١٠، ص ٢١٠.

(٧٨) انظر أخباره في الأغاني، ج ١٥، ص ١٥ -.

(٧٩) لمزيد من التفاصيل حول هذه النشاطات، انظر الطبرى (الفهارس).

أيضاً تشير الأخبار الخاصة بعمرو بن قيس الشيباني^(٨٠)، الذي يقال إن طرفة استودعه ماله، إلى أنه بالفعل كان، كما تتضمن القصة، معاصرًا لهبيرة بن عبد يغوث. فهو من جانب، له ذكر في أراجيز الأغلب العجلسي (الشاعر المخضرم)^(٨١)، ومن جانب آخر، تسجل له روايات أيام العرب نشاطات تعود في تاريخها إلى زمن البعثة النبوية^(٨٢)، ومن جانب ثالث، ظهر ابنه مفروق بن عمرو على مسرح الأحداث عشية حركة الفتح الإسلامي^(٨٣)، وكان واحداً من الشيوخ البكريين الذين قاوموا نفوذ المدينة في شرق الجزيرة العربية^(٨٤).

أما قصيدة طرفة الثانية فهي تحتوي على دليل من نوع مختلف، لكنه لا يقل أهمية عما سبق. فهذه القصيدة، كما مر قبل قليل، تتوجّح ثورة على الحيرة وعلى الجماعات القبلية المتحالفة معها في هجر، وفي خضم هذه الثورة يحذر طرفة "أهل المشقر والصفا" من انتقام قومه ويسميهم "عبد أسبد"^(٨٥):

خذوا حذركم أهل المشقر والصفا عبد أسبد والقرص يجزي من القرص

(٨٠) له ترجمة في: المرزباني: معجم الشعراء، ص ٣٨؛ الأmedi (أبو القاسم الحسن بن بشر ٣٧٠ هـ)، المؤتلف والمختلف، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة ١٩٦١، صص ٢٥١-٢٥٣.

(٨١) انظر: (القانص) (راجع الفهرس)؛ ابن الأثير: تاريخ، ج ١، صص ٦٠٤-٦٠٦ (لاحظ أسماء بعض الشيوخ المذكورين في هذه النشاطات: حمران بن عبد عمرو، والحوفزان بن شريك، والأعشى).

(٨٢) ابن الأثير تاريخ، ج ١، ص ٦٠٥؛ قارن القانص، ص ٢٤٥.

(٨٣) السابق، ج ١، صص ٦١٢-٣ (خبر يوم الإياد).

(٨٤) الطبراني، سلسلة، ١، ص ١٩٧٣.

(٨٥) رواية "بني عمنا" محاولة واضحة لتفطيم ما توهمته بعض الدوائر من أن طرفة يشير إلى عقيدة وثنية (انظر ما سيلتي)؛ على الأقل، "بني عمنا" لا تتفق مع السياق، ويشتبه ابن الجواليقي روایة "عبد أسبد"، ويشير إلى روایة أخرى هي "عبد العصا"، لكنه لا يشير إلى "بني عمنا" (موهوب بن أحمد ٥٤٠ هـ، المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المجمع، تحقيق أحمد محمد شاكر، طهران ١٩٦٦، ص ٣٩). من جانب آخر، ينفل درية الخطيب/لطفي الصقال أن يشيرا في التحقيق إلى روایة "عبد أسبد"، مع أن الجندي يشير إليها في تحقيقه للبيت.

تختلف المصادر في تفسير كلمة "أسبد" الواردة في البيت: فرأى يذهب إلى أن أصلها "أسب" ثم زيدت الذال تعربياً، وهي كلمة فارسية معناها الفرس أو البرذون، والمراد هنا قوم من أهل البحرين كانوا يعبدون الخيل؛ ورأى ثان يفيد أن "أسبد" قرية، ثم ينقسم أصحاب هذا الرأي إلى فريق يقول إنها قرية في البحرين وفريق آخر يجعلها قرية في عمان^(٨١)؛ ورأى ثالث يمثله أبو عمرو الشيباني وأبو عبيدة ونفهم منه أن "أسبد" هو اسم لقائد من قواد كسرى على البحرين وأن أفراد المسلحة الفارسية التابعة له، ومقرها المشقر، كانوا يسمون الأسابد^(٨٢). من الواضح أن الرأي الأول في "عبيد أسبد" يحاول تفسير العبارة تفسيراً معجيناً كما هي في أصل اللغتين الفارسية والعربية، لكنه في الوقت نفسه يفتقر إلى رؤية تاريخية محددة وأيضاً يغفل حقيقة أن طرفة يخاطب هنا العناصر العربية المتحالف مع الحيرة في البحرين ولا يوجد ما يشير إلى أن هذه العناصر كانت تعبد الخيول أو البراذين. أما الرأي الثاني فإنه لا يقيم وزناً للارتباط في بيت طرفة بين "عبيد أسبد" من ناحية المشقر والصفا من ناحية ثانية، وهو ارتباط ظهر مرة أخرى في شعر منسوب إلى مالك بن نويرة السيربوسي (صحابي)^(٨٣). إن الرأي الثالث، في المقابل، يبدو معقولاً ومقنعاً تماماً، ثم هو

(٨٦) بخصوص الرأيين، انظر ياقوت، معجم البلدان، مادة: أسبد.

(٨٧) وأسبد: قال أبو عبيدة اسم قائد من قواد كسرى على البحرين (الجواليقي، المعرَّب، ص ٣٩)؛ قال أبو عمرو: الأسابد قوم من الفرس كانوا مسلحة المشقر (السابق، ص ٤٠)؛ أسبد اسم ملك كان من الفرس ملكه كسرى على البحرين فاستبعدهم وأذلهم، وإنما اسمه في الفارسية أسبيدويه، يريد الأبيض الوجه، فعرّبه طرفة (ياقوت، ومعجم البلدان، مادة: أسبد (رواية أبي عمرو الشيباني)).

(٨٨)

أرى كل بكر ثم غير أبيكم وخالفتو حجنا من للرؤم حيدرا
لبي أن يرمي الدمر وسط بيوتكم كما لا يرمي الأسيدي المشقرا

(ياقوت، معجم البلدان، مادة: أسبد) على أية حال، لا يتناقض هذا الرأي بالضرورة مع ما يقوله أبو عمرو وأبو عبيدة، إذ ربما أنس هؤلاء الأسابد فيما بعد قرية سميت باسمهم.

معزّزًأً أيضًا. فبالإضافة إلى أن له تمثيلًا في كل من البصرة والكوفة، فإنه يجد ما يؤيده في حديث مرفوع إلى ابن عباس يفيد أن الأساذذ هم قوم من مجوس البحرين، وأن مندوبياً عنهم قدم إلى المدينة للتفاوض مع النبي حول طبيعة العلاقة التي ستربطهم بال المسلمين^(٩١). إن هذا يتنقّل مع الخط العريض لتاريخ المنطقة آنذاك، فقد انقسم حكام البحرين الفرس بين مؤيد للنبي (ص) ومعارض له، معتبرين بذلك عن تأثيرهم بحالة نزاع شديد على السلطة عصفت بالبلاد الفارسي في أعقاب اغتيال كسرى أبوريز في سنة ٦٢٨ م^(٩٠). الآن، إذا كان طرفة يشير في البيت السابق إلى قائد المسلحة الفارسية المرابطة بالمشقر، فلا بد أن يكون قد نظم قصيدة تلك بعد تولي كسرى أبوريز السلطة في فارس في سنة ٥٩١ م. ذلك أن أبوريز هذا قبل أن يقصي اللخميين عن الحكم في الحيرة ويوضع المدينة تحت رقابة فارسية مباشرة في مطلع القرن السابع للميلاد كان قد اتخذ هذا الإجراء نفسه في المشقر التي كانت حتى ذلك الوقت تحكمها كندة لصالح الفرس^(٩١).

إذن، تشير كل الأدلة الممكنة في شعر طرفة بن العبد إلى أن هذا الشاعر ينتمي، في حقيقة الأمر، إلى عصر النعمان بن المنذر، ومن ثم تؤكد أن عمرو بن هند المذكور في شعره والمسؤول، حسب المصادر، عن مقتله إنما هو عمرو بن المنذر الرابع، وليس عمرو بن المنذر الثالث. بقى أن نقول إن المعلومات المتعلقة بطرفة من خارج شعره تكاد تتحصر في قصة مقتله، وهي قصة يختلف الإخباريون في بعض تفاصيلها، بالإضافة إلى ما يعتريها من عناصر القصص الشعبي. لا توجد بين أيدينا وسائل علمية يمكن بها أن نفحص

(٩١) يقول ابن عباس جاء رجل من الأسدذيين من أهل البحرين. وهم مجوس أهل هجر، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمكث عنده ثم خرج، فسألته: ما قضى الله ورسوله فيكم؟ قال: شرًا! قلت: مه؟ قال: الإسلام أو القتل. (البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي ت ٥٨٤ هـ)، (العنن الكبير، حيدر آباد ١٣٤٤-١٣٥٦ هـ)، ج ٩، ص ١٩٠).

Frye, R.N., "The Political history of Iran under the Sasanians". *The Cambridge history of Iran*, Cambridge 1983, 3/1, pp. 170-1.

(٩١) انظر عرسان الرامياني، "حلقة مفقودة في تاريخ مملكة كندة (يتوقع نشره في وقائع المؤتمر العلمي الثاني لجامعة صلاح الدين، أربيل، العراق).

هذه القصة، لكن تجدر الإشارة إلى أنها لا تحتوي على معلومات تتعارض مع نتيجة هذا البحث. في الواقع، تبدو بعض التفاصيل مساعدة تماماً. فالرواية، مثلاً، يختلفون في تسمية من يصفونه بأنه عامل عمرو بن هند على البحرين، أي الذي قيل إنه تسلم صحيفة طرفة ونفذ أوامر الملك، وهم يذكرون هنا أسماء ثلاثة من العرب وفارسي واحد هو فروز/فiroz بن جشنس/جشيش، الملقب بالمكعبير. إن المصادر لا تساعد في التعرف على أي من الشخصيات العربية الثلاث^(٩١)، أما المكعبير فقد بُرِز اسمه في بعض الأحداث المهمة في شرق الجزيرة، وهذه الأحداث وقعت في زمن البعثة النبوية، وهي تحديداً يوم الصفقنة المشهور^(٩٢) وحرب الردة^(٩٣). على أن قصة مقتل طرفة في البحرين ربما تكون برمتها غير صحيحة، على الرغم من أنها تمثل الرأي السائد في المصادر. فابن خلكان يخبرنا في رواية فريدة أن عمرو بن هند بعث طرفة والمتمس بالصحيفة إلى الحيرة، وليس إلى البحرين^(٩٤). أي أنه بعثهما إلى صاحب سلطة أعلى يقيم بالحيرة، وهو في هذه الحالة ينبغي أن يكون النعمان بن المنذر. وهذا يبدو أن لدينا أساساً كافياً للاعتقاد بأن قصة نهاية حياة طرفة تعني أن الشاعر لم يتم قبل نهاية القرن السادس للميلاد.

(٩٢) فقط المعلى بن حنش من بين هؤلاء يمكن أن يكون له صلة بالجارود العبيدي، الصحابي المشهور. فابن حزم يذكر أن اسم الجارود هو أبو غيث بن حنش بن المعلى (جمهرة أنساب العرب، ص ٢٩٦)؛ وينظر ابن دريد في (الاشتقاق) (ص ٣٠٦) أن اسم الجارود هو بشر بن المعلى؛ لكنه يذكر في (جمهرة اللغة) (ج ٢، ص ٨٥) أن اسمه بشر بن عمرو بن المعلى.

(٩٣) الطبرى، سلسلة ١، صص ٩٨٤-٨.

(٩٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٠٣. وقد ظهر المكعبير أيضاً في أحداث فتح فارس بعد ذلك ببعض سنوات (الطبرى، سلسلة ١، ص ٢٦٩٩).

(٩٥) ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد ١٦٨١ هـ)، وفيات الأعيان وأئمأة أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨-١٩٧٢، ج ٦، صص ٩٢-٣.

إن غالبية الشعراء الجاهليين المشهورين يشتغلون مع طرفة بن العبد في أن لهم أخباراً مع كل من عمرو بن هند والنعمان بن المنذر، وهي أخبار تؤكدها الأشعار المنسوبة إليهم. على أن الفرق بينه وبينهما هو أن حياته انتهت على يد عمرو بن هند؛ ولما كان الإخباريون قد اعتقدوا أن هذا الأخير هو ابن المنذر الثالث، أصبح من الصعب على الدارسين أن يقتنعوا بصحبة الإشارات القليلة الخاصة بصلة طرفة بالنعمان، فرفضوها أو أهملوها تماماً. حتى جامعو شعر طرفة من القدماء أسقطوا لهذا السبب كما يظهر تلك الأشعار التي يذكر فيها طرفة النعمان بن المنذر، مع أن بعضها يبدو حقيقة جداً، في الأقل لأنه يحتوي تفاصيل قليلة بزخم لا نجد لها في أي موطن آخر في ديوانه. أما الشعراء الآخرون فسجلاتهم تخلو من أية إشارة مباشرة تحول دون قبول ما يروى عن علاقتهم بكلتا الشخصيتين اللخميتين. لذا كان من الطبيعي أن يؤدي هذا الوضع إلى ظهور تصورات غير دقيقة، ليس فقط على صعيد الارتباط السياسي للشعر الجاهلي، بل أيضاً على صعيد تحديد الأطر الزمنية لحيوات الشعراء ذوي العلاقة؛ لقد دخلت أسماؤهم جميعاً إلى قائمة "المعمررين"، أي الذين جاوزت أعمارهم التسعين عاماً. إن هذا، مرة أخرى، مبرر تماماً: فالشاعر الذي استطاع أن يحقق شهرة أدبية واسعة وكذلك نفوذاً قليلاً كبيراً، بحيث يكون في موقع يؤهله للاتصال بيلات عمرو بن المنذر الثالث في الخمسينات من القرن السادس للميلاد، فمن المتوقع أن يكون قد ولد في أوائل ذلك القرن إن لم يكن قبل ذلك؛ وما دام قد عاصر أيضاً النعمان بن المنذر، الذي انتهت حياته قسراً في بداية القرن السابع، فمن البديهي إذن أن يوصف شاعر من هذا القبيل بأنه من "المعمررين"، أو من "الذين طعنوا في السن". فالحارث بن حلزة "كان من المعمررين"، وأيضاً "عمرو بن كلثوم من المعمررين، ولعله أوفى على المنة"، وزهير بن أبي سلمي "عمر طويلاً"، وعلقمة بن عبدة "عاش حتى عاصر النعمان أبو قابوس وعمر بعد ذلك طويلاً" وكذلك عنترة "عمر طويلاً"، والمتمس "عاش حتى أسن"، وبشر بن أبي خازم قتل "بعد أن أسن كثيراً فيما يبدو"، والنابغة الذبياني "قد

^(٦١) أحسن جداً، وعبد قيس بن خفاف البرجمي "عاش، حتى طعن في السن".

ومع ذلك لم يكن ممكناً، على الأقل من الناحية الفنية، أن نوظف أي واحد من هؤلاء الشعراء كما وظفنا طرفة، في الوصول إلى ما وصلنا إليه، لأنه من السهل على بعض القراء أن يعتريضاً قاتلين: إن كون نشاطهم المدونة تعود عموماً إلى آخر القرن السادس وأوائل السابع للميلاد لا يشكل أساساً كافياً للالعتماد بأن عمرو بن هند في أشعارهم هو بالضرورة عمرو بن المنذر الرابع، إذ ربما كانوا أيضاً قد عاصروا عمرو بن المنذر الثالث لكن ذاكرة الرواة لم تحفظ لهم بنشاطات تعود إلى تلك الفترة. في حالة طرفة، في المقابل، لن ينشأ اعتراض من هذا القبيل؛ إذ تتفق المصادر على أنه مات شاباً، ولما كانت كل الأدلة تشير إلى أنه كان ينتهي إلى جيل ما قبلبعثة، فمن غير المعقول أن يكون قد عاصر عمرو بن المنذر الثالث أيضاً.

في الواقع، قد يتساءل المرء عما إذا كان عمرو بن المتنر الثالث قد لقبه الناس بابن هند فقط. صحيح أن أمه هي هند بنت ملك كندة المشهور الحارث بن عمرو بن حجر أكل المرار، وهذا ما جعل الإخباريين يظنون أنه هو المقصود حيثما ورد اسم "عمرو بن هند" أو "ابن هند" في التقولات التاريخية أو الأدبية في سياقٍ لخمي. لكن بعض القراء تحمل المرء على الشك حقاً فيما يقال من أنه كان يعزى إلى أمه. فعلى النقيض، مثلاً، من ملك كندة يزيد بن عمرو / شراحيل، الذي ظهر في نقوش شبه الجزيرة العربية ملقباً بابن كبše^(١٧)، فإن عمرو بن

Glasser, E., "Zwei Inschriften über den Dammbruch von Marib" Ein Beitrag zur (۱۷) Geschichte Arabiens im 5. u. 6. Jahrhundert nach Chr. Mitteilungen der وقارن Kister, M. J. "The Vorderasiatischen Gesellschaft, ii (1897), p. 390. Campaign of Huluban: a new Light on the expedition of Abraha". Le Muséeon (*Revue D'études Orientales* Tijdschrift Voor Oriëntalisme), 78 (1965), pp. 434-5. Ramini, *Origins of Crisis*, pp. 15-6.

المنذر الثالث ظهر في هذه النقوش منسوباً إلى أبيه المنذر وليس إلى أمه، هند^(٩٨). أيضاً من المستبعد أن يكون اللقب صادرًا عن خصوصه، وذلك على سبيل الذم والتحقير. فآمه، هند، كانت سليلة ملوك ونسبته إليها لم تكن من ثم لتحقق أغراضاً من هذا القبيل. حتى في غياب هذا المنطق، فإن علاقة الحيرة بالقبائل العربية في عهده، وبالتالي بالشعراء العرب، كانت وطيدة جداً^(٩٩)، بحيث لم يكن يمكن للقب كهذا مقصود به التعرض أن يظهر في الشعر وينتشر. لكن لقب "ابن هند": أولاً، يستعمله الشعراء الجاهليون عادة للتسيير بعمرو بن المنذر، وهم ثانياً يعبرون به عن سخطهم الشديد على الحيرة. إن هذا الوضع يتفق في شقه الأول مع الجانب غير الوقور في قصة هند بنت الأسود الكلبية، الأم المحتملة لعمرو بن المنذر الرابع، ويتفق في شقه الثاني مع حالة الاضطراب الواضح في علاقة القبائل بالحيرة في الجزء الأخير من حكم النعمان بن المنذر.

إن هذا البحث لم يهدف إلى مناقشة "عمرو بن هند" في غير شعر طرفة، لكن صورته في شعره لها الملامع ذاتها في شعر سائر الشعراء الجاهليين، وعلىينا أن نعيش هذا الهاجس حتى تظهر دراسة مستقلة تؤكد أن "عمرو بن هند"، حيثما ورد في الشعر الجاهلي، هو عمرو بن المنذر الرابع.

(٩٨) ظهر اسم عمرو بن المنذر الثالث في موطنيين في النقوش: الأول، في صدر هيكل هند الكبير، ويخبرنا عنه البكري، ونصه: بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر، الملكة أم الأملاك، وأم الملك عمرو بن المنذر، أمة المسيح، وأم عبده، وأمة عبده، في زمان ملك الأملاك خسرو أنوشروان.... (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيزت ٨٧ هـ، معجم ما استجمم من أسماء البلاد والمواقع، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة ١٩٦٧-١٩٠٦)؛ والثاني في نقش يمني يسجل حملة حربية قام بها أيرهه في وسط الجزيرة في سنة ٥٤٢/٥٥٢ م واصطدم هناك بجيش لخمي يقوده عمرو بن المنذر مندوياً عن أبيه Ryckmans, G., "inscriptions Sud-Arabs". *Le Muséon*, 66 (1935), P. 275. Beeston, A. F.L. "Notes on the Mureighan Inscription". *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 26 (1954), P. 437.

(٩٩) انظر الفصل المعقود بعنوان "فِي "Links with the Lakhmids" crisis pp. 29-60.

ابن عقيل الزُّرَعِي

حياته وشعره

الدكتور شفيق محمد عبدالرحمن الرقب
جامعة مؤتة

ترجمته

ضُنِّت المصادر التي وقف عليها الدَّارس بالترجمة لابن عقيل الزُّرَعِي أو بذكره، ما عدا كتاب (عقود الجمان من شعراء هذا الزَّمان) لابن الشَّعَار الموصلي، فقد ورد فيه ترجمة موجزة لهذا الشاعر. وهو في هذه الترجمة أحمد بن عقيل بن نصر أبو العباس الزُّرَعِي العامري^(١)، وزرع^(٢) التي ينسب إليها قرية على باب دمشق.

ولم يُنصَّ ابن الشَّعَار على السنة التي ولد فيها ابن عقيل، غير أنه ذكر أنه توفي شاباً في رمضان سنة ٦٢٣هـ^(٣)، وهذا يقود إلى القول إنه ربما ولد في الربع الأخير من القرن السادس الهجري.

وقد أشار ابن الشَّعَار إلى اتصال ابن عقيل بالملك الأيوبي المعظم عيسى وملازمته له، وذلك إذ يقول: "خدم الملك المعظم عيسى بن أبي بكر، وجعل له رزقاً يتناوله كل شهر، وله فيه مدانع كثيرة وكان ملازماً حضرته سفراً وحضرماً^(٤)".

ولم يظفر الدَّارس بمعلومات أخرى عن حياة الشاعر، ومن ثم فإنه سيعول على الشعر الذي قاله لرسم صورة تقريبية للمعلم البارزة في حياته.

ومن الظواهر البارزة التي يمكن استخلاصها من شعر ابن عقيل نشأته في منطقة حوران، فهو لا يفتَّأ يذكر الأماكن الحورانية في شعره معبراً عن حنينه

إليها، وكيف أنه قضى الأيام الجميلة من عمره فيها، كما في الأبيات التالية التي يتمنى فيها - وهو في مصر - أن يعود إلى بلاده، ذاكراً موضع بعينها^(٥).

تذكّرت في أرض بُؤسِي النَّعيم وبُشْرِي البَشِيرِ بِنْيَلِ الْمَرَادِ
فَمَرَوْ العَلَاءَ إِلَى بَيْتِ رَاسِ فَابْرَدَ فَالْحَصْنَ ذَاتَ الْعَمَادِ^(٦)
بِلَادِ شَوْقَكَ دُونَ الْبَلَادِ فَسَقِيَا وَرَعِيَا لَهَا مِنْ بِلَادِ

ويُستدلّ من شعر ابن عقيل أنه اضطرّ إلى مغادرة ديار الشّام إلى مصر واتخاذها دار إقامة رديحاً من الزمن. ويبدو أن علاقة الشاعر بأبيه لم تكن مستقرّة، وأن صلاته بأقاربه كان يشوبها بعض الكدر، وأنه لم يلق منهم ما كان يأمل فيه من احترام وتقدير، مما لم يمكنه من استمرار الإقامة بينهم، فأثر الهجرة إلى مصر لعله يتجنّب مظنة الإساءة إلى أبيه وذويه من ناحية، وينتشل نفسه من غيابات الخمول من ناحية ثانية. وقد عبر ابن عقيل عن عدم رضاه عن موقف قومه منه في غير ما موضع من شعره، من ذلك قصيدة أرسلها من مصر إلى أخيه في بلاد الشّام، وهي قصيدة دفقة بالعاطفة ولا سيما حين يعرض الشاعر لذكر أبنائه الصغار الذين تركهم في بلاد الشّام، راجياً أخاه أن يكفلهم ويعنى بهم لأنهم بمنزلة الأيتام في غيابه عنهم^(٧):

يَا أخِي يَا جَبِيرَ نَاشِدُكَ اللَّهَ يَا أَنْتَ بِالْعِيَالِ وَالْأَطْفَالِ
وَأَكْفَلَ بِالذِّينَ لَمْ يَلْغِوا الْحَلَ مَ وَلَمْ يَدْرِكُوا حَدُودَ الرِّجَالِ
هُنَّكَ أَنِي قَدْ مَتْ هَلْ لِعِيَالِي فِي جَمِيعِ الْأَنَامِ غَيْرَكَ كَالِي

وتغمر ابن عقيل مشاعر الأنفة وهو يتحدث عن تائب قومه عليه، وعدم إنزالهم إيه منزلة التي تليق به:

هَلْ رَسُولٌ عَنِي يَبْلُغُ قَوْمِي مِنْ عَقِيلِ أُولَى النَّهَى وَالْفَعَالِ
أَنَّنِي غَيْرُ قَاطِنٍ فِي بِلَادِ لَا يَرَاعِي فِي مِثْلِهِ أَمْثَالِي

لستُ أَسِى عَلَى فِرَاقِ بَلَادِ ثُلْبَسُ الْهَرْبَزَةِ الرَّبَّالِ

ويتحدث الشاعر ياسى عن تبدل أبيه عليه وجفوته لأبنائه:

وأَبُوكَ امْرُؤٌ عَلَيْهِ فِرَاقِيْ هِينَ، وَهُوَ لَا يَوْدَعُ عِيَالِيْ
الْمُثْلِيْ يَكُونُ هَجْرَ وَلْقَىْ يَا ابْنَ أَمِيْ يَوْمًا بُوجَهِ مُذَالِ

وقد ظل ابن عقيل مدة إقامته في مصر جواباً على أبواب أولي الأمر من ملوك بنى أیوب وزرائهم وغيرهم من زعماء الصعيد، متكلماً جهاماً الغربية، أملاً في أن يكتسب بشعره مكانة عند ممدوحية. وقد تحقق له شيء من هذا الأمل عندما أذن له الملك المعظم عيسى إليه، غير أن بعض المصريين ربما لم يكونوا راضين عن الشاعر، فاستطار الهجاء بينه وبين بعض شعرائهم، كما سترى فيما يستقبل من هذه الدراسة، مما جعل بعض أصدقائه يُسدي إليه النصيحة بأن يغادر مصر، ويعود إلى أهله ودياره، وفي ذلك يقول ابن عقيل^(٨):

وَقَاتَ خَلَّ مِصْرَا وَالثَّوَاء بِهَا فِيمَ الْمَقَامِ وَلَا أَهْلَ وَلَدٍ
وَقَدْ تَعَطَّلَتْ مِنْ أَشْيَاءِ، قَاتَ لَهُ: مَا ضَرُّ عَطْلَةَ جِيدٌ زَانَهُ الْجِيدُ
تَالَّهُ لَا رَمَتْ عَنْ مِصْرٍ وَلَا وَخَدَتْ إِلَى سَوَاهَا بِرْحَلِي عَرْمَسْ أَجَدُ

ومع أنَّ الأبيات السابقة تصور تسبُّث ابن عقيل بالإقامة في مصر، فإنَّ مشاعر الحنين كانت تلتجء به، فيفقد صلابته التي كثيرة ما تظاهر بها، فتجري على لسانه أبيات الشوق، كما في الأبيات التالية التي قالها سنة ٦٠٨هـ^(٩):

مَعَاهِدُ لَهْوِيْ بِأَرْضِ السَّوَادِ سُقِيتُ أَفْوَيِقَ دَرَّ الْعَهَادِ
وَحِيَا رَبُوعَكَ صَوْبَ الْحِيَا بَغِيَّثُ بَغَاثَ بَهْ كَلَّ صَادِي
لِيَالِي بَهَا مِنْ خَيُولِ الصَّبَا أَرْوَضَ إِلَى اللَّهِ وَصَعْبَ الْقِيَادِ

وكفُ الرَّجاءِ جناها المنى ودوح الرَّضا مثمرٌ بالوالد

وليس من البسيط تعين السنة التي غادر فيها ابن عقيل بلاد الشام إلى مصر، أو تحديد الفترة التي قضتها في مصر تحديداً دقيقاً، بيد أنه يمكن الاستئناس بتاريخ بعض القصائد لرسم إطار تقريبي للفترة التي قضتها الشاعر في مصر. فأول قصيدة وصلت إلينا، مما قاله في مصر، مؤرخة سنة ٦٠٦ هـ^(١٠)، وقد تلاها عدد من القصائد مؤرخة بالسنوات ٦٠٧ و ٦٠٨ و ٦٠٩ هـ^(١١). وربما يصح لنا أن نقول اعتماداً على هذه التواريخ لعل الشاعر كان في مصر في الفترة التي تقع بين سنة ٦٠٦ هـ وسنة ٦١٠ هـ.

ويُستشف من شعر ابن عقيل أنه تلا هذه الفترة التي استقر فيها في مصر فترة من التنقل بين مصر والشام؛ إما ملزماً الملك المعظم عيسى في جهاده وأسفاره، وإما منتجاً ملوك بني أيوب وغيرهم من الأمراء متكتساً بشعره. ولعل هذه الفترة امتدت من سنة ٦١١ هـ إلى سنة ٦١٧ هـ تقريباً؛ ففي سنة ٦١١ هـ أنشد الملك المعظم عيسى قصيدة هنأ فيها بفتح حصن صرخد^(١٢)، وفي سنة ٦١٢ هـ بعث من ظاهر بيت جبرين قصيدة إلى الخليفة العباسى ببغداد مادحاً^(١٣)، وفي سنة ٦١٣ هـ مدح صاحب صدق بعدة قصائد^(١٤)، ومدح في السنة نفسها متولى الطور، كما هنأ بالعيد سنة ٦١٤ هـ^(١٥)، وفي سنة ٦١٥ هـ مدح أحد الأمراء بظاهر دمياط^(١٦)، وفي سنة ٦١٦ هـ مدح الملك المعظم في بانياس^(١٧)، وفي سنة ٦١٧ هـ أرسل من دمياط قصيدة إلى الملك الأشرف شاه أرمن يستحثه على الجهاد، ويصف ما أصاب المدينة على أيدي الفرنجة^(١٨).

ولم يرد فيما وصل إلينا من شعر ابن عقيل قصائد مؤرخة سنة ٦١٨ هـ، غير أنه يلاحظ له نشاط شعري واسع في سنة ٦١٩ هـ، وقد كان هذا النشاط في شمال بلاد الشام والجزيرة^(١٩)، ولعل هذا يشير إلى أن الشاعر كان في تلك الأنحاء سنة ٦١٩ هـ.

وليس في شعر ابن عقيل قصائد قالها سنة ٦٢٠هـ، وربما لم تصل إلينا.
وفي سنة ٦٢١هـ قال - وهو في الجزيرة - بضعة أبيات يصف فيها مطراً
ويرداً^(١). وفي سنة ٦٢٣هـ أو ٦٢٢هـ توفي ابن عقيل بدمشق، ودفن بمقابر باب
الصغير^(٢).

والسياق العام لشعر ابن عقيل يدل على أنه شاعر جوال متkickب، وأنه ظن
أن الشعر هو مفتاح الرزق، لذلك ظل يوالي التنقل على أبواب أولي الأمر
يستجديهم بمدائحه، راجياً أن ينتشلوه من وحدة الفقر وال الحاجة، كما في قوله
مخاطباً الملك الكامل^(٣).

يا ناصر الدين الذي أمامه لا يشتكي العافي بها إلا للا
وافي إليك العameri تقوده الـ أمال يا من ينجح الأمالا
أو هل يجوز لشاعر مثلـي يرى لسواك من هذا الورى تسـالـا

ويتـخذ ابن عـقـيل التـذـلـل وـسـيـلة لـلاـسـتـشـفـاع، فـيـسـتكـثـر ذـكـر حـاجـتهـ، وـحـاجـةـ
أـبـانـاهـ الصـغـارـ، وـغـربـتـهـ عـنـهـمـ كـمـاـ فـيـ قـوـلـهـ مـخـاطـبـاـ الـخـلـيفـةـ الـعـبـاسـيـ^(٤):

مـنـ مـلـغـ عـنـيـ وـإـنـ بـعـدـ المـدـيـ مـنـيـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ سـلامـيـ
قـرـيـ وـعـائـلـتـيـ يـعـوقـانـيـ مـعـاـ مـنـ أـسـيرـ إـلـىـ الـمـقـامـ السـامـيـ

وـتـوـلـدـ لـدـىـ الشـاعـرـ عـنـ هـذـاـ التـنـقـلـ الـمـصـحـوبـ بـالـسـوـالـ إـحـسـاسـ بـعـدـ
الـطـمـائـنـيـةـ، فـبـداـ فـيـ شـعـرـهـ إـنـسـانـاـ قـلـقاـ لـاـ يـسـتـشـعـرـ لـحظـةـ مـنـ أـمـنـ أوـ سـكـينةـ؛ لـذـاـ لـحـ
فـيـ شـعـرـهـ عـلـىـ حـاجـتـهـ إـلـىـ الـمـلـاـذـ الـأـمـنـ وـالـمـدـوـحـ الـذـيـ يـوـفـرـ لـهـ حـظـاـ مـنـ
الـاسـتـقـرـارـ، كـمـاـ فـيـ قـوـلـهـ وـقـدـ اـسـتـقـرـ بـهـ الـمـهـادـ فـيـ ظـلـالـ الـمـلـكـ الـمـعـظـيمـ عـيـسىـ^(٥):

أـرـحـتـ عـيـسـيـ رـجـانـيـ مـذـ وـقـتـ بـهـ لـدـنـ جـنـابـكـ مـنـ أـيـنـ وـمـنـ تـعـبـ
هـذـاـ مـقـامـ أـمـانـ لـاـ يـخـافـ بـهـ أـجـرـ بـهـ خـاتـمـاـ مـنـ دـهـرـ الـأـشـبـ

ولكن الشاعر لا يلبث أن يقع في صراع مزير بين حاجته وبين اعتزازه بنفسه وإحساسه بكرامته، فتند عنه بعض الأبيات التي تصور معاناته النفسية وهو يقف على أبواب المدحدين، كما في قوله مخاطباً الملك الكامل (٢٥):

فَصَنْ بِقَائِمَا ماءِ وجْهِي فَلَقِدْ أَرْفَتْ مِنْهُ بِالسُّؤَالِ مَا كَافَى

ويبدو هذا الصراع أكثر وضوحاً عندما يقتربن بافتخار الشاعر بنفسه، وحديثه عن وحدته، وغربته، وقصوة الدهر عليه (٢٦):

مَنْيَ قَرْبَ الدَّهْرِ لِي وَاحِدًا رَمَانِي الزَّمَانُ بِسَهْمِ الْبَعَادِ
وَذَلِكَ أَنِّي أَهُولُ الزَّمَانَ بِمَجْدِي فَمَا يَأْتِي فِي عَنْدِي
عَلِمْتُ بِهِ وَاغْتَدَى جَاهِلًا لِطَارِفِ مَكْرَمَتِي وَالْتَّلَادِ
فَأَفْرَدْنِي يَبْتَغِي شَفَقَتِي وَابْنُ نِعِيمِي فِي الْانْفَرَادِ
أَنِّي سَيِّدِي كَتَابِي فِي وَحْتِي وَعَزْمِي وَعَضْبِي طَوِيلِ النَّجَادِ

لذلك حث الشاعر نفسه على التجمل بالصبر أملاً في انجلاء عتمة الليل (٢٧):

تَصْبِرْ إِنْ عَقْبَى الْبُؤْسُ نَعْمَى فَأَحْوَالُ الْلَّيْلِ الَّتِي تَسْتَحِيلُ
فَمَا يَجْلُو ظَلَامُ الْهَمِّ إِلَّا ضِيَاءُ الْعَزْمِ وَالرَّأْيِ الْأَصْرِيلِ

وإذا بحثنا في شعر ابن عقيل عن تصور فلسفة في الحياة أو نظرة شاملة لها فإننا لا نظرف إلا بأبيات حكمية، مستمدة من التجربة تصور نظرة غير راضية عن الحياة والأحياء، على شاكلة قوله (٢٨):

والدَّهْرِ إِنْ وَهَبَ اسْتَرْدَ وَإِنْ شَفَىْ أُودِي وَإِنْ صَانَ الْوِجْهَوْ أَدَالَا
لَا النَّاسِ تَصْدَقُهُمْ وَلَا الطَّمَعُ الَّذِي جَبَلُوا عَلَيْهِ يَنْجِحُ الْأَمَالَا
وَالْحَرُّ يَهْدِمُهُ الْمَلَامُ كَمَثْلًا بِالْلَّوْمِ يَزْدَادُ الْلَّثَمَ ضَلَالًا

وهذه النظرة غير الرأضية قد تستحيل في سياق آخر دعوة إلى اهتمال
الفرص للاستمتاع بملاذ الحياة، والاستغراق في اللهو لتناسى الهموم^(٢٩):

فَاشْرَبْ وَجْفَنَ الْحَادِثَاتِ نَيَامَ وَالْعِيشُ غَضْ وَالزَّمَانُ غَرْ
وَصَرْفُ الْهَمِّ بِصِرْفِ شَرِبَهَا بِهِ يَلْذَ الْعِيشُ وَهُوَ مَرْ

ديوانه:

لابن عقيل الزرعى ديوان كتبه بخط يده، ولكن هذا الديوان لم يصل إلينا
كاملًا، وإنما وصلنا مختار منه يقع في تسع وتسعين ورقة. وقد اختاره لنفسه
محمد بن محمد بن شرف الزرعى سنة ٧٤٨هـ، وذكر أنه حذف من الديوان
الأصلي نحو ألف وخمسمائة بيت. ويوجد من هذا المختار نسخة خطية واحدة
محفوظة في (طوبىوسراي) بتركيا^(٣٠)، وعن هذه النسخة يوجد شريط مصور
في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

ويضم المختار من ديوان ابن عقيل الزرعى ثلاثة وتسعين قصيدة
ومقطوعة، غير أن الذي اختار الديوان لم يورد القساند كلها كاملة وإنما كان
يختار من بعضها ما يناسب ذوقه، ومع ذلك فإن هذه القساند المختارة تدل
على المجالات الكبرى لشعر ابن عقيل وتصور سماته الفنية وسأدرس هذه
القصائد ضمن إطارين كبيرين هما:

- الأغراض الشعرية.

- السمات الفنية.

أولاً: الأغراض الشعرية:

١ - المدح: استغرق المدح قرداً كبيراً من الجهد الفني لابن عقيل الزرعى. وقد سبق أن أشرنا إلى أن شاعرنا هذا قد لازم حضرة الملك المعظم عيسى وأن له فيه مدائخ كثيرة، غير أن ذلك لم يكن ليمنعه من مدح آخرين. وبعد مراجعة المختار من ديوانه تبين أن عدد القصائد التي قالها في الملك المعظم تسع عشرة قصيدة، وكانت بقية مدائخه موزعة على عدد آخر من حكام العصر معظمهم من ملوك بني أيوب، مثل الملك العادل والملك الكامل والملك الأмجد بهرام شاه والملك العزيز عثمان. وبالإضافة إلى هؤلاء مدح ابن عقيل الخليفة العباسي بقصيدة أرسلها إليه سنة ٦٦٢هـ، كما مدح عدداً من الوزراء والعمال وذماء القبائل في مصر والشام.

وقصيدة المدح عند ابن عقيل ترسم خطأ قصيدة المدح العربية بتقاليدها المعروفة ولا تكاد تحيد عنها. وكان الشاعر كان يضع أمام عينيه نموذجاً لمثل أعلى ويورد لمدحه من الصفات ما يخيّل به للسامعين أنه كذلك، أخذنا بعين الاعتبار أمرين اثنين: أن يوافِت بين المدح والصفات التي تخلع عليه، وأن يبرز صفة أو صفات مميزة في مدح دون آخر، فهذا شجاع. وذاك كريم، وذاك عادل... وقد تجمع هذه الصفات في سياق واحد معًا مع تحدٍ للواقع. وأكفي بعرض نموذج واحد على هذا النهج التقليدي في المدح، ولتكن هذا النموذج قصيدة في الملك الكامل، ومطلعها^(٣١):

إن سُلْ سيفُ الهرج من غمد الجفا فاذرع الصَّبَرِ الجميل والوفا

تفزل الشاعر فيها بخمسة وعشرين بيتاً، ثم تخلص إلى المدح بثلاثة أبيات، ثم جاء المدح في (٦٧) بيتاً. وقد شكا الشاعر في أبياته الغزلية من صدود حبيبته عنه، وهجره له، وحث نفسه على التحمل بالصبر. ثم يخلص من هذه الشكوى إلى وصف جمال هذا الحبيب، فيطيل في ذلك. ولم تأتين الغاية التي كان

يرمي إليها الشاعر من هذا الغزل، ولا الأجواء النفسية التي أراد أن ينشرها وأغلب الظن أن لا غاية للشاعر إلا إظهار البراعة في وصف المحاسن، لذلك نجده يستطرد ويتفنن في هذا الوصف، كما في قوله:

أقام من أصداغه عقاربًا تحرسَه من لحظني أن تُقْطِفَا
ما أنكرتْ أجنافه سفك دمي إلا أتاني حِدْه معرفة
خُذْ بِه جمرَ من الحُسْنِ طقاً من فوقه ماءُ الْحِيَا وما انطفَا
كأنَّ في فِيهِ لِيدِي ابتسامَه برقاً أضاءَ أو جُمَانِيَ الْفَقا
يصلى بنيران الصدودِ من ثوى عليه في دين الهوى معتكفاً

وعلى الرَّغم من هذه النِّيران فإنَّ الشاعر سيظل مقيماً على هذا الحب ولن يطلب من دونه منقلباً، تماماً كما سيظل مقيماً في حضرة الملك الكامل ولن يغادر من دونه مصرفًا. وهنا يتخلص الشاعر من الغزل إلى المدح تخلصاً جميلاً، ويغدو في مواجهة ممدودة، ويأخذ في الثناء عليه، فيختار له من الصفات ما يليق بالملوك، فينوه بعده، وشدة بأسه، وذكاء قلبه، وقوَّة دولته، وكرمه الذي لا تدخله منهنة ولا يفسده أذى:

ليثَ من استكفاء في خطبِ كفى غيثَ إذا شيم لجذبِ وكفى
ورذَ اللَّدى من راحتَه بالجديٍّ من كدرِ المنة والمطلِّ صفاً
أظهرَ آياتِ سماحٍ أرَختَ بمعجزِ المعروف منها صحفاً

ويجنب ابن عقيل إلى المبالغة في تكريسه للملك الكامل، وهي مبالغة مردُها محاولة الشاعر أن يأتي بالجديد، كما في قوله:

تكادُ من سلطنته الأنجمُ أن تنسَّ قطُّ والأرضُونَ أن ترتجفَا
لو أمرَ النهارُ والليلَ بأنْ يتفقا طولَ المدى ما اختلفَا
والبحر يوماً لم يُمْجِ و النَّارُ لمْ تحرقَ أو الريحُ أبْتَ أن تعصفَا

وَحِينْ يَتَحَدَّثُ الشَّاعِرُ عَنْ زِيَادَةِ النَّيلِ وَحُضُورِ السُّلْطَانِ بِالْمُقِيَّاسِ تَسْتَدِعِي
كَلْمَةً (النَّيل) الْحَدِيثَ عَنْ نَيلِ الْمَدْوُحِ وَكَرْمِهِ، فَيَقُولُ:

نَيْلُكَ يَسْتَعْلِي عَلَى النَّيلِ إِذَا مَا النَّيلُ فِي الْمَدْتَاهِي وَطَفَا

وَالْأَمْرُ الَّذِي يَسْتَوْقِفُ الْقَارِئُ فِي هَذِهِ الْقُصْيَدَةِ حَدِيثُ الشَّاعِرِ عَنْ (حُسْنٍ)
الْمَدْوُحِ، وَرَبِطَهُ بِ(يُوسُف) عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَا سِيمَا أَنَّ هَذَا الرَّبِطُ مَا شَاعَ فِي
الْغَزْلِ بِالْمَذْكُورِ أَنَّذَاكُوا. وَلَعَلَّ هَذَا يَشِيرُ إِلَى تَبَدُّلِ فِي بَعْضِ الْمُثُلِّ وَالْقِيمِ.

وَإِذَا أَعْدَنَا النَّظَرَ فِي الْقُصْيَدَةِ فَابْتَدَأْنَا نَلَاحِظُ أَنَّ الشَّاعِرَ لَمْ يَأْتِ فِيهَا بِشَيْءٍ
جَدِيدٍ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِبَنَانِهَا وَمَضْمُونِهَا؛ فَالنَّسِيبُ الَّذِي جَاءَ فِي مَقْدِمَتِهَا تَقْليديٌّ،
وَالصَّفَاتُ الَّتِي خَلَعَهَا الشَّاعِرُ عَلَى مَدْوُحٍ كَانَتْ فِي مَجْمِلِهَا مَا اعْتَادَ الشَّعْرَاءُ
ذَكْرُهُ. غَيْرُ أَنَّهُ لَا بدَّ أَنْ نَقُرُّ أَنَّ النَّفْسَ الشَّعْرِيَّ الَّذِي كَانَ يَبْثُثُهُ ابْنُ عَقِيلٍ فِي
قُصْيَدَةِ مَدْحِيَّةٍ قَدْ يَخْتَلِفُ - أَحْيَانًا - عَنْهُ فِي قُصْيَدَةِ أُخْرَى، وَمِنْ ثُمَّ فَإِنْ بَعْضُ
مَدَانِعِ ابْنِ عَقِيلٍ وَإِنْ تَشَبَّثُ بِالشَّكْلِ التَّقْلِيديِّ فَإِنَّ الشَّاعِرَ كَانَ يَتَصَرَّفُ بِاَدَوَاتِ هَذَا
الشَّكْلِ بِحِيثَ يَنْأِي بِهِ عَنِ التَّقْلِيدِ الَّذِي يَلْغِي شَخْصِيَّتَهُ الْفَنِيَّةَ مِنْ نَاحِيَّةٍ، وَيَقْطَعُ
الْقُصْيَدَةَ عَنِ مَنَاسِبِهَا مِنْ نَاحِيَّةٍ ثَانِيَّةٍ. وَسَأَضْرِبُ مَثَلًاً وَاحِدًاً أَوْضَعُ بِهِ ذَلِكَ،
وَهُوَ قُصْيَدَتُهُ الَّتِي قَالَهَا يَمْدُحُ أَحَدَ زُعْمَاءِ الْقِبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ فِي (قَوْصٍ) وَيُوَدِّعُهُ
سَنَةَ ٦٠٨هـ، وَمَطْلُعُهَا^(٣٢):

أَرْبَعْ وَسْلَنْ عَنْ آلِ سَلْمَى الْمَرْبُعاً وَاجْزَعْ فَحْقَ لَذِي الْهُوَى أَنْ يَجْزِعَا

وَقَدْ تَغَزَّلَ ابْنُ عَقِيلٍ فِي مَقْدِمَةِ قُصْيَدَتِهِ بِفَتَاهَ بَدوِيَّةِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ، وَمِمَّا
قَالَهُ فِيهَا:

أَوْ بَعْدَ بَعْدِ الْعَامِرِيَّةِ تَبَغَّى صَبَرًا وَتَذَخَّرُ اللَّنَوَانِبُ أَدْمَعَا

كلا وقلبك يوم ودع أهلها للجسم من شفط عليها ودعا

ابن عقيل يمدح زعم قبيلة عربية، وهو يودع هذا المدوح، ومن ثم أشاع في مقدمة قصيده أجواء بدوية، فذكر سلمى وربعها، والعامرية ورحلها، وصور جزءه لفراقها، وحزنه لابتعادها. ولعل الشاعر أراد أن يبسط أمام هذا المدوح الذي يسكن الباذية أجواء ألفها. كما أن المعاني التي وردت في هذا الغزل (وهي تدور حول الوداع والرحيل والبعد) تتسمج ومناسبة القصيدة، وكأن ابن عقيل يشير بذلك إلى فراقه لمدوحه، وتوديعه له، وما يستثيره ذلك في قلبه من مواجه وأشواق.

وقد واعم ابن عقيل بين المدوح والصفات التي خلعتها عليه مواعنة دقique، فمدحه باعتباره زعيم قبيلة، إذ قرنه بالمثل الأعلى للكرم عند الإنسان العربي (حاتم)، وأنثى على الدور الذي نهض به في تأثيل أمجاد قبيلته ومخالرها، وشكر له ولقبيلته حسن الضيافة وكرم الوفادة:

أثلت مجد بنى الفضيل ومجدهم يعلو على النجم المحل الأرفعا
طالت بمجدهم قضاعة واغتندى روض المناقب في بلى مزرعا
جاورتهم زمن المصيف فلم تزل فى نعمة حتى قضيت المربعا

أما خاتمة القصيدة فهي شكوى من الأيام التي قضت بالرحيل وحكمت بالفارق، وعهد من الشاعر أن يظل وفيأ لمدوحه، ذاكرا له، دائم الثناء عليه:

ابن ترضنى الأيام باللقيا فقد أغضبتني لما أتيت مودعا
أشكو إلى الله التباعد عنك من بعد الذنو لعلها أن تنفعنا
والله لا زال المديح مؤبدا مني، ولا كان الجميل مضينا

ولم يُضف ابن عقيل في هذه القصيدة إلى طبيعة الموضوع الشعري أي جديد، ولكن الجديد هو تصرف الشاعر بأدوات المدح على نحو كفل له الإجادة، فقد بعث في القصيدة لوناً من الشعور ينبعق من مناسبتها، وقد لون هذا الشعور مقدمة القصيدة وموضوعها وخاتمتها.

وترتبط قصيدة المدح عند ابن عقيل الزرعى - كغيره من شعراء عصره - بأحداث الصراع بين المسلمين والفرنجة، ومن ثم فإن بعض هذه القصائد يتنفس في جو ديني، ولا سيما حين يستعيير الشاعر الألفاظ المتعلقة بعقيدة الطرفين المتصارعين، كما في قوله من قصيدة يذكر هزيمة الإفرنج في دمياط سنة ٦٦١هـ^(٣٣):

نكست صلباً لهم من بعد ما رفعت إن الصليب بحمد الله مكسور
وقابل الإفك والتلذيث إذ كفروا لديك للحق تهليل وتكبير
وما تلا النصر من آياته سورة إلا وتألت لديهن التصاویر

وتغدو المعاني الدينية أكثر وضوحاً حين يستجيش الشاعر المشاعر الإسلامية، ويبحث على الوحدة لمواجهة الخطر الداهم، كما في قوله مخاطباً الملك الأشرف شاه أرمن، ويستعجله أن يرسل جيوشه إلى أخيه في مصر^(٣٤).

ناداك عيسى فاستجب لدعائـه أسعـه أنت اليـوم أفضـل مـسـعـفـ
فلـو أـنـكـ الدـاعـيـهـ لـبـيـ مـسـرـعاـ بالـمشـرـفـيـهـ وـالـرـمـاحـ الرـعـفـ
دمـياـطـ مـصـرـ،ـ وـمـصـرـ أـرـمـيـنـيـهـ وـالـخـصـمـ أـنـتـ،ـ وـقـدـ حـكـمـتـ فـأـنـصـفـ
كمـ مـسـجـدـ بـالـثـغـرـ أـضـحـىـ بـيـعـةـ يـتـلـىـ بـهـ الإـنـجـيلـ بـعـدـ المـصـحـفـ
وـمـنـابـرـ أـضـحـتـ صـوـامـعـ مـشـرـكـ بـالـلـهـ بـعـدـ مـؤـذـنـ مـتـحـنـفـ
رـفـعـواـ بـهـ الـقـدـاسـ بـعـدـ تـلـاـوةـ وـتـبـلـتـ بـعـدـ الـخـطـيـبـ بـاسـقـفـ

ويضفي ابن عقيل على قصائده غلالة من الفرح والاستبشر حين ينظر

من خلال عزيمة ممدوده وانتصاراته إلى المستقبل بثقة وأمل، فويرى أن فتح
البلاد التي يسيطر عليها الغزاوة بات وشيكاً، كما في قوله يخاطب الملك
العظيم^(٣٥).

فلتفتحن صوراً وعكة عنوة ولتهزم من الكفر وهو رعالٌ
ولينظرن بلاد انطاكيَّة وله على أطلالها أطلالٌ
وليحكمن السيف في فرسانها حكماً به المغبون ليس يقال
فانهض لتفتح البلاد بعزمَة حداء ليس تهولها الأهوال

٤- الغزل: لم يفرد ابن عقيل الزرعى فيما وصل إلينا من شعره قصيدة
خالصة للغزل، وكل غزلياته التي بين أيدينا جاءت في مقدمات قصائده. وهذا
الغزل ليس نسبياً بأمرأة معينة، وإنما هو أشواق مبهمة وحنين إلى الجمال
العربي، ونفحات وجاذبية تقترب من غزل العذريين، كما في الأبيات التالية التي
يركز فيها على الحنين بذكر نجد^(٣٦):

أعد ذكر نجد والمقيمين في نجد فلولا هو نجد صحوت من الوجود
فإن صبا نجد يهيج صبابتي إذا هاج رياها عن البان والرند
وليس حنيني للديار وإنما حنيني إلى عيش مضى لي بها رغد
سقى الله أيام الصبا وعهودها ومعهد هند باللوى صيب العهد

ويحاكي ابن عقيل في هذا الغزل طريقة العرب الأوائل محظياً نهج
الدبلومي والشريف الرضي، فتحس أن نفسه ترف بوج غائم على شاكلة هذا
الوجود الذي تسرى فيه روح بدوية:^(٣٧)

شجاه في الأيام الحمام إذ شدا فاتهم الشوق به إذ أنجدا
أنكرني ميأ وأيام اللوى والدهر لم يمدد إلى اليين يدا
أيام لا أصفى إلى معنى ولا أطير في الهوى مفتدا

أذهنني البيانُ الذي ولَهْنِي فـأوْهِنَ القلبُ وأوْهِنَ الجسدا

وحتى يتحقق ابن عقيل لشعره ما يريد من سمات بدوية فإنه يعمد إلى وصف ظعانن المحبوبة، وتصوير مشاهد ارتحالها، معبراً عما يمور في صدره من عواطف ومشاعر، وما يشتعل في قلبه من أحزان ومواجد^(٣٨)، كما يقف على ديار المحبوبة بعد رحلتها، فيصف ما فعلته بها الأيام، ويعرض لآثارها الباقية دون تفصيل، مسترجعاً ذكرياته الجميلة فيها، وما تستثيره هذه الذكريات في نفسه من أشجان، كما في قوله^(٣٩):

عرف الغرام وأنكر الأطلالاً إذ لم تُجب عند الخطاب سوالاً
لما توسم من سمية معهداً عفت العهاد محله أحوالاً
لعبت به أيدي الخطوب وناوحت فيه الصبا عند الهبوب شمالاً
جرت عليه ذيولها ولطالما جرت به البعض الدمى أذياً
فتوحشت بعد الأنفاس عراضها والدهر يعقب بعد حال حلاً
كانت محلاً للأحبة قبل ما يقصي التفرق أهلها الحالاً

وإذا ما تمعنا غزل ابن عقيل وجدنا أنه يطبل الحديث فيه عن البعد، والهجر، والفراق، والرّحيل، إلى غير ذلك من المعاني التي تتصل بتغير الأحوال وتبدل الأحبة. ولعل ذلك بتأثير من نزوح الشاعر عن وطنه، وتبدل قومه عليه؛ لذا فإن هذا الغزل يقترب بالحنين والاشتياق والشكوى والداعوى إلى التجمل بالصبر على تقلبات الدهر^(٤٠):

لولا التعلل أن الشمل يجتمع لكاد قلبي لوشك البيان ينصدع
وكيف يطمئن قلبي بالبقاء وفي حكم الوفا ماله في سلوة طمئن
جزعت للبعد يوم البيان بعدكم وأفة العاشقين البيان والجزع
أنكى فزادي هو أبكى الجفون دماً وشاب للهجر فودي والهوى يفع

كيف الخلاص لصبّ من صبابته أنصاره الشَّوق والبلوى له شَيْءٌ
طِيف الکرى خُلَّنْ فِي مقلتيه كما سروره مذنَّأي أحبابه لم يُمْعِنْ
ما زال يسفح ذكر السَّفَح عبرتَه ويعترىه لذكرى جزعه الجزع
خفظ هموك لا المحتوم منصرف إذا حذرَت ولا مافات يرتجع

وابذا ما انتقل الشاعر للحديث عن جمال المرأة فإن المحسن التي تغنى بها
لا تخرج عن المقاييس الجمالية التي ذكرها الشعراء السابقون، إذ نراه يترسم
خطاهم، ويحاكي أطراهم التي رسموا من خلالها جمال المرأة ومحاسنها، كما في
قوله متغزاً بآحادي الحسان واصفاً امتلاء رديفيها، وحسن شفتتها، وتآود قامتها،
وفتك نظراتها، وإشراق وجهها، وسوداد شعرها، واتساق أسنانها، وعدوبية
ريقها^(٤١):

ويمهجتِي رِيَا الرَّوَادِف طفَلَة لعسَاء لِمِيَاء المراشِف رُودُ
سَمِرَاء كَالسِّمِرَاء، فِي أَجفانِهَا بِيَضْنِ صِيَاقْلَاهَا العِيُون السُّودُ
صَنَمْ مِنْ الْحِسْبِن الْبَدِيع جَمَالَه فِي دِينِ مَتَّبِعِ الْهُوَى مَعْبُودُ
فَمِنْ الغَزَالَة حَسَنَاهَا وضِياؤُهَا وَمِنْ الغَرَّالَ ذَفَارَهُ وَالْجِيدُ
فَالْوَلْجَهُ صَبَّحَ وَالْذَّوَانِبُ غَيْبٌ وَالثَّغَرُ دُرُّ، وَالرَّضَابُ بِرُودٍ

ولا تكاد الصور التالية التي رسمها ابن عقيل لإحدى جميلات تختلف عن
الصور التي رسمها في الأبيات السابقة إلا في طريقة التعبير^(٤٢):

ابن أسفرت حكت الغزالَة بِهَجَةَ أو ألتَّعْتَ مَثَلَتْ لَدِيكَ غَرَّالَا
وإذا رَنَتْ بَعْثَتْ إِلَيْكَ لَحَاظَهَا عنْ قَوْسِ حاجبَهَا الْأَرْجَنْبَالَا
تَاهَتْ عَلَى مَلْدِ الْفَصَوْنِ بَقَدَهَا هِيفَأَ، وأَخْجلَتْ الْبَدُورِ كَمَا لَا

وئمه نمط آخر من الغزل في شعر ابن عقيل الزرعى هو الغزل بالذكر

وأغلب الظن أن هذا الغزل جاء مجازاً لذوق العصر الذي كثُر فيه التغزل بالولدان الأتراك، ولعل ذلك يدل على تبدل في الذوق الجمالي في بلاد الشام في تلك الفترة. ومع ذلك فإن الصفات الجمالية التي أوردها ابن عقيل وهو يتفنّى بالجمال المذكور لا تكاد تخرج عما هو مأثور في التغزل بالمرأة، كما في الأبيات التالية التي يصف فيها أحد الغلمان الأتراك، مصوّراً رقة جسمه، وحمرة خده، ولين قامته، وحسن وجهه؛ فجمع بذلك كلّه آياتِ الجمال المعجزة^(٤٣):

واسْمَرَ مِنْ بَنِي الْأَتَرَاكَ قَدْ تَرَكَتْ صَفَاتُهُ عَاشِقِيهِ فِي السُّورِي سَمْرَا
أَطْعَمَهُ فَعْصَمِي، لَاطْفَلَهُ فَجَفَا أَدْنِيَتْهُ فَنَّا، وَاصْلَلَهُ هَجْرَا
يَكَادُ مِنْ رَقَّةِ بِالْفَكِ تَجْرِحُهُ وَبِالْعَيْنَوْنِ تَبَرِّي فِي جَسْمِهِ أَثْرَا
اللَّهُ أَظْهَرَ آيَاتِ الْجَمَالِ بِهِ وَمَعْجَزُ الْحَسْنِ لَا يَخْفَى إِذَا ظَهَرَا
فَالْمَاءُ وَالنَّارُ فِي خَدَيْهِ قَدْ جَمِعَا كُثْرَرُهُ جَمْعُ الْيَاقُوتِ وَالْدَّرَرَا
إِذَا نَشَى أَرَانِي قَدْهُ غَصَّنَا وَبَنْ تَجَلَّى أَرَانِي وَجْهُهُ قَمَرَا

ولعلَّ الأمر الطريف في غزل ابن عقيل بالمذكور أنه كان يشحنه بالدموع والذلة، مضفياً عليه مسحة عذرية في التعبير والتوصير، كما في الأبيات التالية التي حاكي فيها أساليب العذريين، واستعار تعابيرهم وصورهم شاكياً هجر الحبيب، مصوّراً تذللـه له، ومعاناته من صدّه، وإخلاصه في حبه، واصفاً نفسه بأنه "العاشق العذري" و "أنه بعث نبياً للمحبة"^(٤٤):

إِلَامْ أَعْنَى فِي الْهُوَى وَأَعْنَى فَ وَحْتَمْ يَجْفُو لِي الْحَبِيبِ وَأَعْطَفْ
وَأَخْفَى الْأَسْى وَالْدَّمْعَ يَبْدِي خَفْيَهُ وَأَنْكَرَهُ وَالسَّقْمَ عَنْهُ يَعْرَفْ
وَلَا ذَنْبَ لِي فِي الْحُبِّ إِلَّا تَذَلَّلِي لَعْزَةُ مَحْبُوبِ يَجُورُ وَأَنْصَفُ
عَدَمَ اصْطِبَارِي فِي هَوَاهُ فَلَمْ أَجِدْ سُوَى الْوَجْدِ عَوْنَانِ لِي عَلَى الْحُبِّ يَسْعَفُ
أَنَا الْعَاشِقُ الْعَذْرِيُّ عَهْدًا وَشَيْمَةً وَغَيْرِي دُعْوَى الْعُشْقِ عَنْهُ تَكَلَّفُ
بَعْثَتْ نَبِيًّا لِلْمَحْبَةِ دَاعِيًّا إِلَى الْحُبِّ عَنْهَا مِنْ يَصْدَ وَيَصْدِفُ
مَعْجَزُ آيَاتِي خَضْوَعِي وَذَلَّتِي وَصَبْرِي وَأَنْصَارِي الْأَسْى وَالتَّأْسِفُ

يُتَبَعِّنِي وَالْفَقِيْرُ رَشَدٌ لَذِي الْهَوَى عِذَارٌ مُوشِىْ، لَا بَنَانٌ مُطَرَّفٌ

٣- الرثاء:

يبدو أن (الموت) لم يكن من الموضوعات الأثيرية لدى ابن عقيل الزرعبي، فلم يرد في المختار من ديوانه إلا قصيدةتان من شعر الرثاء؛ الأولى قالها في رثاء والده، والثانية قالها في رثاء بلاد حوران بعد أن اجتاحتها الفرجنة سنة ٤٦١هـ. أما القصيدة الأولى فقد استهلها باستشعار روح الحكمة المستمدة من الموت، والتسليم لحكم الله وقضائه النافذ^(٤٥):

إِنَّ الْمَنْوَنَ قَضَاهَا مَحْتَوْمٌ وَالْمَوْتُ فِيمَا يَقْتَضِيهِ زَعِيمٌ
وَاللَّهُ يَحْكُمُ بِالْفَنَاءِ لِخَلْقِهِ فَلَهُ الْبَقَا وَلِحُكْمِهِ التَّسْلِيمُ
نَهَبَ الْقَضَا أَعْمَارَنَا بِصَرْوَفِهِ الْمُسْتَقْدَطَاتِ وَدَأْنَا التَّهْوِيمُ

وتغمر الشاعر روح تشاومية وهو ينظر إلى ظواهر الحياة التي تخضع لقانون التحول والتغير، فيرى أن كل ظاهرة تحمل في حقيقتها صدتها ونقضها:

فَالشَّهَدُ سَمٌّ وَالدَّنْوُ تَبَاعِدٌ وَالوَصْلُ هَجْرٌ وَالنَّسِيمُ سَمُومٌ
فَسَحَابَهَا بِالنَّاثِبَاتِ سَجُومٌ وَعَقَابَهَا بِالْقَارِعَاتِ تَحْسُومٌ
وَلَدَتْ لَقْتَلَ وَلَدَهَا بَعْقُوكَهَا يَا لِيَهَا قَبْلَ الْوَلَادِ عَقِيمٌ

ويصور الشاعر فجيئته بأبيه، غير أن هذا التصوير لا ينقل لنا لوعة الفقد وعمق التأثر بفارق الأب. ويبعدو أن استعمال الشاعر الحديث عن رضى والده عنه، ووفاته عليه وهو في مصر، ووفاته في أثناء تلك الوفادة قد صرفه عن استخراج مكانن الحزن الخفية، وجعله يستطرد في الحديث عن العلاقة بينه وبين أبيه:

لَه رزقى فِي عَقِيلِ إِنَّه رَزْءَ جَلِيلَ مَا عَلِمْتُ عَظِيمَ
وَافِيتَ مَصْرَ مَهاجِراً لِزِيَارَتِي إِنْ أَخْلَفْتَ زَمْنَ الْجَدُوبِ غَيْرَوْمَ
وَرَضِيتَ عَيْ بَعْدَ سَخْطِكَ وَاصْلَا مِنِّي عَقْوَةً شَمْلَه مَصْرُومَ
وَصَفَحْتَ عَنْ ذَنْبِي وَإِجْرَامِي الَّذِي أَسْدَيْتَ، إِذْ أَنَا فِي الظَّلَامِ أَهِيمَ
وَقَضَيْتَ نَحْكَ صَانِمًا مَشْهَدًا لِتَالِ أَجْرِ اللَّهِ، وَهُوَ عَظِيمٌ

ويذيل الشاعر قصيده بأبيات يسلّي فيها نفسه، فيقف في مواجهة الموت
مفتخرًا بأنه ابن لهذا الأب، وفرع له، واستمرار لوجوده:

أَنَا بَدْرُ ذَاكَ النَّجْمِ عِنْدَ أَفْوَلِهِ أَنَا شَبَلُ ذَاكَ الضَّيْفِمِ اللَّاهِمِ
أَنَا فَرْعَنْ بَعْتَهُ التَّيْ لِنِجَارِهَا فِي دُوْحَةِ الْمَجْدِ الْأَثِيلِ صَمِيمٌ

وأما القصيدة الثانية التي قالها ابن عقيل في الرثاء، فهي كما سبق أن
ذكرنا في رثاء بلاد حوران، وأرى أن تثبت القصيدة كاملة لقيمتها التاريخية
والفنية. فهي من الناحية التاريخية تتحدث عن اجتياح صليبي شامل امتد من بلاد
حوران إلى أقصى جنوب بلاد الشام، وهو اجتياح لم تتحدث عنه المصادر على
النحو الذي صوره ابن عقيل في القصيدة^(٤٦). وهي -أي القصيدة- من الناحية
الفنية تعد إضافة جديدة إلى شعر الرثاء البلداوي الذي قيل في فترة الحروف
الصلبية، إذ إنَّ ما وصل إلينا من هذا الشعر كان قليلاً إذا ما قورن بالنكبات
الكبرى التي منيت بها البلاد الإسلامية^(٤٧). والقصيدة تجري على النحو
التالي^(٤٨):

جار الزَّمَانَ عَلَى سَكَانِ حُورَانَ لَا كَانَ دَهْرٌ قَضَى بِالْجُوزِ لَا كَانَ
أَخْنَى وَخَانَ وَقَدْ كَانَ الْوَفِيُّ لَهُمْ لَا غُرُونَ لِلَّدَهْرِ إِنْ أَخْنَى وَإِنْ خَانَ
صَاحِبُ الْجَلَاءِ بِهِمْ صَوْتًا فَمَا لَبَثُوا أَنْ جَاؤُوهُ جَمَاعَاتٍ^(٤٩) وَوَحْدَانَا
فَأَصْبَحَتْ دِمْنًا تِلْكَ الرِّبَوْعُ لَهُمْ وَبَدَلتْ بَعْدَهُمْ بِوْمًا وَغَرْبَانَا

ظننتُ أنْ قُرَاهِمْ بعْدَمَا درسَتْ أطْلَانْ
 دهلتُ منْ أَسْفٍ حينَ استقلَّ بهمْ حادي العبورِ كَأَنِّي كُنْتُ سَكْرَانَا
 وَأَخْجَلْتَنِي بعْدَهُمْ إِنْ لَمْ أَمْتَ كَمْ دَأْ
 مَذْأَرْمَعْوَا لِلنَّوْيِ رِجْلًا وَرِكْبَانَا
 تَرْقَوْا بِالْفَلَانِي أَيْدِي سِبَا فَشِويِ
 نَجْعِ بِمِصْرِ وَنَجْعِ حَلْ حَرَانَا
 وَكَابِدُوا الْمَحْلَ فِي الْأَوْطَانِ أَحْيَانَا
 إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا مَا خَافَ فِي وَطَنِ
 كَانُوا يَجْبِرُونَ مِنْ جُوزِ الزَّمَانِ فَقَدْ
 لَيْسَ الْهَوَادِجَ أَحْدَاجًا عَلَى إِيلِ
 الطَّالِعَاتِ بِدُورِأَبْنِ سَفَرْنِ لَنَا
 كَانَ أَطْعَانَهُمْ وَالْأَلَّ يَرْفَعُهَا
 قَالُوا الْغَرَابُ دَعَا فِي الْحَبِيِّ فَاحْتَمَلُوا
 لَا تَنْدِبِ الدَّارَ إِنْ أَقْبَوْتُ وَلَا طَلْلَا
 وَخَلِّ مِيَةَ وَالْخَلِصَاءَ يَنْدِبُهَا
 وَخَلِّ رَامَةَ يَبْكِيهَا جَرِيرُ وَدَعِ
 دَعِ الْمَعَاهِدِ فَالْأَعْرَابُ أَجَدْرُ أَنْ
 وَانْدِبْ قَصْرُورُ قَرِيِّ حُورَانِ حينَ خَلَتْ
 خَوْتُ عَرْوَشُ بِهَا كَانَتْ مَرْفَعَةً
 شُلُّ الزَّمَانِ يَدُ الْمَعْرُوفِ بعْدَهُمْ
 كَمْ بَيْنَ بَصَرِيِّ إِلَى الرَّمَثَا إِلَى طَفَسِ
 وَلَسْتُ أَنْسَى حِبَالَا وَالسِّرَاءِ وَمَا
 وَبَعْدَ هَذَا أَتَى مَا لَا مَرْدُلَهُ
 أَسْرَا وَقْتَلَا وَنَهْبَا حينَ أَذْكَرَهُ
 كَمْ قَرْبَيَةَ كَانَ فِي أَكْنَافِهَا نَفَرَ
 شَمَّ الْأَنْوَفَ سَرَاهَ سَادَهَ نَجْبَا
 مِنْ كُلِّ أَبْلَجَ وَضَاحَ الْجَيْبِينِ إِذَا
 يَقُولُ مِنْ مَاتَ مَنَا كَانَ أَسْعَدَنَا
 مَا ذَاتُ طَوْقَ عَلَى أَيْكَ الْحَمِيِّ صَدَحَتْ تَرْجَعُ النَّوْحَ فِي الْأَقْفَانِ الْحَانَا

أقصى الزَّمَانَ لَهَا إِلْفَأُ فَهَا جَهَنَّمَ وَأَشْجَانًا
 كَلَّا وَلَا مُغْرِزٌ يَرْعَى لَهَا رَشًا بِبِطْنٍ وَجْرَةٍ رَخْصٍ الظَّلْفِ ادْمَانًا
 لَهَا كَنَاسٌ مِنَ الْأَرْضَى عَلَى نَشْرٍ فِي رَوْضَةِ أَبْتَتْ رَنْدًا وَحَوْذَانًا
 أَنَّا خَصْرَفَ النَّاهِيَا فِيهِ إِذْ غَلَتْ سَمْعَمَا أَهْرَتْ الشَّدْقَيْنِ غَرْثَانَا
 فَاغْتَالَهُ وَقْضَاءُ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ رَدُّ، وَلَا رَدُّ لِلْمَقْضِيِّ أَنْ حَانَ
 لَهَا بَغَامٌ شَدِيدٌ حِينَ تَذَكَّرَهُ إِذَا رَأَتْ عَيْنَهَا فِي السَّرْبِ غَزَلَانَا
 يَوْمًا بَاوْجَعَ مَنَّى إِذْ وَقَتْ عَلَى تَلْكَ الْقَرَى وَتَذَكَّرَتِ الْمَذِي كَانَا
 تَرَى يَعُودُ إِلَى الْأَوْطَانِ سَاكِنَهَا فَإِنَّظَرَ الدَّارِسَ الْأَيَّاتِ عَمَرَانَا
 صَبِرَأُ عَلَى الدَّهْرِ إِنْ أَبْكَى الْعَيْوَنَ وَإِنْ أَخْنَى وَإِنْ خَانَ
 لَا بُدُّ فِي الدَّهْرِ مِنْ عَسْرٍ وَمِسْرَةٍ وَأَنْ تَرَى فِيهِمَا سُوءً وَإِحْسَانًا

والقصيدة، كما هو واضح، تعبر عن الحزن الذاتي لابن عقيل على ما حل
 بأهل حوران وغيرهم. وقد نوع الشاعر في أدواته الفنية للتعبير عن هذا الحزن؛
 فهو في مستهل القصيدة ينحو منحى التعبير المباشر في تصوير انقلاب الزمن
 وظلمه لسكان تلك الديار. ولم يكش الشاعر ينتهي من ذلك حتى ذهب بصور ما
 أصاب قرى حوران من خراب ودمار، معتبراً عن ذهوله لمشاهد القوم وهم
 يغادرون ريوتهم، ويجلون عن ديارهم:

صَاحِ الْجَلَاءِ بِهِمْ صَوْتًا فَمَا لَبَثُوا أَنْ جَاوبُوهُ جَمَاعَاتٍ وَوَحْدَانًا
 فَأَصْبَحُتْ دَمْنَأْ تَلْكَ الرَّبِيعَ لَهُمْ وَبَدَلتْ بَعْدَهُمْ بَوْمًا وَغَرْبَانًا
 ذَهَلَتْ مِنْ أَسْفٍ حِينَ اسْتَقْلَلُ بِهِمْ حَادِي الْعَبُورِ كَأَنَّى كَتَتْ سَكَرَانَا
 تَرَقَوا بِالْفَلَّا أَيْدِي سَبَا فَثَوَى نَجْعَ بِمَصْرِ، وَنَجْعَ حَلَّ حَرَانَا

ويمضي الشاعر في قصيده فيصور معاناة المسلمين في الديار، ومكابدهم
 العدو والقطط معاً مما دفعهم إلى النزوح عن ديارهم، وهنا يجد ابن عقيل
 الفرصة مواتية لوصف مشاهد الارتحال، وظعنان النساء المسلمات:

ليس الهوادج أحداجاً على إيل تلك الجنان حوت حوراً وولانا
الطالعات بدوراً إن سفرن لنا والمايسات إذا أقبلن أغصاناً
كان أطعاناهم والآل يرفعها سفانٌ أشرعت أو نخل بيسانا

والمنتمن في الأبيات السابقة يجد أن الشاعر قد أدخل بالبناء الفني للقصيدة
لأنه استعمل لغة الغزل وهو يتحدث عن المراكب التي تقل النساء المسلمات
اللواتي غادرن ديارهن خوفاً من الأداء. ولعل ابن عقيل كان يضع أمام نظره،
وهو يصف النساء الراحلات، مشهد الظعن في القصيدة العربية القديمة، ويستمد
منه معانيه وصوره. بل يمكن القول إن النموذج الشعري لبناء القصيدة العربية
كان يوجه ابن عقيل، بوعي أو بغير وعي، وهو يبني مرثيته هذه، ومن ثم فإننا
نرى الشاعر يستطرد في معرض تصويره أحزانه إلى ذكر الشعراء الذين شغلوا
بهمومهم الذاتية، فوقوا على الأطلال وندبوا ديار محبوباتهم، وهو مشغول بهموم
(الجماعة) وندب (قصور قرى حوران):

لا تدبِ الدارِ إنْ أقوتْ ولا طللاً ولا أواريَ أفيراس وأشطاناً
دع المعاهد فالأعرابُ أجرأُ أنْ تبكيَ النقا وربى نجد ونعماناً
واندبَ قصورَ قرى حوران حين خلتْ وعوضتْ بعد سكني الإنس جناناً

وحين يتحدث ابن عقيل عن المساحة الواسعة التي شملها الاجتياح
الصلبي يذكر أسماء العديد من المواقع الشامية في حوران وغيرها بلغة سردية
تقريرية، فبدت أبياته لمحاكاتها الواقع وكأنها فقرة من كتاب تاريخ:

كم بين بصرى إلى الرمثا إلى طفس من الخراب إلى ما حول نجراناً
ولست أنسى جبالاً والسراء وما أصاب ما ب إلى ما حول عماناً
وبعد هذا أتى مالاً مردلاً من الفرنج إلى غوري بيساناً
أسرأ وقتلأ ونهباً حين أذكره يهيج تذكرة لقلبِ أحزاننا

وبعد ذلك يأخذ الشاعر في تصوير أحزانه هذه فيقرنها بنوح حمامه أقصى الزَّمَانِ إلَفَهَا، وبغام غزالة افترس وحش رشاماً.

وهكذا، فقد كان هم ابن عقيل - وهو يعبر عن أحزانه تصوير الدمار الذي أصاب منطقة حوران وغيرها من البلاد المجاورة لها، وما ترتب على ذلك من هجرات جماعية لسكان تلك الديار. وقد كان من المتوقع أن يصعد ابن عقيل نغمة الخطاب، ويبحث المسلمين على الجهاد ليوازن بهذه التصعيد حالة الانكسار والهبوط التي استعلنت في فاتحة القصيدة وفي أجزانها الأخرى، ولكنه لم يفعل وأثر أسلوبياً آخر هو تمني عودة المهجريين إلى ديارهم، والدعوة إلى التحمل بالصبر على نواتب الأيام:

تُرِى يَعُودُ إِلَى الْأَوْطَانِ سَاكِنُهَا فَانظُرِ الدَّارِسُ الْأَيَّاتُ عَمْرَانَا
صَبْرًا عَلَى الدَّهْرِ إِنْ أَبْكَى الْعَيْوَنَ وَإِنْ أَنْكَى الْقُلُوبَ وَإِنْ أَخْنَى وَإِنْ خَانَا

٤- الهجاء:

من الموضوعات التي طرقها ابن عقيل في شعره الهجاء. وجُلُّ شعر الهجاء الذي تضمنه المختار من ديوانه كان مما قاله وهو في مصر، ولعل ذلك يشير إلى أن بعض الشعراء المصريين لم يرتاحوا إلى إقامته بينهم. ويبدو أن مساجلات هجانية قد دارت بينه وبين أحد الشعراء النحاة في مصر، فانبى لـه الشاعر الزرعى يسفه عقله وشعره^(٤):

يَا أَدِيباً فِي الرَّأْيِ غَيْرِ حَصِيفِ وَسَخِيفَاً أَتَى بِشِعْرٍ سَخِيفٍ
جَاءَنَا شِعْرُكَ التَّقِيلُ الْمَعَانِي بِارْدَأَ نَظَمَّهُ بِوزْنِ خَفِيفٍ
مَا انْقَدَنَا مَا قَلْتَ إِلَّا وَجَدْنَا هُوَ عَلَى نَقْدِهِ كَثِيرَ الزِّيَوْفِ
فَلَهُذَا كَلَامُكَ الْفَاسِدُ الصَّرِيفُ غَةٌ مَلْفِي لِعَلَّةِ التَّصْرِيفِ

وكان من الممكن أن تفهم الأبيات السابقة على أنها محاكمة شاعر، لـولا
أبيات أخرى قالها ابن عقيل في المهجو نفسه اتهمه فيها في غيرته على محارمه،
وقذف عرضه، وصور الناقص ممثلاً فيه وفي نساء بيته^(٥٥).

ومن هجاء ابن عقيل محمد الواسطي، وكان هذا تعرض له، فتصدى له
الزرعي بقصيدة أفحش فيها، إذ حشد كثيراً من الصفات المزريمة التي تحط من
رجلة المهجو، وتطامن من كرامته، مستعملًا ألفاظاً فاحشة، وصوراً فاضحة
تصور انحرافه وانحراف زوجه، أجزئ منها ما يصلح إثباته^(٥٦):

قالوا الرقيع الراويَة قد انتهى هجائيَة
قلتْ لقد هاج علىِي من هجائي داهيَة
الأسدُ لا يضره نباح الكلاب العاويَة
كم شاعر نافرنى قلَّاك يا ابن الزانيَة
تركَتْ أمَ رأسَيَه عند النصال هاويَة

والقصيدة طويلة استعار فيها ابن عقيل كثيراً من الألفاظ والstrukip
القرآنية بعد أن يحرفها عن مواضعها ليضفي سمة الطرافة على هجائه (أعجاز
نخل خاوية، قطفوها دانية، نار حامية، عين جارية...). كما تأثر ابن عقيل في
هذه القصيدة أبياتاً في الهجاء قالها دعبد الخزاعي^(٥٧).

ويتعرض ابن عقيل لأحد القضاة في قوص، فيهجوه في غير ما مقطوعة
هجاءً لاذعاً، فيتناول عرضه وشرفه بعبارات صريحة، ويسخر من خلقه،
وينزع عنه وعن قومه لباس الشرف والكرامة، وينسب إليهم صفات الخزي
والعار، كما في قوله^(٥٨):

لأبي محمد بن كامل غايَة في اللؤم عنها العالمون تتكلَّب

قرد إذا استقبلت صورة وجهه وإذا تولى فهو ثور أنصب
من نسل قوم لا ينال نوالهم حتى (...) نساوهم أو يتلبوا
بيع النبيذ لباسهم ومعاشهم فيه يحصل أكلهم والمشرب
كم قد رأيت بدارهم مقتولة قتلوا وقالوا أهلتها العقرب

ويهجو ابن عقيل خطيب أسوان، فيصور نفور الناس منه، وازورارهم
عنه، وعدم رغبتهما في الاستماع إليه، دون أن يفوته -كعادته- أن يذم أخلاقه
ويفرض عرضه، على شاكلة قوله^(٥٩):

إن عيسى خطيب أسوان أضحي ضد عيسى المسيح في المعجزات
ذاك بعد الممات يحيي وهذا ... (....) فيه يموت بعد الحياة
قدره لا يزال في درك والـ قرن منه أرفع الدرجات

وجملة القول في هجاء ابن عقيل أنه هجاء مؤسس على الإفهاش
والإذاع، مما أبعده عن حقيقة هذا الفن الذي يقوم على طائفة من الأصول الفنية.

أغراض أخرى: ومن الأغراض التي طرقها ابن عقيل في شعره وصف
مجالس اللهو والشراب. ولعل وفادة هذا الشاعر على بعض الملوك والأمراء
ومخالطته لهم قد أثارت له الإللام بمجالس اللهو التي كانوا يعقدونها؛ فقد
استقضاه الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر سنة ٦١٩هـ أبياتاً يصف فيها
مجلس اللهو الذي أقامه، وما قدّم فيه من صنوف المتع^(٦٠). وفي السنة نفسها قال
الشاعر أبياتاً وصف فيها الاحتفالات التي أقيمت يوم النوروز، وذكر أنه أخذ فيها
بنصيب واخر من اللهو، وأنه قضى ذلك اليوم في أحضان الطبيعة الجميلة
مستمتعاً بسماع الأغاني والألحان العذبة، ومستغرقاً في شرب الخمرة
المعنقة^(٦١):

لله صبحه سوروز أخذت بها أوفي نصيب سرور في نصبيين

ما جنةُ الخلد إلا دون ما اشتلتْ على الفواكه فيها والرياحين
للله أو توارهن الخرس ناطقة لنا بحسن إيقاع وتلحين
وصلت فيها غبوقى بالصحيح على شدو القيان ومزمار ابن صفيين

ويتماجن ابن عقيل حين يصور في أبيات أخرى شففة بحضور مجالس
الله وتهالكه عليها، واصفاً ما في تلك المجالس من قصف وعزف^(١٢):

قساً بالكوابع الأبكـار عزيـف الـقـيـان للـسـمـار
واغـبـاقـ المـدـامـ والـلـيـلـ دـاجـ واصـطـبـاحـ النـدـمـانـ بـالـأـسـمـارـ
واصـطـحـابـ المـزـمـارـ وـالـدـفـ وـهـنـاـ واصـطـخـابـ العـيـدانـ وـالـأـوـتـارـ
وبـدـورـ السـقاـةـ تعـطـيـ النـدـامـىـ مـتـلـ زـهـرـ النـجـومـ شـمـسـ العـقـارـ
لاـ أـبـيـعـ الصـبـاـ وـلـ اللهـ وـالـفـ يـبـنـسـكـ وـعـصـمـةـ وـوـقـارـ

غير أنَّ الشاعر في وصفه لمجالس الشراب يقف عند حدود المنظر
الخارجي ولا يصور ما تحدثه الخبر في النفس من سورة ونشوة وطرب،
ويكتفى بتصويرها وهي تجلّى بالكؤوس، متقدّهاً عن قدمها، واهتمام أرباب
البيانات بها. وهو في ذلك كله يستعير صور أبي نواس وتعابيره، كما في قوله
مخاطباً نديمه أن يسقيه^(١٣):

يا نديمي أدرِ على الشرب راحا شربها فيه راحة الأسراـرـ
جنديـاـ تـجلـىـ ظـلامـ الـدـيـاجـيـ حـيـنـ تـجلـىـ بـسـاطـعـ الـأـنـوـارـ
تعـتـزـيـ نـسـبـةـ إـلـىـ صـيـدـنـايـاـ أوـ صـرـيفـينـ يـالـهـ مـنـ نـجـارـ
كـنـهـاـ لـيـحـدـ حـسـاـ وـحـدـسـاـ جـلـ منـ دـقـةـ عـنـ الـأـفـكـارـ
عـظـمـتـهاـ الـمـجـوسـ لـمـارـأـهـاـ وـهـيـ مـاءـ كـالـثـارـ فـيـ الـاسـتـعـارـ
وـهـيـ عـنـ الـقـدـاسـ بـيـنـ الـنـصـارـىـ وـزـرـ مـسـائـعـ مـنـ الـأـوـزـارـ
حـرـمـتـ فـيـ كـتـابـ الـقـسـوسـ وـأـجـلـتـ فـيـ كـتـابـ الـأـجـارـ

وتبدو الروح النواسية أكثر وضوحاً في الأبيات التالية التي يستعير فيها بعض الصور والتعابير القرآنية في سياق دعوته إلى الانفصال في اللهو والاستغراق في المتعة، معتبراً عن كلّه بالخمر وولعه باحتسائها، واصفاً صفاتها وكذوبتها وقدمها، مضفياً عليها حالة من القداسة، وهو في ذكر كلّ كليٍ نواس - يفتح باب الرجاء، يأمل بعفو الله ورحمته^(٦٤):

أدرِ الكاس بكرة وأصيلاً وأطعْ من هويتِ وأعْصِ العذلا
وأجعل اللهو والخلاعة ديناً وتبَّل إلَيْهم اتَّبِعْ لـ
وأَتَّخذ من تُحبَّ إِنْ كنْت فِي دِيْوَنِـ من الْهُوَى صادقاً عَلَيْكَ وَكِيلَاـ
وأَجْلُّ منها عَلَى النَّدَامِي عِرْوَسَاـ لِيُسْ تَرْضِي إِلَى الْكَرَام بِعَوْلَاـ
فِي إِبَاء كَائِنَه جَسْم مَاء فِيْهِ رُوحٌ تَخَالُّهَا سَلَسَبِيلَاـ
نُورُهَا يَجْعَل الظُّلَام نَهَاراً نَارُهَا بِالْمَزَاح تُطْفِي الغَلِيلَاـ
عَاصِرَتْ أَدَمَأْ وَنُوحَاً وَإِيْرَا هِيمَ وَالْأَنْبِيَاء جِيلًا فَجِيلَاـ
اسْقَنْتُهَا فَقِيدَ رَأَيْت بَعِينَيِـ عَنْدَ بَعْثِ الْأَجْسَادِ يَوْمًا طَوِيلَاـ
أَنَّ لَوْلَا حُسْنُ الرَّجَاء تَوَقَّعَـ تَ عَذَابًا يَوْمَ الْمَعْدِي وَبِيلَاـ

وقد تأثر ابن عقيل الزرعى بالشعراء العلماء الذين نظموا قواعد العلوم شرعاً، فعمل على محاكاتهم وتقليلهم. فقد تضمن ديوانه قصيدة تبلغ مئة بيت تتضمن على كثير من حoshi اللغة، ويبدو أن هدفه من نظمها كان إبراز معرفته بالغريب من ناحية، وإظهار قدرته على صياغة قواعد العلم شرعاً من ناحية ثانية، ومن ثم استهلّها بقوله^(٦٥):

أَيَا مَنْ عَنْدَهُ الْفَهْمُ إِذَا مَا ذَكَرَ الْعَلَمُـ
لَنَنْ بَيْنَتْ مَا قَدَّقَـ تَ فِي شَعْرِي لِكَ الْحَكَمُـ
لِسْدِي الْقَوْلُ وَالْفِعْلُـ وَعَنْدِي التَّشْرُ وَالنَّظَرُـ

أدخلَ المُشَكِّلَ الصَّفَعَ — بِإِذَا مَا عَجَزَ الْفَرْدُ

ثم يأخذ الشاعر في طرح الأسئلة المنظومة على شخص قد يكون وهما، سائلًا إياه أن يشرح الكلمات الصعبة التي ترد فيها.

ثانيًا: السمات الفنية:

١ - بناء القصيدة:

تقوم القصيدة العربية في الموروث الشعري على طائفة من التقاليد الفنية، وقد أدت هذه التقاليد إلى تعدد الموضوعات التي كان يطرقها الشاعر القديم في قصيده، ومن ثم فهم النقاد القدماء الوحدة في القصيدة على أنها وحدة تقوم على التكثير^(٦٦). وفي إطار هذا الفهم التقليدي لبناء القصيدة تحدث النقاد عما سموه (براعة الاستهلال) و (المخلص) و (الخاتمة)، إذ "الشاعر الحاذق من يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة، لأنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الإصغاء"^(٦٧).

وقد أخذ ابن عقيل بهذه التقاليد الفنية في كثير من قصائده، إذ كانت تتألف من مقدمة وتخلص وموضوع وخاتمة، ويكتفي أن تأخذ أي قصيدة لترى هذا التكثير في الموضوعات. من ذلك قصيده التي مطلعها^(٦٨):

أسرفت في عذر صبَّ القلب مكتتب شفاوه في اللئي المعسول والشنب

وهي تقع في ٧٧ بيتاً، تنزل في ١٩ بيتاً، ووصف الخمر وجلسها في ١٨ بيتاً، وتخلص إلى المدح في بيت واحد، وجعل للمدح والخاتمة ما تبقى من القصيدة.

غير أن هذا الشكل لم يكن قالباً جامداً يصب فيه ابن عقيل قصائده دون

روح، وإنما أفضض عليه -أحياناً- من نفسه، ولونه بمشاعره وانفعالاته (فإذا ضرب من العاطفة يذيع في القصيدة كلها، ويبدو في مقدمتها وموضوعها، ويغلب على بقية أجزائها)، ويتحقق لها ضرباً من الوحدة والانسجام. من ذلك قصيده التي بعثها من مصر إلى أخيه جبير يعاتبه على رحيله عنه، وهو في مصر، دون علمه، وهي مطلعها^(١٩):

زَعَمْتُ مَيْ أَنْ قَلْبِي سَالٌ فَاشْمَازَتْ لِزْخَرْفُ الْأَحْوَالِ

ومع أن القصيدة لم تتناول موضوعاً واحداً، إلا أنه يسري فيها تيار نفسي واحد هو العتاب الذي لا يخلو من حدة. وقد أملى هذا الشعور على ابن عقيل أن يتخير في كل جزء من قصيده الصور والمعاني التي تعبر عن مكنونات نفسه. فها هو ذا يستفتح القصيدة بنسبب حزين:

زَعَمْتُ مَيْ أَنْ قَلْبِي سَالٌ فَاشْمَازَتْ لِزْخَرْفُ الْأَحْوَالِ
عَجِباً لابنَةِ الْجَنِيمِيِّ إِذْ لَمْ فِيكَ تَعْصِمْ مَقَالَةُ الْعَدَالِ
أَعْرَضْتَ إِذْ رَأَيْتَ طَوعَ يَدِيهَا فَتَصَدَّتْ لِلصَّدْ بَعْدَ الْوَصَالِ
وَكَذَا الغَانِيَاتُ كَالَّدَهْرِ لَا تَبْنِي قَىٰ عَلَىٰ حَالَةٍ مِّنَ الْأَحْوَالِ

فابن عقيل يشكو في هذا النسب هجر (مي) له وإعراضها عنه، وكيف أنها استمتعت إلى قول العدال الذين أوهموها أنه سلا عنها وتغير عليها. وكان الشاعر يضمن هذا النسب عتابة لأخيه، وتعجبه من موقفه منه، لذلك أطال فيه -أي النسب- إطالة أتحاث له إفراغ مشاعره؛ فتحدث عن جمال هذه المحبوبة التي استهونه وملكت قلبه مع أنه رجل حليم، حتى إذا ما استونقت من حبه لها هجرته وتركته. لذلك نجده في نهاية هذا النسب يثور في وجه (مي)، ويعلن لها أنه سينصرف عنها وعن أمثالها من الحسان، مبيناً لها أن الموت في ساحات الوعى أهون عليه مما تعرض له منها. وهنا نجد ابن عقيل يضيق بالتمييع وكتم

عواطفه، فينفجر بالحديث عن نفسه التي تأبى الإقامة بين قومه الذين لم يقدروه حق قدره، معلناً أنه غير أسف على فراقهم، والابتعاد عنهم:

هل رسولٌ عَنِّي يبلغُ قوميَّ منْ عَقِيلَ أولِي النَّهْيِ والْفَعَالِ
أَنْتَيْ غَيْرَ قَاطِنٍ فِي بَلَادٍ لَا يَرَاعِي فِي مِثْلِهَا أَمْثَالِي
أَنَا ذَاك الشَّهَمُ الَّذِي بِفَرَاقِ اللَّهِ أَهْلَ وَالدَّارِ إِنْ نَأَى لَا يُبَالِي

ويمضي ابن عقيل في قصidته بنبرة صاعدة ضارباً لنفسه الأمثال ببعض الرجال الذين أجرتهم ظروفهم على مغادرة أهلهم وذويهم، ثم يعود فيوجه الخطاب إلى بنيه مصوراً حبه لهم، وحنينه إليهم؛ فهو لم يرحل عنهم (عن قلبي أو ملالي)، ولكنه رحل رحيل المضطر:

ما أَبُوكَمْ كَفِيرٌ يَالَّفُ الضَّيْمِ سِمْ، أَبُوكَمْ ثَبَتَ عَلَى الْأَهْوَالِ
نَوْ جَنَانْ شَهَمٌ إِذَا خَاتَمَ الْأَقْنَانْ سِرَانْ، طَلْقُ اللِّسَانِ عِنْدَ النَّضَالِ

أما حديثه لأخيه فهو عتاب يمزوجه الأسى على موقف والده منه ومن أبنائه:

يَا أَخِي يَا جَبِيرُ نَاشِدُكَ اللَّهُ يَهُ اتَّبِعْدُ بِالْعِيَالِ وَالْأَطْفَالِ
فَإِلَيْكَ أَمْرُؤُ عَلَيْهِ فِرَاقِي هِيَنْ وَهُوَ لَا يَسُودُ عِيَالِي

ويبني الشاعر قصidته مصرأً على أن يعيش بعيداً عن قومه، ساعياً وراء تحقيق ذاته:

سُوفَ أَسْعِيُ وَالْأَمْرُ وَالْحُكْمُ لِلَّهِ يَهُ مَعَ دَائِمًا عَلَى كُلِّ حَالٍ

وهكذا فإنَّ القصيدة تتثبتُ بالشكل التقليدي، إلا أنَّ ابن عقيل صدر فيها عن تجربته الخاصة، واستخرج معانيها من داخل نفسه، وبث فيها لوناً واحداً من الشعور انتفاًق دقيقاً من هذه التجربة.

و واضح أنَّ الشاعر لم يلحَ في الحديث عن موقف أخيه وقومه، وإنما اهتم بابراز موقفه هو منهم، ورد فعله تجاههم، لذا كانت القصيدة تتحرك صعداً على نحو يوازي الحالة النفسية للشاعر، ومن ثم لم يتبَّعْ قصيده بالحديث عن آلامه وأحزانه، وإنما أنهاها بتوصير قوته وعزيمته، لأنَّ هذه الآلام والأحزان ظهرت في فاتحة القصيدة.

وثم نمط آخر من القساند كان الزرع يلح فيه إلى الموضوع الرئيسي دون مقدمات، ويتمثل هذا النمط أكثر ما يتمثل في القساند التي قيلت في أحداث الصراع بين المسلمين والفرنجة، وهذه القساند تميّز بوحدة الموضوع. من ذلك قصيده التي قالها يمدح الملك المعظم عيسى ويهنئه بفتح حصن صرخد سنة ٦٦١هـ، ومطلعها^(٧٠):

أضاعت بك الأيام وابتھج الدهر وطال بك الإسلام وانخفض الكفر

والقصيدة ذات موضوع واحد تشدُّ إليه خيوطها جميعها، هو الثناء على البطل المسلم والتغنى بقوّة دولته والظفر الذي حققه. وما كفل لهذه القصيدة الترابط والانسجام أنَّ الشاعر أكثر من إبراد الصور التي تصف الأوضاع الجديدة للMuslimين في دولة الملك المعظم، وهنا نجد أنه يقدم ضربين من الصور: صوراً تمثل منعة الدولة وقوّة جيوشها، وصوراً تمثل ارتياح المسلمين وفرحهم وابتهاجهم بذلك:

وأشرقـتـ الدـنـيـاـ سـنـاءـ بـوـجـهـكـ السـنـىـ وـعـزـ العـزـ وـافـخـرـ الفـخـرـ
وـأـتـىـ عـلـيـكـ اللـهـ وـالـدـهـرـ وـالـوـرـىـ فـكـلـ لـهـ فـيـكـ المـدـائـحـ وـالـشـكـرـ
وـدـوـلـتـكـ الـفـرـاءـ أـيـامـنـاـ بـهـاـ مـعـظـمـةـ زـفـرـ مـحـلـةـ غـرـ

مناقب لا يُحصي الخلاائق بعضها وكيف يُعدُ الرمل أو يُحضرُ القطر حمى في ذراة الناس أو كاد يحتمني من الموت منهم كل من لا له عمر

وحين يتحدث الشاعر عن قوة الجيوش الإسلامية فإنه يعمد، كذلك، إلى إيراد الصور التي تمثل قوة هذه الجيوش وضخامتها، تقابلها صور تمثل إقدام هذه الجيوش على الحرب، وارتياحها إليها، وانتساعها بها:

عجاج المذاكي كحلها وخلوقها النـ جـ وأصداء الدروع لها عـطـرـ
مقامهم الحرب الزبـون ونـقـلـهـ رؤوس العـوالـيـ والدماء لهم خـمـرـ
نشاوي بكـأسـ العـزـ تصـهـالـ خـيلـهـمـ يـرـنـحـمـ فـيـ الحـربـ لـاـ العـودـ وـالـزـمـرـ

أما حديث الشاعر عن قوة الأعداء، ومنعة حصن صرخد فقد جاء في سياق حديثه عن قوة المسلمين وتغنيه بها، ولما استوفى ابن عقيل ذلك خرج إلى تمجيد القوة لينهي قصيدته:

وـماـ جـنـحـوـاـ لـلـسـلـمـ إـلـاـ لـعـلمـهـ بـأـنـ قـصـارـىـ فـعـلـكـ القـتـلـ وـالـأـسـرـ
وـمـاـ العـزـ إـلـاـ مـتـنـ أـجـرـدـ سـابـحـ وـهـنـديـةـ بـتـرـ وـخـطـيـةـ سـمـرـ

وإذا كان ابن عقيل كفل لمبني بعض قصائده نوعاً من الوحدة والانسجام، فإن قصائد أخرى تبدو مفككة بحيث يكون الانتقال فيها من موضوع إلى آخر ظاهراً على نحو واضح ، ولا سيما في القصائد التي يطول فيها نفس الشاعر.

٢ - الأسلوب والصور:

يمثل أسلوب ابن عقيل الزرعبي في بعض جوانبه الأسلوب الشعري الذي يحرص على نشر الأجواء البدوية من خلال النسبي، وذكر الديار، ووصف الطعان، والحنين إلى بعض الأماكن المعهودة في جزيرة العرب، بالإضافة إلى

محاكاة الشعراء الأقدمين في أساليبهم وطرائق تعبيرهم. ولعل انتماء ابن عقيل إلى قبيلة عربية، ونشاته في منطقة حوران، واتصاله بزعماء بعض القبائل في مصر والشام لعل ذلك كله جعله يستشعر روح البداوة في نفسه، وانعكس ذلك على أنماط تفكيره وتعبيره. والشاهد على ذلك كثيرة في شعره، من ذلك الأبيات التالية التي ينحو فيها منحى الأقدمين في حديثهم عن الحياة الصحراوية، وتصوирهم للأطلال الدارسة، وحنينهم إلى ذكريات الحب القديم^(٧١):

أشاكك رسمَ بعد أسماء أوحشاً تخال بقاياد الكتاب المرقشَا
وكان مصيفاً للحسانِ ومربيعاً ومحنةً لمن أحبتَه ومعرضاً
ليالي يدعونا الصبا فنجيبيه فيرضي الهوى عنا ويغضب من وشى

ويبدو تمثيل الشاعر لمعاني الأقدمين وأساليبهم في الأبيات التالية التي يصف فيها الظعلن، متغرياً بجمال نسوتهن، ومصوراً غيره قومهن عليهم، ودفعهم عنهم^(٧٢):

لله ظعن من عقيل وذعوا فاستودعوا قلبي عقيل عقالٍ
بيضٌ وسُمرٌ كلَّ أيض صارمٌ عنها يذود وكلَّ أسمٌ ذابلٌ
من كلَّ ظاميَّة المعاطف خرعبٌ ريا الروادف، لذنة المتمايلٍ

وينسج ابن عقيل على أساليب الأقدمين، ويستلهم ألفاظهم وتعابيرهم، ويقلدhem في معانيهم وأفكارهم حين يصف رحلته إلى المدوح على ظهر ناقه قوية، مصطنياً الألفاظ الصعبة، والكلمات الجافية، والصور البدوية^(٧٣):

وإلا فسرَ الهمَّ عنك بعندلٍ من الهوج ميلاء الذراعين عرميسٍ
هجانٌ من الصهب العثانيين تتنمي إلى شدنٍ كالفنق المجرفيسٍ
دمول إذا أمنتها عرض الفلا ضباء وفي جنح الظلام المعسوس

وإذا كان ليس من السهل رد الأشعار السابقة إلى أصولها في الشعر القديم، فإن ثمة أشعاراً أخرى يسهل ردها إلى قصائد بعينها. وهذا النمط يكون فيه التقليد ماثلاً على نحو واضح في الصياغة والمعنى والوزن والقافية، من ذلك قصيدة^(٧٤):

أعد ذكر نجد والمقيمين في نجد فلولا هو نجد صحوت من الوجد

فالنسيب فيها ذو صلة قوية بقصيدة ابن الدمينة، التي مطلعها^(٧٥):

ألا هل من بين المفرق من بُدَّ وهل لليل قد تسُلُّن من ردَّ

ومما يدل على أن ابن عقيل كان يستدعي معاني قصيدة ابن الدمينة السابقة التشابه بين معاني بعض أبيات الشاعر اللاحق وأبيات الشاعر السابق. فالبيان التاليان لابن عقيل:

فإن صبا نجد يهيج صبابتي إذا هاج رياها عن البيان والردد
نأت وتصدت للصدود، وللنوى مع الوصل خير من رخو على البعد

يشبهان لفظاً ومعنى قول ابن الدمينة:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادني مسراك وجداً على وجد
 بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد
 على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذى عهد

وقصيدة ابن عقيل التي مطلعها^(٧٦):

عرف الغرام وأنكر الأطلالاً إذ لم تُجب عند الخطاب سؤالاً

تدل على أن الشاعر كان ينظر على نحو واع في قصيدة جرير التي
مطلعها^(٧٧):

حي الغدأة برامـة الأطلاـلا رـسما تـحمل أـهـلـه فـاحـالـا

فقد ذكر ابن عقيل أنه تفوق في قصيده تلك على قصيدة جرير، وأربى
عليها، وذلك في قوله:

أنـسـتـ جـرـيراـ بالـجـالـلـةـ قـولـهـ حـيـ الغـدـأـةـ بـرـامـةـ الأـطـلاـلاـ

وواضح مما سبق أن هناك تشابهاً في الموضوع بين قصيده ابن عقيل
وقصيده ابن الدمينة وجرير، بيد أن هناك قصائد أخرى حاكها ابن عقيل دون
أن تجد تماثلاً في الموضوع بين القصائد السابقة والقصائد اللاحقة، وإنما يجد
التماثل واضحاً في الوزن والقافية والصور والتعابير، أما الموضوع فمختلف.
من ذلك قصيده التي قالها في رثاء حوران^(٧٨):

جار الزـمانـ عـلـىـ سـكـانـ حـورـانـ لاـ كانـ دـهـرـ قـضـىـ بالـجـورـ لـاـكـانـاـ

فوزن هذه القصيدة وقافيتها وكثير من ألفاظها وتراتيبها وصورها مسلوحة
من قصيدة جرير التي مطلعها^(٧٩):

بـاـنـ الـخـلـيـطـ وـلـوـ طـوـعـتـ ماـ بـاـنـاـ وـقـطـعـواـ مـنـ حـبـالـ الـوـصـلـ اـقـرـانـاـ

ولعل ارتباط الشاعرين بمنطقة حوران هو الذي جعل الشاعر الثاني يترسم خطى الشاعر الأول في هذه القصيدة وغيرها، بالإضافة إلى أن الإطار المكاني للقصيدتين السابقتين واحد. وأورد فيما يلي طائفة متفرقة من قصيدة ابن عقيل تتلوها طائفة ثانية من قصيدة جرير لنرى كيف تأثر الشاعر اللاحق بالشاعر السابق. يقول ابن عقيل:

كانوا يجرون من جور الزمان فقد أضحوا من الجور في الأمصار جيرانا يوماً بأوجع مني إذا وقفت على تلك القرى وتذكرت الذي كانا كأن أطعانهم والآل يرفعهما سفائن أشرعت أو نخل بيسانا ترى يعود إلى الأوطان ساكنها فأنظر الدارس الآيات عمرانا صاح الجلاء بهم صوتاً فما لبثوا أن جاووه زرافات ووحدانا

فهذه الأبيات يقابلها من قول جرير الأبيات التالية:

هي المنازل إذ لا نبتغي بدلأ بالدار دارأ ولا الجيران جيرانا أوليتها لم تلتفتا علاقتها ولم يكن داخل الحب الذي كانا كان أحدا جهم تحدي مقيمة نخل بملهم أو نخل بقرانا هل يرجعن وليس الدهر مرتجعاً عيش طالما احلوى وما لانا جهلاً تمنوا حدائي من ضلالهم فقد حدوثهم مشى ووحدانا

غير أنَّ هذا الأسلوب التقليدي لم يكن ليمنع ابن عقيل من أن يتأثر بمظاهر الصنعة اللغوية التي شاعت بين شعراء عصره آنذاك، حتى في بعض القصائد التي يصطمع فيها صور التعبير لدى الشعراء العذريين، كما في قوله متكتراً من الطلاق والجناس على نحو يدل على أنه لم يكن له غاية فنية من وراء ذلك إلا هذه اللغوية الظاهرة^(٨٠):

لام وعذري قائم في الهوى العذري ألام ، ووجدي ليس يصدر عن صدري؟

وحتَّام قلبي ابن أسرِ الذي به من الحب، ظلَّ الدَّمْعُ والَّسْقُمُ في جَهَرٍ؟
يُنْمِ شَحْوَبِي عن شَجْوَنِي التَّيْ نَمَتْ فِي سَعْدِي وَجَدِي، وَيَخْتَنِي صَبْرِي

ولم تكن الصنعة في شعر ابن عقيل مقصورة على البديع بأنواعه، وإنما
تعدته إلى التلوين في الأوزان والقوافي، فنظم قصيدة تقرأ على غير ما قافية
واحدة، وعلى خمسة أوزان، وما ورد فيها قوله^(٨١):

اسأل يجْبَكَ مِنَ الْمَعْظَمِ	نَبِلَةً	الْمُتَوَفِّرُ	الْإِحْسَانِ	وَالْإِكْرَامِ
سَيْلَةً مِنَ الرَّفَدِ الْعَرْمَرَمْ	وَبَلَةً	الْمُتَنَعِّجُرُ	الْهَتَانِ	وَالْإِنْعَامِ
يُنْبِيكَ عَنْ عَيْسَى بْنِ مَرِيمَ	شَكَلَةً	الْمُسْتَظْهَرُ	الْبَرَهَانِ	وَالْإِعْظَامِ
ثَبَتَ إِذَا الْمَقْدَامُ أَحْجَمْ	مَثَلَةً	فَمُدَمَّرُ	الْأَوْثَانِ	وَالْأَصْنَامِ

وقد ينحو ابن عقيل في قليل من أشعاره أسلوباً ميسراً يمتاز بالسهولة
والوضوح، والاقتراب من اللغة المحكية، واستعمال الألفاظ النابية - أحياناً -
وغير النابية مما يشيع على ألسنة العامة. وقد رأينا طرفاً من ذلك في أشعار
الهجاء، ونجد مثل هذا الأسلوب السهل في الأبيات التالية التي قالها يبشر بولالية
أحد الأمراء، وتنترب هذه الأبيات من اللغة العادية اقتراباً شديداً، وغاية ما هنالك
أن ابن عقيل أعرَبَ كلامه، ورتب أجزاءه^(٨٢):

أَذْنَ فِي الْأَقْطَارِ دَاعِي الرَّشَادِ حَسِيْ عَلَى السَّعْدِ وَنِيلِ الْمَرَادِ
وَارْتَجَعَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ وَعَادَ مَا كَانَ يَرْغُمُ الْأَعْدَادِ
وَحَلَّ فَتْحُ الدِّينِ فِي حِصْنِهِ ذِي الْمَنْظَرِ الْأَعْلَى الرَّفِيعِ الْعَمَادِ

ومع أن ابن الشumar الموصلي ذكر أن ابن عقيل كانت له القدرة على ارتجال الشعر، إلا أن طابع الخفة الارتجالية لا يبدو في شعره وإنما يبدو فيه - أحياناً - شيء آخر ربما كان من أثر هذا الارتجال، وهو أن بعض شعره يحمل أحياناً علامات الفجاجة والتعبير المرسل دون صدق، بالإضافة إلى التكرار الذي قد يدل أيضاً على ضآلته في المحصول الفكري للشاعر، حيث تستحوذ عليه أنماط من المعاني والتعابير بصورة تسترعى النظر، كما في الأمثلة التالية المأخوذة من قصائد مختلفة^(٨٣):

- * ينمْ شحوبِي عن شجوني التي نمت فيسعدني وجيء، ويخذلني صبّري
- * ينمْ شحوبِي عن شجوني إذ نمت بهن ويبدي الدمع ما في أضالعي
- * نم شحوبِي عن شجوني إذ نمت ما حيلتني وأدمعني تكلّم

وحين ننظر إلى الصورة في شعر ابن عقيل فإنه يستتبّ لنا أنَّ الشاعر لم يكُنْ قريحته في تطلب الصور الجديدة أو المولدة التي كانت مقياساً في الحكم للشعر في عصره، وإنما ظل يردد في شعره الصور التيكثر دورانها في أشعار السابقين، ومن ثم فإن جلَّ صور ابن عقيل صور نمطية جاهزة. ومع ذلك فقد تجد بعض الصور التي تصرف في إخراجها، فبدت جديدة أو كالجديدة، على شاكلة قوله يتحدث عن أخلاق أحد ممدوحيه^(٨٤):

خلقَ أرقَّ من الصهباء لوقطرت يوماً على الملح قطرةً عذباً

وقوله مصوراً الدنيا امرأة تلد لتقتل أبناءها^(٨٥):

ولدت لتقتل ولدها بعقوتها يا ليتها قبل السولاد عقيم

غير أنَّ بعض محاولات ابن عقيل للإتيان بالصور الجديدة تبدو فجةً

غير مستساغة كما في الأبيات التالية التي يصور فيها نفسه نبياً بُعث إلى الناس
يدعوهم إلى المحبة، ثم يستطرد في الصورة فيجعل لنفسه معجزة وأنصاراً
وديننا^(٨٦):

بَعْثَتْ نَبِيًّاً لِلْمُحَبَّةِ دَاعِيًّا إِلَى الْحُبَّ عَنْهَا مِنْ يَصْدَ وَيَصْدُ
فَعَجَزَ أَيَّاتِي خَضْوعِي وَذَلْتِي وَصَبْرِي وَأَنْصَارِي الْأَسْيِي وَالْتَّائِسِي
فَأَظَاهَرْتُ لِلْعَشَاقِ دِينَ صَبَابِيَّةً بِهَا الْحُبُّ أَضْحَى لِلْمُحَبِّينَ يَعْرُفُ

ومع أنَّ ابن عقيل لم تكن لديه القدرة الفنية التي تسعفه على ابتكار
الصور، فإنه وبتأثير من مقاييس عصره، كان يعتمد إلى الإكثار من التشبيهات
والاستعارات المستدعاة من الذاكرة، في البيت الواحد أو في الأبيات المتلاحدة،
حيث لا تغدو للشاعر أية غاية إلا تكديس الصور البينية، على شاكلة قوله^(٨٧):

وَيَدِرِّ مِنْ الْجُوزَاءِ صِيغَ نَطَاقِهِ مِنْ النَّجْمِ قَرْطَاهُ، دُجَاهُ مِنْ الشَّعْرِ
يُشَيرُ بِعَنَابِ وَيَرْنُو بِنَرْجِسِ وَيَسْفُرُ عَنْ بَدْرِ، وَيَبْسُمُ عَنْ دَرِّ
نَضَا الْبَيْضِ مِنْ سَوْدَ وَهَرَّ قَوَامِهِ فَصَالَ عَلَى الْعَشَاقِ بِالْبَيْضِ وَالسَّمْرِ

لذلك لم تؤدِّ الصورة في شعر ابن عقيل أكثر من وظيفتها البلاغية،
كاستعمالها دليلاً على صحة المعنى، ووسيلة للإقناع بطريقة غير حاسمة، كما
في قوله^(٨٨):

أَنَا ذَاك الشَّهَمُ الَّذِي بَفْرَاقَ الْأَهْلَ سَلَ وَالدَّارَ إِنْ نَأَى لَا يَبْلِي
لَا تَنَالَ الْحَمْدُ الظَّبَا وَهِيَ فِي الْأَغْمَادِ مَادَ حَتَّى تَسْلِيْ يومَ الْقَتَالِ
وَالْهَبْزُرُ الْهَصُورُ فِي الغَيْلِ إِنْ أَخْلَى لَدَ سَاقِ الرَّدَى إِلَى الْأَشْبَالِ

كما أدت الصورة وظيفتها في التزيين، كما في الأبيات التالية التي يصف فيها جمال أحد الغلمان الآتراك، مستعملاً الصور اللونية التي تمثل حمرة خديه ووضاءة وجهه، والصور الذوقية التي تمثل لذة ريقه، والصور الشمسية التي تمثل طيب رانحته^(٨٩):

فخذاه ورد والعذار بنفس سج ورياه مسنك، والراشف فرقف
كان محياه الوضيء وفرعنه صباح وليل مستثير ومسدف

وصور ابن عقيل معظمها من المنظور، وهو يقف فيها عند الشكل الخارجي، ولا يرتفع بها إلى درجة الإيحاء الفني. وهي كذلك صور جزئية لا يأتُف من مجموعها صور كبرى.

التوثيق:

- (١) ابن الشعّار، عقود الجمان (ميكروفلم): ١ : ١٢٣ .
(٢) المصدر المأبقي: ١٢٣:١ . وقد ذكر ياقوت هذه القرية باسم "زرّاً". وأشار إلى أنها تعرف في عصره باسم زرّاع وأنها من حوران، ياقوت: معجم البلدان: (زرّا). وانظر كذلك: العمري، مسالك الأنصار (دولة العمالق الأولى): ١٩٠ .
(٣) عقود الجمان (ميكروفلم) ١: ١٢٣ .
(٤) المصدر المأبقي .
(٥) ابن عقيل الزرعى، المختار من ديوان ابن عقيل الزرعى (ميكروفلم): ٥ .
(٦) مرو العلاة: لم أجد موضعاً يعرف بهذا الاسم، وثمة قرية تعرف بـ (مرو) تقع شمال شرق إربد من الأردن، لعلها المقصودة، وثمة موضع آخر اسمه "العلاة" ذكر البكري أنه أرض بالشام. البكري معجم ما استجم: ٣ : ٩٦٣، ٩٨٠ . بيت راس: قرية في الأردن تقع إلى الشمال من إربد. ابن خردانة، المسالك والممالك : ٧٨ ابن عبد الحق ، مراصد الأطلاع: ٤١:١ . إربد مدينة في شمال الأردن. ياقوت، معجم البلدان : (إربد)

Robinson 3.533

الحصن: قرية تقع إلى الجنوب الشرقي من إربد: ١١٢ Schumacher .

(٧) ابن عقيل الزرعى، المختار من ديوان ابن عقيل: ٤: ٤ .

(٨) المصدر المأبقي: ٤٢ .

(٩) المصدر نفسه: ٤٥ .

(١٠) قال هذه القصيدة يمدح متولي ثغر الإسكندرية، ومطلعها:
هي الدار ما بين اللسوى والمعرس فمع بالعطايا الهوج فيها وعرس

المختار من ديوان ابن عقيل: ٦١ .

(١١) انظر المختار من ديوان ابن عقيل: ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٦٨ .

(١٢) مطلعها:

أضاعت بك الأيام وابتهاج الدهر وطال بك الإسلام وانخفض الكفر

المختار من ديوان ابن عقيل: ١٣ .

(١٣) مطلعها:

أجد المقال لدى أجمل مقام فقد نطقت أمام خير إمام

المختار من ديوان ابن عقيل: ١٢ .

(١٤) منها قصيدة مطلعها:

اللام أعني في الهوى وأعذف وحتماً يجفونى الحبيب وأعطف

المختار من ديوان ابن عقيل: ٥٠.

(١٥) معلم القصيدة التي قالها منها بالعيد:

الصبر ينقض والفرام يزيد والدعام يعيذ

المختار من ديوان ابن عقيل: ٦٣

(٦١) مطلعها:

سقى عطفه ماء الصبا فقاً وادا وأسكنه خمر الدلال ففردأ

المختار من ديوان ابن عقيل: ٥٥.

(١٧) مطلعها:

رفعت للملك مجدًا يخوض الشهابا ونال في عصرك الإسلام ما طلبا

المختار من ديوان ابن عقيل: ٣٨

(١٨) مطلعها:

مشات بقد السمهري الأهيف ورنت بحد المشرفي الأهيف

المختار من ديوان ابن عقيل: ٢٦

(١٩) مدح في هذه السنة الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك، والملك العزيز عثمان، والملك الأشرف (له فيه ثلاثة قصائد)، والملك المعظم عيسى، والملك الناصر داود.

انظر المختار من ديوان ابن عقيل: ٢٢، ٥٩، ٦٠، ٧٣، ٧٤، ٧٥.

^{٢٠}) انظر المختار من ديوان ابن عقيل: ٧٦.

(٢١) نظر ابن الشعاز أن ابن عقيل توفي سنة ٦٢٣هـ، بينما ورد في الصفحة الأولى من

المختار من ديوانه أنه توفي سنة ٦٢٢هـ، ودفن بمقابر باب الصغير من دمشق.

(٢٢) المختار من ديوان ابن عقيل: ٧.

^{٦٢} (٢٣) المصدر السابق:

١٦) المصادر نفسه :

٢٥ (٤:٥)

٤٦ (٢)

۱۸:۲۷ (۲۷)

- (٢٨) نفسه: .٧.
 (٢٩) نفسه: .٢٧.
 (٣٠) ذكر بروكلمان هذه النسخة في كتابه تاريخ الأدب العربي :٥٠ .
 (٣١) المختار من ديوان ابن عقيل: .٢.
 (٣٢) المصدر السابق: .٤٨.
 (٣٣) المصدر نفسه: .٢٠.
 (٣٤) نفسه: .٢٧.
 (٣٥) نفسه: .١٧.
 (٣٦) نفسه: .٢٩.
 (٣٧) نفسه: .٥٩.
 (٣٨) نفسه: .٥٦.
 (٣٩) نفسه: .٧.
 (٤٠) نفسه: .٣١.
 (٤١) نفسه: .٦٤.
 (٤٢) نفسه: .٧.
 (٤٣) نفسه: .٩١.
 (٤٤) نفسه: .٥٠.
 (٤٥) نفسه: .٤١.
 (٤٦) انظر إشارات إلى هذا الاجتياح في: ابن واصل، مفرج الكروب :٤؛ أبو شامة المقدسي، الذيل على الروضتين :١٠٢.
 (٤٧) د. عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية: .١٥.
 (٤٨) المختار من ديوان ابن عقيل: .٣٩.
 (٤٩) ورد فوق هذه الكلمة كلمة (زرافات).
 (٥٠) قال ناسخ الديوان: (علّها أمراس).
 (٥١) ما بين المعقوفتين بياض في الأصل، والزيادة من عندنا.
 (٥٢) بصرى: تقع في جنوبى حوران إلى الشرق من درعا. ياقوت، معجم البلدان: (بصري) أبو الفداء، تقويم البلدان: .٢٥٢.
 الرمثا: مدينة تقع شمال الأردن على الحدود السورية. بيركھارت، رحلات بيرکھارت: .١٤.
 نجران: قرية إلى الشمال الغربى من المويدة فى سوريا . لبن عبدالخالق، مراصد الاطلاع :٣، ٢٠٠، ياقوت، معجم البلدان: (نجران).

- (٥٣) حبّال : من قرى وادي موسى في الأردن. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع ١: ٢٨٣ .
 ياقوت ، معجم البلدان: (حبال). السراة: سلسلة جبلية إلى الجنوب من البحر الميت: ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع ٢: ١٠٠ . ياقوت، معجم البلدان: (السراة). ماب (مأب ومواب): مدينة في جنوب الأردن. ياقوت، معجم البلدان (مأب). المقدسى، أحسن التقسيم: ١٧٨، ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع ٢: ٢٥ .
- (٥٤) المختار من ديوان ابن عقيل: ٥١.
- (٥٥) المصدر السابق: ٥١.
- (٥٦) المصدر نفسه: ٥٢.
- (٥٧) دعبد الغزاعي، ديوانه: ٢٤٤.
- (٥٨) المختار من ديوان ابن عقيل: ٥٤.
- (٥٩) المصدر السابق: ٥٤.
- (٦٠) المصدر نفسه: ٧٦.
- (٦١) نفسه: ٧٦.
- (٦٢) نفسه: ٦٤.
- (٦٣) نفسه: ٦٤.
- (٦٤) نفسه: ٣٣.
- (٦٥) نفسه: ٧١.
- (٦٦) د. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ٣٢ .
- (٦٧) الجرجاني: الوساطة بين المتباين وخصومه: ٤٧ .
- (٦٨) المختار من ديوان ابن عقيل: ١٤ .
- (٦٩) المختار من ديوان ابن عقيل: ٤٠ .
- (٧٠) المصدر السابق: ١٢ .
- (٧١) المصدر نفسه: ٤٩ .
- (٧٢) نفسه: ٥٦ .
- (٧٣) نفسه: ٥٧ .
- (٧٤) نفسه: ٢٩ .
- (٧٥) ابن الدمينة، ديوانه: ٨٠ .
- (٧٦) المختار من ديوان ابن عقيل: ٧ .
- (٧٧) جرير، ديوانه ١: ٤٧ .
- (٧٨) المختار من ديوان ابن عقيل: ٣٩ .
- (٧٩) جرير، ديوانه ١: ١٦٠ .
- (٨٠) المختار من ديوان ابن عقيل: ٢ .

- .٧٧) المصدر السابق: (٨١)
- .٥) نفسه: (٨٢)
- .١٢، ٥٦، ٢) نفسه: (٨٣)
- .٣٨) نفسه: (٨٤)
- .٤١) نفسه: (٨٥)
- .١١٥) نفسه: (٨٦)
- .٢) نفسه : (٨٧)
- .٤١) نفسه: (٨٨)
- .٥١) نفسه: (٨٩)

المصادر والموارد

أولاً: المخطوطات:

١- ابن الشعار الموصلي، أبو البركات مبارك: عقود الجمان من شعراء هذا الزمان، ميكروفilm رقم ٣٣٩ تاريخ، معهد إحياء المخطوطات العربية، القاهرة.

٢- ابن عقيل الزرعبي، أحمد بن عقيل بن نصير: المختار من ديوان ابن عقيل الزرعبي، مخطوط ، مكتبة طبقبو سراي، تركيا، رقم ٢٨١٦.

ثانياً: الكتب المطبوعة:

٣- د. إحسان عباس: تاريخ النقد العربي من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري: نقد الشعر، دار الأمانة ومؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧١.

٤- بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ترجمة د. رمضان عبدالتواب، دار المعارف، القاهرة، ط ٣ ، ١٩٨٣ .

٥- البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز: معجم ما استجم من أسماء البلاد والمواقع، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، د. ت .

٦- بيركمارت، لودفس: رحلات بيركمارت، ترجمة أنور عرفات، وزارة الثقافة، عمان، ١٩٦٩ .

٧- الجرجاني، القاضي علي بن عبد العزيز: الوساطة بين المتباين وخصومه، تحقيق محمد أبي القضل إبراهيم وعلى محمد الجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٥ .

٨- جرير بن عطية، ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق د. نعman محمد، دار المعارف، القاهرة، ط ٣ ، ١٩٨٦ .

٩- د. حسين عطوان: مقالات في الشعر ونقده، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧ .

١٠- ابن خردانبة، أبو القاسم : المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٩ .

- ١١- دعبدل بن علي الخزاعي: ديوانه، جمعه وقدم له وحققه عبد الصاحب عمر الدجيلي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٧٢.
- ١٢- ابن المدينة : ديوان ابن المدينة صنعة أبي العباس ثعلب ومحمد بن حبيب، تحقيق أحمد راتب النفاخ، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ١٣٧٩هـ.
- ١٣- أبو شامة المقدسي: تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤.
- ١٤- د. عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، دار البشير، عمان، ١٩٨٩.
- ١٥- ابن عبد الحق، صفي الدين: مراصد الاطلاع على أسماء الأماكنة والبقاء، مطبعة بريل ، ليدن، ١٨٥٢.
- ١٦- العمري، ابن فضل الله شهاب الدين: مسالك الأبصرار في ممالك الأنصار، دولة العماليك الأولى، تحقيق دوروثيا كرافوسكي، المركز الإسلامي للبحوث بيروت، ١٩٨٦.
- ١٧- أبو الفداء إسماعيل، تقويم البلدان،؟، بغداد، د.ت.
- ١٨- المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، ط٢، ١٩٠٦.
- ١٩- ابن واصل، جمال الدين محمد: مفرج الكروب في أخبار ملوك بنى أيوب، تحقيق د. جمال الدين الشيال، دار إحياء التراث القديم ، القاهرة، ١٩٥٣.
- ٢٠- ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

- 21- Robinson, Edward: Biblical Researches in Palestine and the Adjacent Regions, Jerusalem, 1970.
- 22- Schumacher, Gottlieb: das Suedliche Basan, ZDPV, 1897, 20: 65-227.

المرافعة الفضائية

نشأتها وأصولها... لغتها... أساليبها... طرق أدائها

د. سلمان القضاة

جامعة اليرموك

لغة:

يبدو أن لفظة (المرافعة) لم تكن متداولة صراحة أيام وضع المعاجم التراثية الأولى. فحن لم نعثر في أي منها على أي دليل واضح يفيد أنها قد استعملت. وما وجدناه حقيقة لا يتعدى كونه إشارات إلى مفهومها في الوقت الحاضر.

فقد جاء في اللسان: "الرفيعة: ما رفع به على الرجل، ورفع فلان على العامل رفيعة، وهو ما يرفعه من قضية ويلغها.... والرفع هذا من رفع فلان على العامل إذا أذاع خبره وحكي عنه"^(١).

وجاء في القاموس المحيط: "رفعه: ومنه رفعته إلى السلطان رفعان"^(٢) وفي تاج العروس يقترب المعنى اللغوي للمرافعة من الفهم المعاصر لها، فيقول صاحب التاج: "ومن المجاز (رافعه إلى الحكم) مرافعة: قدمه إليه ليحاكمه وشكاه"^(٣).

لكن المعاجم المعاصرة تورد هذه اللفظة لتدل، بشكل صريح، على معناها المتداول، ففي المعجم الوسيط نجد: "رافعه: رفعه. و_____ إلى الحكم وغيره: رفع الأمر إليه وشكاه. ويقال: رافعه وخافضه: داوره كل مداورة. (ترافعاً) إلى الحكم: تحاكماً. و_____ المحامي عن المتهم أمام القضاء: دافع عنه بالحجة"^(٤).

اصطلاحاً:

وكما أن لفظ المرافة لم يكن مستعملًا قديمًا، فإننا لا نجد لها معنى اصطلاحياً بالنظرها هذا، وهذا لا يعني أن المرافة بمفهومها المعاصر لم تكن معروفة قديماً، لكنها كانت مستعملة منذ العصر اليوناني باسم الخطبة القضائية. ففي حديثه عن أنواع الخطابة، يتحدث أرسطو عن الخطبة القضائية ويعرف لنا ماهيتها بكلام يسمح في تحديد مفهوم المرافة الاصطلاحي، إذ يقول إنها تتوجه إما إلى الاتهام وإما إلى الدفاع، ومهمة المتقاضين لا تخرج بالضرورة عن القيام بواجب من هذين^(٥).

ولكن المعجم الوسيط يقدم تحديداً أو في مفهومها، فقد ورد فيه أن "المرافة: إجراءات مقررة لتصحيح الدعوى والسير فيها. وقانون المرافعات: قانون ينظم الإجراءات التي تتبع في رفع القضايا أمام المحاكم"^(٦).

المرافة القضائية في التاريخ

أ- عند الأمم القديمة

لم يخل من الخطابة سجل أمة وعى التاريخ ماضيها، فمنذ اجتمع الناس في مكان واحد وتفاهموا بلسان واحد، عرفوها، إذ إنه من الطبيعي أن يختلفوا في رأي أو عقيدة، وأن يتنافسوا على غنيمة أو متعة أو سلطة، فنجد لها محفوظة في الخط المسماري الآشوري، وفي الخط الهiero-غليفي الفرعوني^(٧).

ثم جاءت الحضارة اليونانية فاجتمع للخطابة مقومات ازدهارها من حرية وطموح إلى حياة أرقى، وانتشار للتعليم وازدهار للثقافة وحكم دستوري وكثرة المؤتمرات وغيرها. ويوجز الدكتور أحمد الحوفي أسباب ازدهار الخطابة عند اليونان بقوله "لما شعت أنوار العلم والفلسفة، وازدانت أثينا وغيرها بالعلماء وال فلاسفة والشعراء والفنانين، وقويت الديمقراطية في جميع المدن وتناقض الأفراد وتطاھنت الأحزاب، وكثير النزاع والتناقض أمام المحاكم الشعبية، شاع

الجدل السياسي والقضائي فاشتهدت الحاجة إلى تعلم الخطابة^(٨)، فاتجه الناس إلى تعلمها والتدريب عليها والتمرن على الإلقاء وتعويذ اللسان على النطق الصحيح، فبدأ العلماء يستبطون قواعد الخطابة وقوانينها، وكان السفسيطانيون أول من اتجه إلى استبطان تلك القواعد في القرن الخامس قبل الميلاد، وجاء من بعدهم أرسطو فجمع قواعد الخطابة وضم شواردتها في كتاب أسماه "الخطابة" صار مرجعاً للخطباء^(٩). ويصف أحمد الحوفي الأساس الذي اعتمدته أرسطو للخطابة فيقول: "وأسسها على الجدل، وأقامها على الدليل، وبناتها على التركيب والتحليل النفسي، وأوجب على الخطيب أن يتعرف إلى نفسية الجمهور ليخطب فيه بما يناسبه ويبلّأ حاليه"^(١٠). وهذا أدى إلى انتزاع الفلسفة بالخطابة وتمثل البلاغة فيها. وكباقي أنواع الخطابة، فقد اشتهرت الخطابة القضائية، إذ كانت الدعاوى والرد عليها في المحاكم ميادين قول مترامية الأطراف. ولما كانت شريعة البلاد تقتضي أن يتكلم صاحب القضية في قضيته، فلا يجوز توكيل محام كما هو الحال عندنا للدفاع عن غيره، كان أصحاب القضية يلجأون إلى الخطباء يتلمسون منهم تأليف الخطاب ليحفظوها ويتلوها في مجالس القضاء^(١١). وهذا يستدعي أن يتميز في المجتمع فئة تعين المتقاضين وتعد لهم الخطاب بمقدار ما أوتيت من قدرة ومراس وتمكن من تبني قضايا الآخرين وكأنها قضاياهم فيحيلونها خطباً، وما لبث هذه الأمر أن صار مهنة ومورداً رزقاً. وقد استمرت الخطابة في العهد اليوناني، بما في ذلك الخطابة القضائية، ما استمرت فيهم الحرية السياسية. وقد اشتهر العديد من الخطباء اليونانيين مثل لوسياس (حوالي ٤٤٠ - ٣٨٠ ق.م.) الذي كان محاماً قامت شهرته بالدرجة الأولى على الخطاب القضائية مما يكتبه للمتقاضين، وقد اعتبره معاصره أشهر المحامين وأبرعهم، إذا كان أقدر الخطباء على تقمص شخصية موكله وفهم ظروفه^(١٢). وقد اعتبرت خطبته القضائية التي برأ بها قائل (أراثوسبيثيس) نموذجاً للخطبة القضائية^(١٣).

وقد اشتهر خطيب آخر في أثينا هو (ديموسثينيس)^(١٤). وتبعه خطباء آخرون برعوا في الخطبة القضائية، أمثال أنطفيون ٤٨٠ق.م.، وأنتروسيد ٤٤٥ق.م، ولزياس ٤٤٠ق.م وبرعوا في مرافعات عن أمور خاصة أو في

فلما سادت الحضارة الرومانية كان من الطبيعي أن يتبع الرومان أثر أساتذتهم اليونانيين في الخطابة، فكانت الخطابة عند الأمة الرومانية شبيهة بتلك عند اليونانيين. وكان في أصل النظام الروماني نفسه ما يهيئ فرصة مناسبة للخطابة، ذلك أن الرومان يسمحون للمحامين أن ينوبوا عن المتقاضين ويلقىوا الخطب نيابة عنهم أمام القضاة وبحضور جمع من الناس لهم الحق في شهود المحاكمة. وكان أشهر خطبائهم على الإطلاق شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق.م.). ويصفه محمد صقر خفاجة بقوله: "ومضى شيشرون يعلو في عالم المرافعات ويلمع في الخطب التي يلقاها في الجمعية العمومية شديداً عنيفاً وطيباً ومحباً للخير".^(١٥)

ب- عند العرب

وإذا ما تركنا الحديث عن الخطابة عند اليونان والرومان واتجهنا إلى العرب، وجدنا أن العديد من العلماء يضعون العرب في المرتبة الأولى من البيان، فقد ذكر أبو حيان التوحيدي في مقابساته، حاكياً عن أبي سليمان: "سمعته يقول: نزلت الحكمة على رؤوس الروم، وألسن العرب وقلوب الفرس وأيدي الصين"^(١٦)، وربما يرجع السبب في ذلك إلى ما يراه الدكتور أحمد الحوفي إذ يقول: "وقد ازدهرت الخطابة عند العرب في العصر الجاهلي لأنهم عاشوا طلقاء في جزيرتهم لا يجد من حريتهم تعسف من حاكم، أو نظام جائز، فهم أحراز في تفكيرهم، وفي البوح عنها والدعوة لها، حريتهم في هذه البيئة".^(١٧).

فلما جاء الإسلام كان من الطبيعي أن يحدث صراع بين أتباع هذه الدعوة الجديدة والمتمسكين بالقديم، فـأثيروا الخطباء يتتصدون للدعوة الجديدة ويحتضنونها، فيدعون إلى الدين الجديد ويكشفون مزاياه، ويزعزعون المعتقدات القيمة في النفوس وينفرون منها وسلامهم في ذلك كله الكلمة مماثلة بالخطبة، فكان من نتاج ذلك أن بلغت الخطابة أوج ازدهارها. ومع مجيء العصر الأموي

وقيام الثورات والفتن بدأ الكهول والقتيان يتبارون في الخطابة ويتسابقون في ميدانها. إلا أن العرب لم تكن لهم خطابة قضائية، إذ كانوا يعتمدون في تقاضيهم على البينة واليمين، فلم يكن هناك مجال يتبارى فيه الخطباء، ولم يكن عندهم محفرون يسعى الخطيب إلى استمالتهم وإقناعهم،^(١٨) على الرغم من أنها نجد في كتب الفقه ما يجيز الوكالة في مطالبة الحقوق، فقد ورد في المغني والشرح الكبير: "ويجوز التوكيل في مطالبة الحقوق وإثباتها والمحاكمة فيها، حاضراً كان الموكل أو غائباً، صحيحاً أو مريضاً، وبه قال مالك وأبن أبي ليلى وأبو يوسف ومحمد الشافعي، وقال أبو حنيفة للخصم أن يتمتع من محاكمة الوكيل إذا كان الموكل حاضراً لأن حضوره مجلس الحكم ومخاصمه حق لخصمه عليه، فلم يكن نقله إلى غيره بغير رضاء خصمه كالدين عليه... وإن علياً رضي الله عنه وكل عقيلاً عند أبي بكر رضي الله عنه، وقال ما قضى له فلي وما قضى عليه فعلى، ووكل عبدالله بن جعفر عند عثمان وقال: إن للخصوصة قحماً^(١٩)، وإن الشيطان ليحضرها وابني لأكره أن أحضرها".^(٢٠)

ونحن نجد بعض الأدلة التي تشير إلى وجود هذا النوع من الخطابة، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي اتفقت الكتب الستة على روایته قوله: "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِّمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونُ الْحَنْبَلُ بِحِجَّةِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعَ، فَمَنْ كَنْتَ قَطَعْتَ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً، فَبَانِما أَقْطَعْتَ لَهُ قَطْعَةً مِنَ النَّارِ"^(٢١). ففي هذا الحديث ما يدل دلالة واضحة على وجود الخطبة القضائية في العصر الإسلامي الأول، بل ربما كانت فصاحة الخطيب وبيانه ذات الأثر الأكبر في صدور الأحكام، كما يخبرنا الحديث الشريف. وفي القرآن الكريم العديد من المواقف التي لا يسعنا إلا أن نعدها من قبيل المرافعات القضائية، ففي قصة مريم، يشير قومها إليها بأصابع اتهام، إذ جاءتهم بصبي دون أن يمسها رجل، فيأتي الأمر الرباني إلى ولدهما عيسى عليه السلام ليدافع عنها ويرنها من التهمة الموجهة إليها، يقوم تعالى: "فَأَتَتْ بِهِ قَوْمُهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرِيمَ لَقَدْ جَنِّتْ شَيْئاً فَرِيَا، يَا أَخْتَ هَارُونَ، مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأً سُوءً وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بُغْيَا، فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكْلُمُ مَنْ كَانَ فِي

المهد صبياً، قال إبني عبدالله أتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلة والزكاة ما دمت حياً، وبراً بوالدي ولم يجعلني جباراً شقياً، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً^(٢٢). وفي سورة الأنبياء يذكر الله تبارك وتعالى قصة إبراهيم مع قومه عندما اتهموه بتحطيم أصنامهم، فيقف عليه السلام يقارعهم الحجة مدافعاً عن نفسه ومسفها رأيهم وموبخاً إياهم على عبادتهم أصناماً من دون الله لا تضر ولا تتفع. يقول تعالى: قالوا من فعل هذا بأهليتنا إيه لمن الظالمين، قالوا سمعنا فتنذكرهم يقال له إبراهيم، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون، قالوا أنت فعلت هذا بأهليتنا يا إبراهيم، قال بل فعله كثيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إيكم أنت الظالمون، ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون. قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم. أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعبدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفْلَا تَعْقِلُونَ^(٢٣). ويحوي القرآن الكريم العديد من هذه المواقف التي يمكن عدها مرافعات قضائية^(٢٤).

إضافة إلى هذه النماذج من القرآن الكريم، تورد بعض كتب الأدب نماذج تعطي صوراً لبعض المخاصمات القضائية التي يتخللها مواقف تعد من قبيل الخطب القضائية. من أشهر تلك المخاصمات ما حصل بين أبي الأسود الدؤلي وأمراته التي طلقها وأراد أن ينتزع ابناً لها منها فابت واحتكم إلى زياد أو إلى معاوية في رواية أخرى؛ فقللت المرأة مدافعة عن حقها في حضانة الولد: "أصلح الله الأمير، هذابني كان بطني وعاءه، وحجر ينادي سقاءه، أكلوه إذا نام، وأحفظوه إذا قام، فلم أزل بذلك سبعة أعوام حتى إذا استوفى فصاله وكلمت خصاله وأملت نفعته ورجوت دفعه، أراد أن يأخذه مني كرهاً فأندلي إليها الأمير، فقد رام قهرني وأراد قسرني". فقال أبو الأسود: "أصلحك الله، هذا ابني حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليه في أدبه وأنظر في أوده، وأمنحه علمي، وألهمه حلمي، حتى يكمل عقله ويستحكم فتلته. فقللت المرأة: صدق، أصلحك الله، حمله خفاً وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة ووضعته كرهاً". فقال زياد: "أردد على المرأة ولدتها فهي أحق به منك ودعني من سجعك"^(٢٥).

ونعثر على نص آخر لأبي عبدالله بن الفخار مدافعاً عن القاضي التوحيدى قاضى مالقة أمام الأمير إذ يقول: "إنه لمقام كريم نبدأ فيه بحمد الله على الدنو منه، ونصلى على خير أنبيائه محمد الهادى إلى الصراط المستقيم وعلى آله وصحابته نجوم الليل البهيم، أما بعد: فبنا نحمد الله الذى اصطفاك للمؤمنين أميراً، وجعلك للدين الحقيقى نصيراً وظهيراً، وتفرز إليك مما دهمنا في حماك، ونبث إليك ما لحقنا من الضيم ونحن تحت ظل علاك، ويأبى الله أن يدهم من احتمى بأمر المسلمين ويصاب بضيم من أدرع بحصنك الحصين، شكوى قمت بها بين يديك من حق أمرك الذى عضده مؤيدك لتسمع منها ما تختبره برأيك وتتفذه، وإن قاضيك ابن التوحيدى الذى أقمته فى مالقة للأحكام ورضيت به فى عدله فيما بها من الخاصة والعوام ولم يزل على حسن اختيارك" (٢٦).

ومما سبق يتبيّن لنا أن العرب لم يعرفوا المرافعة القضائية بصورةتها إلا منذ عصر النهضة، وأن ما حصلنا عليه ما هو إلا إشارات أو إرهاصات لهذا النوع من الخطبة وليس دليلاً على وجودها بشكل أصيل.

أصول الخطبة القضائية

لأشك في أن عمل الخطيب هو أن يقدم الحقائق أو ما يشبه الحقائق لإقناع سامعيه، والخطيب القضائي، في إدراك هذه الناحية، أولى من غيره، إذ يجب عليه أن يجذب المستمعين إليه، وأن يدفعهم إلى الإنصات له، والإذعان لما يقول والتسليم به لأنه يعتقد أنه يقول الحق وأنه يدافع عن الحق، وفي ذلك يقول سعد زغلول وهو أحد شيوخ رجال القانون والمحاماة والقضاء: "مجالس القضاء مكان لمغالبة الخصوم ومقارعة الحجاج، وميدان فسيح للاستدلال الخطابي، كلٌ يحاول جذب القضاء إلى فكرته، وإقرار دعواه، وإجابة طلبه" (٢٧). فغاية المرافعة، سواء أكانت في حالة الدفاع أم في حالة الاتهام، إقناع القاضي بوجهة نظر معينة، لإبراز براعة المترافق الخطابية، "كل ما ينحرف عن هذه الغاية ثرثرة لا طائل فيها أو تنجح لا يليق، وبالتالي فهو هدر للوقت وإساءة إلى الدعوى" (٢٨). ولا يستقيم هذا الأمر إذا لم يؤسس وفق أصول بحثت منذ القدم يقول فيها أرساطو:

يراعي المرء في قوله ثلاثة أشياء: أولها: وسائل الإقناع، وثانيها: الأسلوب واللغة التي يستعملها، وثالثها ترتيب أجزاء القول^(٣٩).

وأولى وسائل الإقناع هي الأدلة، وهي "ما يتوصل به إلى معرفة الحكم سلباً أو إيجاباً"^(٤٠). ولا يشترط فيها أن تكون يقينية بل يصح أن تكون ظنية قابلة أن ترفع إلى مرتبة اليقين في نفوس السامعين، وذلك بما يستعمله الخطيب من الوسائل. "والأدلة لها بنایع تصدر عنها، وتستبط منها، ويتجه إليها عند طلبها وتسمى مواضع"^(٤١). وقد تكون هذه المواضع ذاتية وهي التي تؤخذ من ذات الموضوع لا من شيء خارج عنه، وقد تكون عرضية، وهي التي تؤخذ من مصادر خارجة عن ذات الموضوع وذلك عندما لا يدرك السامع ما في ذات الموضوع من حقائق فيصعب عليه أن يقتنع بادله^(٤٢).

وفيما يخص الأدلة الذاتية فإن أهمها العلة والمعلول، ذلك أن التعليل روح الاستدلال، وكثيراً ما يستعمل المحامون ورجال النيابة الدافع على الجريمة دليلاً موجباً لتخفيض العقوبة أو تشديدها، إذ إن العلة الباعثة على الفعل طريق للحكم عليه بأنه خير أو شر، كما يتخذون من البواثت على الإقرار أو الإنكار دلائل موجبة أو سالبة. ومن أمثلة ذلك ما جاء في مرافعة أحد المحامين الفرنسيين في إثبات أن الدافع لإقرار المتهم يدعو إلى عدم الأخذ به، إذ قال: "تقولون إنه لا بد من الحكم لأنه أقر، وتقولون إن هذا الإقرار حر، أما رأيتم كيف وصف لكم الشهود ذلك المنظر؟ لم يظهروا لكم التأثير الذي كان المتهم فريسته؟ لم يظهر و يقاوم، ويبكي ويقع على الأرض، ويجذب شعر رأسه؟ لم تروا أن العذاب النفسي الذي وقع المتهم فريسته هو الذي دفعه لأن يقر، ثم ما كاد ينهض على قدميه حتى لجا إلى كل إنسان يحاول أن يسترد إقراره، فأسرع إلى محامي وطلب منه بكل الظروf أن يدفع به للمحاكمة، وصار يصبح في كل فرصة وفي كل مكان: إبني بريء إبني بريء". افترضوا يا حضرات المحلفين أن نظام التعذيب كان لايزال قائماً، وجاءكم المتهم وأثر الحديد في يديه، وقد أفلت من قسوة معذبيه، فهل كنتم تقولون له أنت مذنب، لأنك اعترفت، إنه يقول لكم: لقد رأيت دمي يتتساقط، وسمعت عظامي تتحطم، فغلبني المي، وقال الطبيب إن الموت قاب

قوسين أو أدنى، فغلبني الخوف، فأقررت، ولكني بريء، أكان منكم أنتم الذين تحاكموننا أو أنتم الذين تتهموننا، أكان منكم من يقول لقد أقررت وأنا أحكم عليك بإقرارك لا...ليس فيكم هذا الشخص^(٣٢). يتضح مما سبق أن المحامي قد اتخذ من علة الإقرار والداعي إليه حجة على بطلاه ودليلًا على عدم الأخذ به.

وأما فيما يخص الأدلة العرضية فإن الشهادات والمواثيق أهمها، إذ يصفها أبو زهرة بأنها: "الركن الركيـن للاستدلال في الخطابة القضائية، فإن الشهادات بـاب واسع للتقاضـي وهي طريق القرآن، والوسائل لمعرفة الأحوال، وفي بعض القضايا تكون هي نقطة الحوار وسبـب الخلاف وتبـاعـد مطـارـح الـأـنـظـارـ، هـذـا يـعـلـى تـزـيـفـها وـذـاك يـعـلـى تـأـيـيـدـها"^(٣٤).

وأما الحجة الأولى في الخطاب القضائية فإنـها القوانـين، وهـي من الأدلة العرضـية. فـنـرى كـلـاـ المـتـخـاصـمـين يـحاـولـ تـقـسـيرـ القـانـونـ بشـكـلـ يـتـقـنـ معـ غـرـضـهـ ومـصـلـحةـ منـ نـصـبـ نـفـسـهـ مـدـافـعـاـ عـنـهـ، وـمـنـ أـبـلـغـ الخـطـبـ القـضـائـيـةـ التـيـ اـشـتـملـتـ عـلـىـ الـاسـتـدـلـالـ القـانـونـيـ، مـرـافـعـةـ نـائـبـ عـامـ فـرـنـسـيـ فـيـ إـثـبـاتـ الجـرـيـمةـ عـلـىـ رـجـلـ مـتـهـمـ بـقـتـلـ نـفـسـيـ إـذـ قـالـ: "إـنـيـ أـمـامـ هـاتـيـنـ الجـتـيـنـ، أـمـامـ هـذـيـنـ الـجـرـحـيـنـ النـاغـرـيـنـ أـشـعـرـ بـالـنـفـورـ وـالـاشـمـنـزـازـ يـمـلـكـ نـفـسـيـ. وـيـخـيلـ إـلـيـ أـنـيـ أـرـىـ حـولـ تـلـكـ الدـارـ الـحـزـينـةـ بـجـوـارـ تـلـكـ الزـوـجـ الـذـيـ يـدـعـوـ زـوـجـهـ: وـتـلـكـ الطـفـلـةـ الـتـيـ تـنـادـيـ أـمـاـ فـلـاـ تـجـيـبـ، مـدـيـنـةـ بـأـسـرـهـ فـيـ حـزـنـ شـامـ عـامـ، وـأـرـىـ ذـلـكـ الـمـشـهـدـ الـرـهـيـبـ الـذـيـ تـبـعـهـ أـهـلـ الـبـلـدـ جـمـيـعـاـ يـشـارـكـونـ أـسـرـةـ الـفـقـدـيـنـ فـيـ حـزـنـهاـ، وـلـكـنـ لـاـ، لـاـ، إـنـيـ أـشـيـجـ بـوـجـهـيـ عـنـ هـذـاـ الـمـنـظـرـ الـمـحـزـنـ، وـأـخـلـوـ إـلـيـ نـفـسـيـ أـسـائـلـهـاـ وـرـانـديـ مـهـمـتـاـ الـمـشـترـكـةـ الـمـقـدـسـةـ، وـأـوـجـهـ تـبـعـةـ خـطـيـرـةـ، فـلـاـ أـشـعـرـ بـأـقـلـ شـكـ أوـ تـرـددـ وـأـسـمعـ صـوتـ ضـمـيرـيـ يـقـولـ لـيـ: إـنـ هـذـاـ الرـجـلـ مـذـنـبـ، مـذـنـبـ أـمـامـ اللهـ، وـمـذـنـبـ أـمـامـ النـاسـ، مـذـنـبـ لـاـ عـذـرـ لـهـ، وـهـذـاـ الـجـرـانـ الـخـطـيـرـةـ تـقـتـضـيـ عـقـوبـةـ زـاجـرـةـ رـادـعـةـ، فـالـعـدـالـةـ تـقـتـضـيـهاـ وـالـقـانـونـ يـنـصـ عـلـيـهـاـ، وـمـصـلـحةـ الـمـجـتمـعـ تـدـعـوـ إـلـيـهـاـ، وـيـقـدـرـ مـاـ أـنـ مـؤـمـنـ بـأـنـيـ أـؤـدـيـ وـاجـبـيـ حـينـ أـطـلـبـ منـكـ تـطـبـيـقـ تـلـكـ الـعـقـوبـةـ الـكـبـرـيـ، أـوـقـنـ بـأـنـكـ تـؤـدـونـ وـاجـبـكـ، حـينـ تـتـطـقـونـ بـهـاـ"^(٣٥).

ويمكن للمترافق أن يجمع بين المواقف العرضية والذاتية إذا اقتضى المقام ذلك، وقد يقتصر على أحدهما، وعند الاقتصار على العرضية يجب أن يختار أحراها بإظهار المطلوب، ويجب عليه الابتعاد عما يستغلق على العقول إبراكه أو يصعب فهمه إلا في حال مخاطبة قوم تكفيهم الإشارة عن العبارة، والتلويع عن التصريح فلا مانع أن يخاطبهم بالدقيق العميق^(٣٦).

لغة المرافعات

ما لاشك فيه أن الأفكار القانونية تبقى حبيسة في الذهن ما لم يعبر عنها باللغة، سواء أكانت هذه اللغة مكتوبة أم منطقية. وما لاشك فيه أيضاً أن الثقافة القانونية للعاملين في مجال القضاء متقاربة، ذلك أنهما يقضون سنوات وسنوات يدرسونها في معاهد العلم وفي مجال ممارستهم لمهنتهم القانونية. أما ما يتمايز به العاملون في هذا المجال فهو اللغة، إذ إنها هي التي تحدد تفوق رجل القانون أو تخلفه، فالقانوني المتفوق هو الذي يجمع إلى جانب الفكر القانوني الناجح حسن التعبير عن هذا الفكر^(٣٧). وأرسطو إذ يتحدث في هذا الموضوع يرى أن كمال الأسلوب في الشعر والخطابة يعتمد على اللغة الواضحة الدقيقة دون إسفاف في الأسلوب ودون سمو لا مبرر له^(٣٨).

وفن الخطابة عامة، والمرافعة بشكل خاص لا تبلغ النتائج المرجوة، إلا عندما يحسن الخطيب أو المترافق استعمال اللغة، وليس سهلاً على المحامي أو النائب العام أن يتراوح ببساطة ووضوح وغورية، فذلك لا يتحقق إلا بمعرفة لغوية دقيقة وإلمام عميق بأصول الخطابة. فالمرافعة في ساحة القضاء، كما يصفها الأستاذ حسن الجداوي "مباراة أسلحتها الوحيدة المعتمدة قوة البيان، وثبات الحجة، وقرع الحجة بالحجفة، والتدليل المنطقي والاستعانة -لكن بقدر - بتأثير العاطفة واستدرار رحمة الحكم الذي هو القاضي أو استئثاره غضبه واستتها ضمه لتحقيق واجبه"^(٣٩).

والحق في أكثر الأحيان جوهر نادر ثمين مستقر في الأعمق، فلا يتبلج

وحيده كما يتبارى إلى الأذهان، بل إنه يكون خفياً عن الباحث لأن الباطل يخفى
بألاعيبه، أو لأن العهد طال عليه فصار كالمعدن الكريم المستقر في الأعمق،
لذلك فمن العبث الاعتماد على قوته الذاتية، ولكن "لا بد من لسان فصيبح يكشف
الحجب عن الحق المستور"^(٤٠). والقضاء بشر، ذو وجdan تأسرهم البلاغة
ويخلبهم جمال العرض ولبن الاسترحام أو قسوة التحرير على الانتقام"^(٤١) وقد
قال رسول صلى الله عليه وسلم: "إنما أنا بشر، وإنما يأتيني الخصم، فعلم بعضهم
أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق، فأقضى له، فمن قضيت له بحق
مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو يذرها"^(٤٢).

لذلك كله، فإن المحامي بحاجة إلى بيان حسن ومنطق واضحة وبلاعنة
عالية حتى يصرع حُقُّه باطل خصمه.

والمرافعة، شأنها شأن الخطبة العادلة، تقسم وفق التصميم الكلاسيكي إلى
مقدمة وجسم وخاتمة، وعن مضمون المقدمة يتحدث (كانطليانوس) في كتابه
المؤسسة الخطابية فيقول "في المقدمة ينبغي إعلام القاضي دون إبطاء بما نريد
بيانه في المرافعة وبالتصميم الذي اعتمدناه، وهي لا تتحمل الإسهاب بل يجب أن
تكون موجزة كل الإيجاز، إذ على الرأس أن يكون منسجماً بحجمه مع الجسم"^(٤٣).

ولكن هذا لا يعني أن تحول المقدمة إلى برقة مقتضبة يعوزها الوضوح،
بل لا بد من أن تكون موجزة بالقدر الذي يسمح أن يقدم جوانب القضية واضحة
وتابعة.

وللننظر إلى مقدمة مرافعة الدفاع عن تهمة (تنظيم الجهاد) في مصر
الواردة برقم ٢٨ لسنة ١٩٨٢ أمن دولة عليا إذ يقول "إننا ندافع اليوم عن
مظلومين فيما نسب إليهم وعن مسلمين حاولوا إعمال الفكر الإسلامي لكنهم
قوبلوا بأسوأ معاملة ونسبت إليهم أفعال جرمها القانون وهم منها براء".

سوف أتحدث عن فكر ومبادئ وأهداف المتهمنين التي وصفها مثل الإدعاء بأنها آثمة، ولكن أقول له مهلاً ورقاً بنا يا زميلنا الفاضل.... لأن هذه الأفكار وتلك المبادئ هي الإسلام بكماله وشموله، لأن الإسلام حياة كاملة للأسرة والفرد والمجتمع والبشرية كافة، فهو شريعة صالحة لكل زمان ومكان، وشريعة فوق كل الشرائع لا يكتمل أي أمر إلا بهذه الشريعة، والانتصار لهذا الدين أساس، والدفاع عنه واجب مفروض على كل المسلمين.

والمتهمون يريدون الانتصار لدين الله، وفي سبيل ذلك فإنهم مستعدون للموت، وإنه لا يكمل إيمان مسلم حاكماً أو محكوماً إلا بتطبيق شرع الله، والدليل على وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية مستمد من القرآن، إذ قال عز من قائل: "وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ" ^(٤٤) وقال تعالى: "وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" ^(٤٥) وقال جل وعلا: "وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" ^(٤٦) والمستفاد من قوله تعالى: "فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ" ^(٤٧) فهذا أمر يدل على عدم مشروعية التحاكم بغير ما أنزل الله، وقاعدة الحكم بما أنزل الله لا خلاف عليها، وإن الله وصف الذين يحكمون بغير ما أنزل بهم كافرون ظالمون فاسقون.... فهدف المتهمنين جميعاً إقامة الدولة الإسلامية التي تحكم بشرع الله ^(٤٨).

إن هذه المقدمة تصلح لأن تكون نموذجاً يستدل بها على الخصائص اللغوية للمرافعة، فقد أليس لغته ثوب العقل، ووجه ألقاظه لتخاطب فكر القاضي فحشد فيها ألفاظ الأدلة والثبوت والأحكام الشرعية، وبالاعتماد على هذا النموذج يمكن أن نستشف الخصائص اللغوية للمرافعة الناجحة وهي:

أولاً: الاستعمال الصحيح للغة من حيث النحو، فاللغة العربية تمتاز عن غيرها من اللغات في أن قواعد النحو تمثل جزءاً من معنى العبارة، وأي خلل في هذه القواعد يؤدي إلى خلل في المعنى، بل إن الخطأ في علامات الإعراب

الضمة والفتحة والكسرة يقلب المعنى تماماً، ويؤدي إلى الخلط بين المتهם والمجنى عليه^(٤) وقد نص على ذلك الجرجاني إذ قال "ليس النظم (نظم الكلام) إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو"^(٥٠) فعلم النحو إذن ليس تأليف الكلمات بشكل صحيح داخل التراكيب وإنما هو أيضاً العلم الذي يعني بأن تؤدي العبارات المعنى المطلوب أو المعنى المقصود. وليس مطلوباً من المترافق أن يكون عالم لغة، وإنما كل ما هو مطلوب منه أن يكون لديه ثقافة لغوية لأن يكتب وينطق بشكل صحيح.

ثانياً: إن المترافق في الغالب يخاطب هيئات ذات حظ معقول من الثقافة العامة، فلا بد من احترام هذه الثقافة^(٥١) بأن تكون ألفاظ المرافعة ملائمة للذوق اللغوي السائد عند أهل القانون، فهم مثل غيرهم من الطبقة المتنفة، لغتهم قريبة من الفصحى وأعلى من العامية، ولا يجوز له الانحدار إلى العامية إلا إذا صعب عليه تصوير فكرته بالفصيحة. أو إن أراد أن يأتي بنكتة تفكه للسامعين، أو أن ينقل عبارة شاهد لمناقشها. ويمكن للنكتة أن تكون بلغة فصيحة، ومن أمثلة ذلك ما قاله عمر عارف الذي ترافع في قضية قذف مشهورة كان المتهם فيها موظفاً استباح لنفسه أن يتدخل في السياسة وجمع به قلمه ونال من رجل كريم فقال: ولكن المتهם أثر التعرض للسياسة وما هو لها وانصرف إلى التشيع فيها، ورضي أن يكون موقفه منها موقف الزبانية من جهنم فهو يطلع على خصومه يشع وجهه ناراً، منتفخ الأوداج ينضنض بسلسنه على لقم الطريق، إن تعرضوا له يلهث وان تركوه يلهث، ثم إذا فرغ من تعذيب الناس بما رماهم به من جارح القول، عاد يتتصبب عرقاً وأخذ مجلسه من ديوان الصناعة والتجارة يمد يداً للوظيفة يدها قرشاً قرشاً، ويسع عرقه بالأخرى كأنه أبلى في عمله الحكومي الذي أوتمن عليه^(٥٢).

وهناك من يرى "أن العربية الفصيحة ما تزال إلى اليوم لغة صنعة، وأنها ما تزال تجهد المخاطب والمخاطب معاً، والإجهاد إذا طال انتهى إلى الملل والسامة"^(٥٣).

لذلك لا بد من بقاء العامية في رأيه لغة مرافعة إضافية لرواية اللطائف أو صياغة الملح والنكات كي يخف بها الضجر ويطوي ملل الجلسات الطويلة وحجه في ذلك ألا ضرر في بقائها إذ إنها لغة كلام متاخر زائل بزوال الجلسة^(٤). وعلى كل حال فلا بد للمرافعة من أن تكون بلغة مرسلة لا تشادق فيها ولا تفيه، بعيدة عن التكلف سالمة من السجع.

ثالثاً: إن لغة المرافعات لغة حديث لا لغة كتابة، وعلى هذا فإن المتحدث بحكم طبيعة الموقف مضطرب إلىمواصلة الحديث في غير توقف أو تردد، فيلجأ إلى الابتكار والارتجال مستعيناً بوسائل الالقاء من حركة وإشارة ونبرات وقوه شخصية وسرعة بدبوه.

وإذا كان المترافق مضطرباً إلى أن يعد مرافعته فإنه يراعي أن يكتبها بغير لغة الكتابة، فلا يستعمل الألفاظ المنمقة ولا يحتال على المعاني البعيدة ولا يطلق العنان لخياله فليأتيه بصورة شعورية رائعة، وذلك لأن الحاجة تدفعه إلى إفهام سامع يرممه بعين تشع انتظاراً قد ينقلب في لحظة إلى تملل أو سامة^(٥).

ولنسمع إلى المحامي الشهير "فارير" يحدثنا عن طريقته في إعداد مرافعاته فيقول إنه كان يفكر أيامما قبل المرافعة في قضية عظيمة فإذا ما دنت الجلسة أولى إلى مكتبه وترك قلمه حراً يسجل ما يجول بخاطره كأنه يخطب في المحكمة، فإذا ما فرغ طوى ما كتب وقد ارتسما في ذهنه واتضحت أمامه معالم الدفاع، ثم يترافق بما رسم، معتمداً على موهبة الارتجال^(٦).

وهناك بعض الحالات لا بد فيها من الاعتماد على الألفاظ الفخمة، فالقضايا الجنائية والسياسية الخطيرة تلائمها العبارات الخطابية الاحتفالية لهجة وإنشاء؛ مثل ذلك تلك العبارات التي خاطب بها المحامي هيئة المحلفين بقوله "يا إله المؤمنين اهبط من عاليائك واستقر في هذه القاعة وفي قلوب المحلفين، قل لهم إن حق الحياة وإرادة الموت ملكك وحدك، وأنتم يا من ستتحملون أصعب المسؤوليات، ليكن حكمكم مبرئا لكم من المثول بسببه أمام الله يوم الحساب

على أنه يجب أن لا يغيب عن الذهن أن مثل هذه العبارات الخطابية تستلزم مواهب خطابية كبيرة وسيطرة تامة على اللغة، فيخشى أن يجد المترافق نفسه عاجزاً عن متابعة هذا الأسلوب الفخم فينحدر هابطاً عن الذروة التي بدأ منها إلى الدرك المعاكس مما يزعج السامعين لأنه يتناهى مع أصول البلاغة.

ومن المرافعات التي حاول فيها صاحبها أن يكون أسلوبه فخماً بليغاً دون كفاعة فإذا به يبدو مبتدلاً متكلفاً، مرافعة النائب العام في دعوى سيدة متهمة بدس سم الزرنيخ لزوجها وقتله إذ يقول "هل ستقولين (ياماًري كابل) إن والدة (شارل لافارج) هي التي سكبت له السم؟

ولكن أحذري غضب المحلفين إذا خطرت لك هذه الفكرة. إذا ادعى مثلك هذا الادعاء فإنك ستُرتكبين جنائية جديدة تنفع هؤلاء المحلفين إلى قساوة لا يضمرونها لك الآن. أمامكم على هذا المقعد، أجل، (يا ماري كابل) هذا أنت التي وضعتم السم لزوجك، أنت التي عذبته بالسم خلال خمسة عشر يوماً، أنت التي اشتريتم السم واحتشريت منه كثيراً. إذا لم تكوني مذنبة فلا يكفيك أن تقولي إنك مقتطعة ببراءتك، بل عليك أن تدللينا على الذي أبدل قرص الحلوى السليم وعلبه بقرص آخر مسمم وعلبه. ثم قولي لنا ماذا صنعت لنا بكميات الزرنيخ الكبيرة التي اشتريتها؟ أيها المحلفون الذين لا أعرفهم ولا يعرفوني^(٥٨). ولكنني مجنوب بهم بالعاطفة التي تشدني إلى هذه المنطقة حيث ولدت، أيها المحلفون: كونوا أوفياء لقسمكم، لا تتصلوا بأحد أرجوكم... لا تتأثروا خارج القاعة بأي انطباع يمكنه أن يفعل فعله بعنف في قناعتكم ويشوه طهارة حكمكم، هذا ما أطلبه منكم، ولكن أطلب منكم قبل كل شيء أن تكونوا عادلين، ولن تكونوا عادلين إذا قبلتم بتدخلات أي إنسان يحاول أن يخلص بأي ثمن امرأة لا يمكن أن تخليص^(٥٩).

ففي مثل هذه المرافعات وبرغم وضوح الأدلة، فإن المترافق لم يستطع أن يرتفع بلغته إلى مستوى الأدلة، وكثيراً ما تهبط اللغة الركيكة والهزيلة بالأدلة

القوية، وفي الجهة الثانية، إذا كانت القضية سيئة في مجملها، فإن على المترافق أن يتبع عن لغة المبالغات غير المعقوله والأكاذيب الصارخة والحجج الواهية، وعليه أن يعترف بسوء وضعه بمعالجة لغوية تؤدي الغرض المطلوب، ومن ذلك ما قاله محامي الدفاع (بوديه) في قضية قتل إذ قال: "لاشك في أن موکلي قتل دون أن يعي ماذا يفعل، قتل لأنه فقد صوابه وسط زحمة التفاصيل غير المقصودة، صحيح أن هناك ضحية بريئة، لكن الصحيح أيضاً أنه لا يجوز التضحية بضحية أخرى (والتفت إلى الملحقين قائلاً) إن مقتل الشرطي حصل في جو ساخن من الذعر والفوضى، أما أنتم فإيكم ستتصدون حكمكم بهدوء، فلا تدعوا (فش) يموت بحكم منكم ويكون موته قد تم في جو أين منه جو الجريمة المفترفة" (٦٠).

فالمحامي هنا بدأ مرافعته بالاعتراف أن موكله قاتل، دون أن يبالغ في تبرير موقف المتهم، وبدلًا من ذلك راح يستعمل الألفاظ التي تخاطب عواطف الملحقين وتهز مشاعرهم.

رابعاً: إن المرافعة مخاطبة لمشاعر القضاة وعقولهم في آن واحد، ولهذا لا بد في لغتها من أن تكون مطابقة لمقتضى الحال، فإذا ما أراد النائب أن يتحدث عن الجانب القانوني في القضية فإنه عندئذ يخاطب عقولهم. فيعرض الأدلة بلغة هادئة متزنة خالية من عبارات الحماسة مما يؤدي إلى الاقتناع العقلي بالدليل. وأما إذا ما عرض إلى قوة القانون وسلطانه، فيختار الألفاظ الفخمة والعبارات القوية "يلقي في روع السامعين مهابة القانون فيلتزموا خط الطاعة ويخاف العصاة صولة العقاب" (٦١).

وإذا ما وجد النائب نفسه أمام هيئة من الدفاع من أهل البيان واللسان، ورأى محاولتهم التأثير بالكلام، فمن مصلحة العدالة أن يكون هناك تفوق للاهتمام على الدفاع، لذلك عليه أن يشهر عليهم مثل سلاحهم دون تحيز ولكن سعيًا لإحقاق الحق والدفاع عنه، ولا ينسى أن غايتها الإقناع وفي ذلك يقول أرسطو: الإقناع هو ما يسعى إليه الخطيب وهو غاية الخطابة، ولا يتحقق بأي معان اتفقت

ولا باي أحوال عرضت، بل انه يقع بمعان مخصوصة وهنات مخصوصة، وفصاحة الألفاظ يجب أن تحوي المقدرة على الإفهام والإفصاح عن المعاني كما يجب أن تكون حسنة الموقع على الأسماع، لاتفتر منها الأذواق ويجب أن تكون قادرة على تحقيق المراد من تعظيم المعنى عند إرادة التعظيم أو تحجيره عند إرادة التحقيق^(١٢). والمحامي في هذا الجانب مثل النائب، فلا بد من أن يمثل قدرة على تطوير اللغة باستعمال مفردات تنقل الصورة التي يريدها وفق مقتضى الحال، وهذا لا يكون إلا بامتلاكه ثروة لغوية كبيرة، يصرف بها فنون القول ويسلك طرق البيان فيعرف كيف يثير الوجдан ويمس المشاعر، "ولن كلام المحامي ليقى مجرد كلام لا طائل تحته حتى تغشاه عاطفة صادقة فتصبح له قوة السحر"^(١٣) ولنسمع إلى ختام مرافعة الأستاذ أحمد لطفي عن الورданى قائل رئيس وزراء مصر بطرس غالى، إذ حشد فيها الألفاظ التي تمس العاطفة، وتؤثر في المشاعر: - "أما أنت أيها المتهم فقد همت بحب بلادك حتى أنساك ذاك الهيام كل شيء حولك، أنساك واجباً مقدساً هو الرأفة بأختك الصغيرة وأمرك الحزينة، فتركتهما تبكيان هذا الشاب الغض، تركتهما تقلبان على جمر الغضا، تركتهما تقلبان الطرف حولهما فلا تجدان غير منزل مفتر غاب عنه عائله، فأنت أملهما ورجاؤهما. دفعك حب بلادك إلى نسيان هذا الواجب وحجب عنك كل شيء غير وطنك، فلم تعد تفكّر في تلك الوالدة البائسة، وهذه الزهرة اليافعة، ولا فيما ينزل بهما من الحزن والشقاء بسبب ما أقدمت عليه، ونسيت كل أملك في هذه الحياة، وقلت إن السعادة في حب الوطن وخدمة البلاد، واعتقدت أن الوسيلة الوحيدة للقيام بهذه الخدمة هي تصحية حياتك، أي أغز شيء لديك ولدى أختك ووالديك، فأقدمت على ما أقدمت راضياً بالموت لا مكرهاً، ولا حباً في الظهور، أقدمت وأنت عالم أن أقل ما يصيبك هو فقدان حريرتك، ففي سبيل أمتك بعث حريرتك بثمن غال.

فأعلم إذا أيها الشاب أنه إذا اشتد معك قضائك - ولا إخلالهم إلا راحميك -
فذلك لأنهم خدمة القانون، وهذا هو السلاح المسلط فوق رأس العدالة والحرية.

وإذا لم ينصفوك - ولا أظنهما إلا منصفيك - فقد أنت من يرى أنك لم ترتكب ما ارتكبته بنية الإجرام، ولكن باعتقاد أنك تخدم بلادك، وسواء وافق^(١٤) اعتقادك الحقيقة أم خالفها فتلك مسألة ستحكم التاريخ فيها.

وإن هناك حقيقة عرفها قضاياك وشهد بها الناس، وهي أنك لست مجرماً سفاكاً للدماء، ولا فوضوياً من مبادئه الفتاكة ببني جنسه، ولا متعصباً بدينها وإنما أنت مغرم ببلادك هائم بوطنك.

فليكن مصيرك أعمق السجن أو جدران المستشفى، فإن صورتك في البعد والقرب مرسومة على قلوب أهلك وأصدقائك، وتقبل حكم قضاياك باطمئنان واذهب إلى مقرك بأمان^(١٥).

وفي بعض القضايا الجنائية، يلجأ المحامي إلى العبارات الفخمة إذا أراد أن يصور حماسة المتهم في الدفاع عن دينه أو نفسه أو عرضه مثلاً، ليكون بذلك ناقلاً لقوة حماسة موكله واندفاعه فيما يفعل، ففي قضية تنظيم الجهاد السالفة الذكر^(١٦) استطاع المحامي أن ينسب التهمة إلى فرض من فرانçois الدين الإسلامي، وراح يستأنس بلغة الخطبة الدينية بالاستناد على كتاب الله العزيز أو بالسنة النبوية والأثر، وفي الوقت الذي رأت فيه النيابة أن تهمة الجهاد فعل إجرامي، الغرض منه قلب نظام الحكم، رأى المحامي أن المتهمين أناس مؤمنون ي يريدون الانتصار لدين الله ولأجل هذه الغاية يضحيون بأنفسهم.

ولا ننسى أن لغة المرافعة لغة التماس، وعباراته يجب أن تكون عبارات إكبار وإعظام وهذا لا يقتضي التذلل أو الضعف في توجيه الخطاب، بل هي في الوقت نفسه لغة عزة وجرأة.

ولنسمع إلى ديسيز وقد دعا له لويس السادس عشر إلى الدفاع عنه أيام الجمعية التأسيسية في وقت جمعت فيه هذه الهيئة في يدها جميع السلطات، فلم تأخذ في الحق لومة لائم وقد مرأعته بلغة جريئة إذ قال: "أيها المواطنون! أخطابكم بلسان الرجل الحر، إني أبحث بينكم عن قضاة "لويس" وأنتم خصومه؟

أتريدون أن تجلسوا للحكم في قضية لويس ولكن فيها رأي يجوب أوروبا من أقصاها إلى أقصاها؟ أيكون لويس الفونسو الوحيد الذي لا يحميه القانون ولا يتبع في محاكمته إجراء واحد صحيح؟ أيجرد من امتيازاته كملك ومن حقوقه كمواطن. أيخلذه القانون حاكماً ومحكوماً؟ ياله من مصير عجيب لا يتصور^(١٧).

ومن مطابقة اللغة لمقتضى الحال أن يكون الإسهاب في موضعه والإجاز في موضعه. والمترافع يراعي أن كل تطويل في غير التحليل والتفصيل عند الحاجة إضاعة للوقت، وكل إجاز فيه نقص وتعمية وإيهام وإخلال بالواجب المناط^(١٨)، لذلك وجب عليه أن يختار الألفاظ من غير حشو أو نقص، مع العناية بترتيب الألفاظ لتكون مستوفية للمعاني التي تدل عليها.

خامساً: وما يجعل إبراك المعنى صعباً أو ملباً إكثار المترافع من الجمل الاعتراضية وإبطالة الجملة إطالة مسافة وإيراد الألفاظ الغريبة والوحشية، إذ إن عليه أن ينقل أفكاره بالألفاظ وجمل تضمن له الفهم السريع وبالتالي التأثير والاستجابة، وأكثر المترافعين كانوا حريصين على هذه الصفة، فقلما نجد في خطبهم التواء في التعبير أو تقصيرأ لفظياً، ولننظر إلى مرافعة الأستاذ عبد اللطيف محمود المحامي عن المتهمين بالحق المدني في قضية مقتل أمين عثمان باشا، سنرى إكثاره من الجمل المعتبرضة مما أدى إلى بطء في الفهم. إذ يقول:-
سأحاول جاهداً مثلكم أن أصدق كل هذا، لأن خليطاً من الشباب الفاسدين -من شباب هذا الجيل- وهم بحمد الله قليلون، ولا أجد ما أصفهم به أبلغ مما وصفتهم به النيابة. قام بخلده أو بث فيه أن دمه حل لهم مباح سفكه بمقدمة أنه كان من أنصار الإنجلiz^(١٩) ولم يبق لنا إلا أن نقول ما قاله الأستاذ زكي عربي المحامي من أن الناس قد انتقوا من قديم على أن البلاغة صفة لازمة لمن جعل الدفاع عن حقوق الناس مهنته، وتواضعوا على وجوب أن يكون المحامي فصيح اللسان بالغ الأثر بكلامه متلاوباً بالعقول والقلوب^(٢٠).

أساليب المرافعات

مهما كانت طبيعة العمل، فإن صاحبه لا يكتفي بإيصال المعلومات إلى المستمعين حتى يوصف بالبلاغة، بل لا بد له من أسلوب يسلكه في إيصال أفكاره، وفي هذا يتحدث أحمد الحوفي فيقول: "ليست البلاغة أن تفهم المعنى وإلا لتساوت الركاكاوة والتعبير والإشارة، والجيد والرديء والعجمي والفصيح، وإنما البلاغة وثبة فوق إفهام المعنى. رتبة سمكها الامتياز في التعبير، ومطابقته للحال"^(٧١) والأسلوب كما يعرفه أحمد الشايب "الطريقة التي يسلكها الإنسان في تأليف كلامه و اختيار ألفاظه"^(٧٢).

وأسلوب المرافعة مستمد من هذا الفن الذي تمتزج فيه الأدلة التي تكفل الإقناع بالإثارة التي تتحقق الاستمالة، فلا غرابة أن يكون لها أساليب خاصة تتغير حسب ما يقتضيه المقام برغم أن المفردات المستعملة واحدة، وقواعد تركيب الجملة واحدة.

والمرافعة موجهة بالدرجة الأولى إلى عواطف القضاة ثم إلى عقولهم. وما دامت الأدلة التي تخاطب العقول ثابتة، فإن التغيير يكون في أساليب مخاطبة العواطف، ولعل الأسلوب الإنساني بما فيه من تعجب واستفهام ونداء وتمن وأمر ونهي ودعاء، مع ما تؤديه هذه الصيغ من معان مجازية إضافية كالتوبيخ والتقرير والتهديد والتهكم والعرض والتحضيض، خير أسلوب يخاطب عواطف القضاة، وفيما يلي نلقي الضوء على تلك الأساليب وأثرها في عواطف القضاة.

أسلوب التعجب

كثيراً ما يلجأ المترافق إلى أسلوب التعجب في مرافعته وذلك، من أجل تقويم وجهة نظر أو توكيدها. يقول المحامي (أوبان) المترافق عن السيدة (ماري استانهيل) المتهمة بقتل زوجها: "إن موكلتي - سيدى الرئيس - حاولت أن تقول في استجوابها كل ملابسات القضية، وإن رأى دفاع النيابة أن هناك تناقضاً في الأقوال، فما هو إلا أن الصورة التي عاشتها وتعيشها مشوشة لا تکاد تصدق،

وأن أطراف القضية متشعبة، فما أكثر ما يخلط الإنسان حين تزدحم عليه الأفكار إلى الحد الذي يرى في نفسه تناقضًا في التوجهات والإرادة^(٧٣).

ففي هذه الفقرة من مرافعته استعمل المحامي أسلوب التعجب في قوله: "ما أكثر ما يخلط الإنسان حين تزدحم عليه الأفكار" وهو بذلك دعم فكرته في أن التناقض في الأقوال ناشئ عن تشعب ملابسات الحادث، وهو بذلك يفتد رأي النائب العام في أن هذا التناقض دليل على تجريمها.

أسلوب الاستفهام

ما لاشك فيه أن أسلوب الاستفهام سواء أكان حقيقةً أم مجازياً يعد الأسلوب الأكثر استعمالاً في المرافعات القضائية، إذ لا تكاد تخلو مرافعة من الاستفهام الذي قد يخرج عن معناه الحقيقي إلى معانٍ مجازية أخرى تؤدي وظيفة يرمي إليها المترافق. ولننظر إلى مرافعة أحد المحامين عن متهمة بدس السم لزوجها وقتله، سوف نرى كيف وظف الاستفهام لخدمة غرضه إذ يقول: "وبعد هذا، من يستطيع أيها السادة المحتلفون أن يمسك بكم؟ كيف يمكنكم أن ترددوا معي بكل إخلاص ومن أعماق ضمائركم: لا! هذه المرأة ليست مذنبة لأنها لا يمكنها أن تكون مذنبة! ولكن يا للأسف، هذا كل ما يمكنكم فعله من أجليها، أما مالا تستطيعونه إطلاقاً فهو إعادة الإزهار إلى حياتها التي ذابت إلى الأبد. ما لا تستطيعونه هو الحصول دون أن تكون هذه المرأة أشقي نساء الأرض! انظروا!!! هل من مصير أدعى إلى التحسر من مصيرها؟"^(٧٤) فصيغة الاستفهام الأولى "من يستطيع أن يمسك بكم" تحمل معنى النفي، في حين أن الصيغة الثانية "كيف يمكنكم أن ترددوا معي..." تتضمن معنى الطلب، أي ريدوا معي. والصيغة الثالثة "هل من مصير أدعى إلى التحسر من مصيرها" تتضمن معنى النفي مثل الصيغة الأولى. وبإضافة إلى معنوي النفي والطلب فإن الاستفهام قد يكون إنكارياً أو توبيخياً مما يؤدي بالقاضي إلى إعادة النظر بعد النظرة في كلام المتهم قبل تكتيبه. ويتبين هذا الأسلوب في هذه القطعة من مرافعة أحد المحامين عن متهمة بقتل امرأة أخرى.. إذ يقول: "لقد حاولت موكلتي في

استجوابها أيضاً علاقتها بالمجنى عليها، ولقائها بها قبل الحادث وهي تشكو لها استعمالتها لزوجها، وقد وعدها المجنى عليها أن تبتعد عن زوجها، وطمأنتها أن الأمر سينتهي، وأن زوجها سيرجع إليها وإلى بيتهما... فكيف تكون بكلام موكلتي ولا تطمئنون إليه. وقد كانت غير ملزمة بالحديث عن تلك التفاصيل فضلاً على أن المحكمة ليس لديها ما يؤيد تلك المحادثة»^(٧٥).

ومن أجل تشويق القاضي يلجأ المترافق إلى أسلوب الاستفهام وذلك بوضع مجموعة من الأسئلة يجيب عنها عند نهاية كل سؤال، إذ يثير السؤال في نفس القاضي حب الاستطلاع لمعرفة الجواب، مما يدعوه إلى التيقظ والإصغاء، فتصبح تلك الإجابة باقية متمثلة في ذهن القاضي. ومن هذا النمط ما قاله وكيل النائب العام في قضية اتهمت فيها امرأة بقتل أمها وزوجها إذ قال في مرافعته: «لماذا أقدمت المتهمة على كل هذه التناقضات؟ لأنها كاذبة! ولماذا أقدمت على قتل أمها وزوجها في ليلة واحدة؟ هذا هو اللغو الأكبر»^(٧٦). ومثل آخر ما قاله محامي الدفاع في القضية نفسها: «قبل كل شيء نعرف جميعاً أن لا جريمة بلا سبب. هل الخلاف الزوجي هو الدافع هنا؟ لم يثبت التحقيق إطلاقاً أن المودة كانت مفقودة بين المتهمة وزوجها أو بينهما وبين أمها بل العكس هو الصحيح»^(٧٧).

وقد يعمد المترافق إلى أسلوب الاستفهام دون أن يجيب عنه وهذا الأسلوب مستحسن إذ كانت جميع الأسئلة فعالة ومؤدية إلى إجابة واحدة يستنتجها القاضي بشكل حتمي، وفي القضية السابقة يعمد وكيل النيابة إلى هذا الأسلوب فيقول: «إن المتهمة تدعي أنها بريئة، ولكن إذا كانت بريئة لماذا كذبت، ولماذا حاولت اتهام خادمتها ثم حاولت اتهام ابن خادمتها؟ ولماذا أخيراً حاولت اتهام الصحفى الأمريكى؟ ولماذا زعمت أن سبب الجريمة هو السرقة؟ وقد ثبت أن لا سارق ولا مسروق»^(٧٨).

فمجيء هذه الأسئلة بهذا الزخم والتكتيف يؤدي إلى نتيجة واحدة وهي عدم براءة المتهمة، كما يرى وكيل النيابة، ولا سيما أنها جاءت بعد جملة تدعي فيها

المتهمة أنها بريئة".

وعلينا ألا ننسى أن الإسراف في استعمال هذا الأسلوب، وبخاصة في الحالات التي لا تؤدي إلى نتيجة واضحة—يؤدي إلى سأم القاضي والمستمعين مما يؤدي إلى عدم الاستماع الجيد، وحصول نتيجة معاكسة للمطلوب، ومن ذلك ما في مرافعة أحد المحامين عن متهم بقتل زوجته. إذ يقول: "أندون لماذا فعل موكلني كل هذا الذي فعل؟ أندون لماذا عامل موكلني زوجته هذه المعاملة؟ أندون كم كان موكلني متسامحاً مع زوجته؟ أندون كيف كانت زوجة موكلني تعامله وتتعايش معه؟ فماذا يصنع المسكين وقد حامت حول زوجته الشبهات" (٧٩).

أسلوب السخرية

ذكرنا سابقاً أن المرافعة الناجحة هي التي يسلك فيها صاحبها طريق الوضوح في لغتها ومعانيها، وذلك كي يستطيع القاضي أن يفهمها دون أن يجهد تفكيره في حل ألفاظها وأفكارها، لكن المترافق يلجاً إلى قول أشياء ويقصد بها أشياء أخرى وذلك بقصد السخرية من موقف معين أو من قول لخصمه، وإذا ما كانت هذه السخرية غير ملبسة فإنها تؤدي دوراً فعالاً في نتائجه، ففي إحدى القضايا أمام واحدة من المحاكم اللبنانية صور محامي الادعاء جراح موكله البسيطة بشكل مبالغ فيه، فرد عليه محامي الدفاع بأسلوب ساخر مما تسبب في تخفيف الحكم عن المتهم، فقال بلهجة هازنة: "تحدت الزميل الكريم وكيل المدعى عن الجراح (الثخينة الخطيرة) التي أصيب بها موكله على أثر ضربه (ضررها مبرحاً) من جانب موكلي المدعى عليه (المتوحش) وقد نال المضروب تقريراً طبياً بثلاثة أيام للراحة لا يتعطل خلالها عن العمل، ووكليل المدعى يستند إلى هذا التقرير (الخطير) كي يطلب ما يعادل قيمة عشرة آلاف دولار عطلاً وضرراً مع العلم أنه يحتفظ ضمناً بحق المطالبة بفرق سعر الدولار....، إن من يسمع وكيل الجهة المدعية يصف جراح موكله ويحدد ثمنها بظنه جراح السيد المسيح، المجد لاسميه وتعالت جراحه عن كل تشبيه" (٨٠).

أسلوب التكرار

الكل يعلم أن التكرار من الأساليب الممقوتة في الأعمال الأدبية، وأن تكون ممقوتة في المرافعات القضائية أولى، وذلك لأن رد الفعل يكون أنياً وقد يؤدي إلى نتائج غير محمودة العواقب، إذ إنه يؤدي إلى الملل والسام. لكن المترافق قد يلجأ إلى أسلوب التكرار في بعض الأحيان بغرض ترسيخ فكرة عند القاضي وزيادة في استدعاء انتباهه. ولنستمع إلى أحد المحامين يترافع عن موكله ويحاول ترسيخ فكرة براءته عند القاضي إذ يقول: "كل شيء ثبت أن موكري بريء، لم يحاول الهرب من وجه القضاء، إنه بريء، لم يرد في كلامه أي تناقض، إنه بريء، لم يقل شاهد واحد إنه كان في مكان الجريمة ساعة ارتكابها، إنه بريء، أثبت وجوده في مكان آخر، إنه بريء".^(٨١).

ولنستمع إلى النائب العام عبد الخالق ثروت يترافع في إحدى القضايا لنرى كيف وظف أسلوب التكرار إذ قال: لقد بدأ هؤلاء الشبان يفكرون في استباحة القتل وإراقة الدماء تلخصاً. مما صور حمقهم من الشقاء قبل أن يفكروا في الخلاص من جهالتهم التي هم فيها يعمهون. إن هذه الأفكار الطائشة الخطيرة كالسلاح في يد المجنون الهائج، إن لم يعجل بتنزعه منه قوة واقتداراً كانت العاقبة وبالأ. وعلى من هذا الواجب الخطير الشريف؟ إنه عليكم الآن يا حضرات المستشارين. أمحوا هذه الأفكار الخطيرة، وانزعوا هذا السلاح القاتل، انزعوه من أيدي هؤلاء المفتونين قبل أن يصيب البلاد شره المستطير، انزعوه بحكم ترضاء الحكمة وأصلة الرأي. إنكم بذلك لا تكسفون الرحمة والعدل، بل تزيدونهما رواء وجمالاً. أليس من الرحمة والعدل أن تحموا أرواح الأبرياء؟ أليس من الرحمة والعدل أن تتبعتوا الطمأنينة في القلوب الواجهة؟ أليس من العدل أن ترحموا صغاراً كالغصون الرطبة أوشكت أن تلتوي على الشر تقلیداً أعمى للمتهمين وأمثالهم؟".^(٨٢).

لقد وظف النائب العام التكرار في هذه المرافعة توظيفاً رائعاً، فبعد أن قدم للقضاء وجهة نظره في خطورة الأفكار التي يتبناها المتهمون وضرورة التخلص

منها، راح يدعوهم إلى الحزم والشدة في معاملة هؤلاء المتهمين وذلك بتكرار كلمة "انزعوا" بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من شدة، ولم يكتف بذلك، ولكنه حرصاً على استئثار هم القضاة في تحقيق طلبه، فإنه راح يخاطب عوادفهم أيضاً بتكرار أسلوب الاستفهام التقريري وارتكازه على كلمتي الرحمة والعدل في قوله "ليس من الرحمة والعدل" وذلك من أجل تسويغ ما يستحثهم على تحقيقه، وبذلك يرسخ في قلوب القضاة أن ما سيحكمون به في حق هؤلاء المتهمين ما هو إلا الرحمة والعدل.

أسلوب المخاطبة المباشرة

الرافعة على العموم هي نوع من الحوار، أو الحديث الذي يسمونه (مونولوج)، هي حديث يوجهه المحامي إلى القاضي^(٨٣)، لكن المترافق أحياناً، يجد من الضروري أن يتوجه مباشرة إلى خصمه أو إلى المتهم من أجل الوصول إلى نتيجة حاسمة مفحمة، أو من أجل التأثير على القضاة وذلك باقرار حقيقة يراها المترافق، فيحاول بهذا الأسلوب أن يرسخ فكرته في عقولهم. وخير مثال على ذلك ما فعله الأستاذ أحمد لطفي في مرافعته دفاعاً عن المتهم بقتل بطرس غالى إذ قال مخاطباً المتهم: "أما أنت أيها المتهم، فقد همت بحب بلادك حتى أنساك ذلك الهيام كل شيء حولك...".^(٨٤)

ولكن أسلوب المخاطبة هذا يفقد فاعليته إذا لم يحسن المترافق تقديمها بلغة قادرة على تمثيل فكرته بالشكل الأفضل متلماً خطاب وكيل النيابة متهمة بقتل زوجها فقال: "هل ستقولين يا (ماري كابل) إن والدة (شارل لافارج) هي التي سكبت له السم؟ ولكن احذري غضب هينة المحففين إذا خطرت لك هذه الفكرة، إذا ادعيت مثل هذا الادعاء فإنك ستزكيين جنائية جديدة تدفع هؤلاء المحففين إلى قساوة لا يضمرونها لك الآن.... أجل يا (ماري كابل) هذا أنت التي وضعتم السم لزوجك، أنت التي عذبته بالسم خلال خمسة عشر يوماً. أنت التي اشتريت السم واشتريت منه كثيراً. إذا لم تكوني مذنبة فلا يكفيك أن تقولي إنك مقتعة ببراءتك، بل عليك أن تدللينا على الذي أبدل قرص الحلوى السليم وعلبته بقرص آخر

ممم وعليته، ثم قوله لنا ماذا صنعت بكميات الزرنيخ التي اشتريتها؟»^(٨٥)، فالرغم من قوة الأدلة التي يمتلكها وكيل النيابة فإنه قد أفسد مرافعته بعدم مقدرتة على توظيف أسلوب المخاطبة لخدمة الأدلة، فجاءت لغته مقصورة عن الوصول إلى مبتغاه.

استعمال الاستعارة والتشبيه

ذكرنا سابقاً أن القضاة بحاجة إلى الكلام الواضح السهل الذي لا يحتاج إلى جهد عقلي كبير كي يفهم، ولكن هذا لا يعني أن المترافق مكلف بالابتعاد عن الاستعارة والتشبيه والكناية، بل على العكس من ذلك، فإذا ما عرضت له استعارة تسهم في توضيح الفكرة وإبرازها فلا حرج عليه في استعمالها ما دام هذا الاستعمال لا يقود إلى الغموض، ذلك أن الغموض هو السيننة الكبرى في المرافعة. ومن الاستعارات الجميلة الملائمة ما قاله أحد المحامين في نهاية مرافعته: «أنا واثق منكم - سادتي القضاة - إنكم ستخلون في محراب العدالة المقدس إلى أنفسكم، فتقررون مصير هؤلاء المتهمين»^(٨٦).

ومن التشبيهات الناجحة ما قاله المدعي العام راجي الراعي في مرافعته مخاطباً المتهم الذي كان أحد رجال الدين وأجرم انتقاماً، إذ قال: «قد أجرمت انتقاماً، وكان الجدير بك، وأنت رجل دين أن تصفح وتغفر فتكون كشجرة الصندل التي تعطر فأس قاطعها»^(٨٧).

فلا بد للمترافق إذن من أن ينوع في أساليب القول، إذ إن الافتتان في التعبير عن المعنى بأساليب مختلفة وسيلة من وسائل التأثير التي ينبغي على المترافق اتباعها وذلك حتى يكتسب كلامه جدة، ويستحق الإصغاء الجيد من القضاة والمستمعين.

طرق أداء المرافعات

ذكرنا أن الهدف الأول والأخير من المرافعة هو إقناع المحكمة بوجهة

نظر المترافق سواء أكانت اتهاماً أم دفاعاً، وعلى هذا الأساس، فإن المترافق لا يصل إلى هذه الغاية إلا إذا كانت أفكاره متسللة، مدعمة بالأدلة الازمة، ومعتمدة على معرفة كافية بالقانون.

ومن أجل أن يحقق المترافق حظاً أكبر من تسلسل الأفكار. فإنه يلجأ إلى الإعداد المسبق للمرافعة؛ وإعداد المرافعات يجب أن يمر بخطوات تقضي إلى الغاية المرجوة، وبعد جمع الأدلة واستخلاصها وترتيبها بشكل متamasك ومتسلل، يبدأ بإعداد الردود على خصومه، وذلك بأن يتخيّل نفسه في موقع خصمٍ، وينظر في القضية ويرى ما يمكن أن يكون سلاحاً ضده فيعد له الرد المناسب، ثم يأتي ترتيب المرافعة، ولا بد من أن يبدأ بأقوى الأدلة كي ترسخ في نفس القاضي فتصبح من العسير انتزاعها^(٨٨).

وإذا ما حانت ساعة إلقاء المرافعة، ألقاها ارتجالاً، والارتجال لا يعني ارتجال الأفكار وإنما يعني ارتجال التعبير^(٨٩)، فلا بد للمترافق من أن يلقي مرافعته مشافهة لأن قراءتها يفقدها سحر لبيان كما يفقدها فاعليتها، وفي ذلك يقول (كانتيليانوس) في المؤسسة الخطابية "في رأينا إن قراءة المرافعة تتنافي مع البلاغة الحقة التي تقوم على الارتجال"^(٩٠)، وهو بالارتجال يستطيع أن يشرف بنظراته فيدرك كل ما يحيط به ويستطيع أن يقوم بواجباته المهنية على الوجه الأكمل، إذ إن المرافعة المكتوبة تحبس الذهن عن التصرف التام في فنون القول، ولا ننسى أن من مستلزمات الإلقاء الفعال الإشارة بشرط ألا يسرف فيها، إذ إن كثرة الحركات والإشارات يسيء إلى البلاغة، وفي كتاب (المؤسسة الخطابية) يسخر كانتيليانوس "من تلك الفئة من الخطباء الذين لا يستطيعون لفظ كلمة دون صراخ وغضب وتلويع بالأيدي وهزات رأس ونظارات شرسنة نارية"^(٩١).

والمترافق إذ يلقي مرافعته فإنه يلاحظ القاضي في إشاراته ونظراته، فإذا ما لمح منه إقبالاً في سماع نقطة معينة أشبع فيها القول، وإذا ما لمح منه إعراضًا عن نقطة فإنه يتركها حتى تتهيأ فرصة مناسبة للرجوع إليها، ذلك أن الإصرار على متابعة الحديث في نقطة ضجر منها القاضي يعني مخاصمة لهذا القاضي،

والقاضي ليس بخصم للمترافقين وإنما هو عون لهم على إحقاق الحق^(١٢).

ومما لاشك فيه أن المرافعة تكتسب قوة بتغير النبرات، وتفاعل المترافق مع ما يقوله، فيرفع الصوت حيث لزم ذلك، وبخفضه حيث لزم، وعلى المترافق أن يعرف المواطن التي تتطلب استدرار عطف القضاة، كما عليه أن يعرف مواطن الإسراع في القول والإبطاء وفق مقتضيات الحال، فيسرع في موقف الحماسة، وفي موقف الروية يتأنى^(١٣).

وقد ذكر الأستاذ حسن الجداوي "أنه دخل مرة قاعة محكمة الجنایات في ليون بفرنسا فلفت نظره أن المحامي يترافق بسهولة مدحشة ولغة عادية ولكنها جلية مرتبة، تصاحبها حركات نادرة متناسقة مع العبارات ومع ذلك كان المحامي بنبرات صوته، وجمال معانيه، وبلاعة تعبيره وقوة حجته مسيطرًا على سامعيه من جمهور وقضاة وزملاء، حتى لتحسبيهم يغضبون إذ غضب، ويشفرون إذا لان صوته واستدر رحمتهم، ولما سأله عن المحامي وعرف أنه هنري روبيرو ازداد إعجاباً^(١٤).

وأخيراً لا بد للمترافق من أن يكون ذا بديهة حاضرة دائمًا فيستطيع الاستفادة من سقطات خصمه وتحويلها لصالحه، وقد قال الهلباوي: - كثيرة ما شعرت بتحويل في تيار فكري إلى نقطة تصلح لموكله استبطها من طريقة الخصم، أو من ملاحظة المحكمة، وأعظم نقطة أشكر الله عليها توفيقي في انتهاز هذه الفرص في لحظتها، ثم التعبير عنها والاستفادة منها^(١٥).

وأفضل طرق الأداء للمترافق، ما يمكن أن يسمى الارتجال المكتوب، أي أن يكتب المترافق رؤوس الموضوعات التي ينوي ايرادها في مرافعته، ثم يعبر عنها مشافهة، مراعياً ظروف الحال داخل قاعة المحكمة، وبذلك يكون قد تخلص من مخاطر الأداء بطريقة التلاوة، ومن عثرات الأداء بطريقة الارتجال المطلق دون الاحتفاظ برؤوس الموضوعات التي يمكن أن تغيب عن الذهن إن لم تكون مدونة.

الهوامش

- (١) لسان العرب، ابن منظور، مادة رفع وانظر مختار الصحاح، الرازي، مادة رفع.
- (٢) القاموس المحيط، الفيروزابادي، مادة (رفع).
- (٣) تاج العروس، الزبيدي، مادة رفع.
- (٤) المعجم الوسيط ، د. إبراهيم أنيس ورفاقه، مادة رفع.
- (٥) انظر الخطابة، أرسطو، تحقيق عبد الرحمن بدوي ص ٢٥-١٦
- (٦) المعجم الوسيط، مادة رفع
- (٧) انظر فن الخطابة، أحمد الحوفي، ص ٣٩.
- (٨) المرجع نفسه، ص ١٩٤
- (٩) انظر الخطابة، محمد أبو زهرة.
- (١٠) فن الخطابة، أحمد الحوفي ص ١٩٤ - ١٩٥ ، وانظر النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، ص ٩٧.
- (١١) انظر الخطابة، محمد أبو زهرة ص ١٢ - ١٣ ، وأنظر فن الخطابة، أحمد الحوفي ص ١٩٥.
- (١٢) تاريخ الأدب اليوناني، محمد صقر خفاجة، ص ١٤٢
- (١٣) المرجع نفسه، ص ١٤٥
- (١٤) ديموستين، قدرى قلubi، ص ٢
- (١٥) تاريخ الأدب اليوناني، محمد صقر خفاجة ص ١٥٦
- (١٦) الخطابة، محمد أبو زهرة، ص ٥٦
- (١٧) فن الخطابة ، أحمد الحوفي ص ٤١
- (١٨) انظر المرجع نفسه ص ٢٠٥
- (١٩) قحاما: مثنة عظيمة لا يكاد يستطيعها أحد.
- (٢٠) المغني والشرح الكبير، ابن قدامة، ج ٥، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، وانظر المجموع شرح المهدب، الترمذى ج ١٤ ، ص ٩٨.
- (٢١) جامع الأصول، ابن الأثير الجزري، تحقيق عبدالقادر الارناوط، ج ١، ص ١٨١.
- (٢٢) سورة مریم ٢٧ - ٣٣ .
- (٢٣) سورة الأنبياء ٥٩ - ٦٧ .
- (٢٤) سورة مریم ٤١ - ٤٨ (قصة إبراهيم مع أبيه) سورة النمل، ٢٠ - ٣٩ (قصة سليمان مع الهدى)، سورة طه ٨٦ - ٩٧ (قصة موسى مع السامری).
- (٢٥) الأمالى، أبو على القالى، ج ٢، ص ١٢ .
- (٢٦) الخطب والمواعظ، محمد عبدالغنى حسن، ص ٨٢

- (٢٧) نقلًا عن الخطابة، محمد أبو زهرة، ص ١٦٩.
- (٢٨) المحامي، عبدالرزاق شبيب المحامي، ص ٤٥.
- (٢٩) انظر الخطابة، أرسطو، ص ص ١٨٥ - ١٨٨.
- (٣٠) الخطابة، أبو زهرة، ص ٢٩.
- (٣١) المرجع نفسه، ص ٣٠.
- (٣٢) المرجع نفسه ص ص ٣٠ - ٤١.
- (٣٣) نقلًا عن المرجع نفسه ص ٣٦.
- (٣٤) المرجع نفسه ص ٤٦.
- (٣٥) المرجع نفسه، ص ص ٤٧ - ٤٨.
- (٣٦) انظر المرجع نفسه ص ٤٨.
- (٣٧) محاضرات في الأدب القضائي، أحمد فتحي مرسى، ص ١٠.
- (٣٨) انظر الخطابة، أرسطو، ص ١٩٨.
- (٣٩) الكتاب الذهبي للمحاكم الأهلية، ص ص ١٥٣ - ١٥٤.
- (٤٠) فن الخطابة - أحمد الحوفي ص ٧٩.
- (٤١) المرجع نفسه ٧٩.
- (٤٢) جامع الأصول، ج ١٠، ص ١٨٠.
- (٤٣) Institutionis Oratoriae p82.
- (٤٤) الماندة: ٤٤.
- (٤٥) الماندة: ٤٥.
- (٤٦) الماندة: ٤٧.
- (٤٧) الماندة ٤٨.
- (٤٨) أشهر المحاكمات في التاريخ، علي العيساوي المحامي ص ص ١٥٢ - ١٥٣.
- (٤٩) انظر محاضرات في الأدب القضائي، أحمد فتحي مرسى، ص ١٢.
- (٥٠) دلائل الإعجاز - الجرجاني، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، ص ٦٤.
- (٥١) انظر النقد الأدبي الحديث، ص ص ١٢٠ - ١٢١.
- (٥٢) الكتاب الذهبي للمحاكم الأهلية، ص ص ١٦٦ - ١٦٧.
- (٥٣) المرجع نفسه ص ١٦٥.
- (٥٤) المرجع نفسه ص ص ١٦٥ - ١٦٦.
- (٥٥) المرجع نفسه ص ١٦٩.
- (٥٦) نقلًا عن فن الخطابة: أحمد الحوفي ص ٧٧.
- (٥٧) انظر أشهر المحاكمات عبر التاريخ: فريد بوتشر ترجمة: عبد اللطيف أفيوني. ص ٢٣١.

- (٥٨) الصحيح أن يقول: ولا يعرفونني أو يعرفونني، ببقاء نون الرفع لأن "لا" هنا هي النافية.
- (٥٩) في المرافعة، المشعulanى، ص ٤٠.
- (٦٠) أشهر المحاكمات عبر التاريخ ، فريد بوتشر ص ١٣٢ .
- (٦١) الخطابة، محمد أبو زهرة، ١٧٥.
- (٦٢) انظر تلخيص الخطابة، ابن رشد، تحقيق عبد الرحمن بدوي، ص ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .
- (٦٣) الكتاب الذهبي ص ١٦٩ .
- (٦٤) الأصل أن يقول: سواء أوانق، بذكر همزة التسوية.
- (٦٥) الكتاب الذهبي ص ص ١٩٥ - ١٩٦ .
- (٦٦) ورد نص هذه المرافعة في موقع سابق من هذا البحث، وانظر أشهر المحاكمات في التاريخ، العيساوي ، ص ص ١٥٢ - ١٥٣ .
- (٦٧) الكتاب الذهبي ص ١٧٢ - ١٧٣ .
- (٦٨) انظر الخطابة، محمد أبو زهرة ص ١٧٥ .
- (٦٩) أشهر المحاكمات في التاريخ، على عبد العال العيساوي، ص ٤٥ .
- (٧٠) الكتاب الذهبي ص ١٦٣ .
- (٧١) فن الخطابة، أحمد الحوفي، ص ١٤٣ .
- (٧٢) الأسلوب، أحمد الشايب، ص ٩ .
- (٧٣) Institutions Oratoriae p97.
- (٧٤) في المرافعة المشعulanى، ص ٤٣ .
- (٧٥) The Power of address P63.
- (٧٦) في المرافعة، المشعulanى، ص ٣٣٦ .
- (٧٧) المرجع نفسه، ص ١٣٧ .
- (٧٨) المرجع نفسه ص ١٢٣ .
- (٧٩) أشهر المحاكمات عبر التاريخ، فريد بوتشر ، ص ٩١ .
- (٨٠) المرافعات المدنية، سعيد عبدالكريم مبارك، ص ٤٧ .
- (٨١) أشهر المحاكمات عبر التاريخ، فريد بوتشر ، ص ١٤٣ .
- (٨٢) الكتاب الذهبي ص ٢٠٠ .
- (٨٣) انظر في المرافعة، المشعulanى، ص ٣٢٣ .
- (٨٤) الكتاب الذهبي، ص ص ١٩٥ - ١٩٦ ، ورد النص في صفحة ١٣ من هذا البحث.
- (٨٥) في المرافعة، المشعulanى ص ٤٠ .
- (٨٦) أشهر المحاكمات في التاريخ، على العيساوي، ص ١٢٧ .
- (٨٧) في المرافعة المشعulanى، ص ٢٢٥ .
- (٨٨) انظر الخطابة، محمد أبو زهرة، ص ص ١٧٩ - ١٨٤ .

- . ٣٠٧) انظر في المرافعة، المشعلاني، ص ٣٠٧ .
Institutions Oratoriae P65. (٩٠)
Institutions oratoriae P88, and, A short history of Greek Literature P15. (٩١)
(٩٢) انظر الخطابة، محمد أبو زهرة، ص ١٨٥ .
(٩٣) المرجع السابق، والصفحة نفسها.
(٩٤) نقلًا عن الخطابة، أحمد الحوفي، ص من ٧٨ - ٧٩ .
(٩٥) المرجع نفسه، ص من ٧٦ - ٧٧ .

ثبات المصادر والمراجع

أ: العربية

القرآن الكريم

- ١- أشهر المحاكمات عبر التاريخ، فريديريك بوتشر، ترجمة: عبد اللطيف أفيونى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥.
- ٢- أشهر المحاكمات في التاريخ، د. علي عبدالعال العيساوي، دار الجيل، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٩١.
- ٣- الأسلوب، أحمد الشايب، ط٦، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦.
- ٤- الأمالي، أبو علي القالي، طبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٥٣م.
- ٥- ناج العروس، الزبيدي، المطبعة الوهبية، القاهرة، ١٨٧٠.
- ٦- تاريخ الأدب اليوناني، محمد صقر خفاجة، القاهرة ووزارة التربية والتعليم، سلسلة آل ١٠٠٠ كتاب، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦.
- ٧- تلخيص الخطابة، ابن رشد، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت.
- ٨- جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير الجزري، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٣م.
- ٩- الخطابة، أرسسطو طاليس، تحقيق عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩.
- ١٠- الخطابة، أصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، ١٩٨٠.
- ١١- الخطب والمواعظ، محمد عبد الغني حسن، ط٢ دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨.
- ١٢- دلائل الإعجاز في علم المعانى، عبد القاهر الجرجانى، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت لبنان، ١٩٨٢.

- ١٣- ديموستينيس، قدرى قلجمى، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧م.
- ١٤- فن الخطابة، أحمد الحوفي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الطبعة الخامسة، القاهرة.
- ١٥- في المراقبة، ثلاث نساء أمام محكمة الجنایات، فؤاد توفيق المشعلاني، لبنان، ١٩٧٢م.
- ١٦- القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروزابادى، دار الفكر.
- ١٧- الكتاب الذهبي للمحاكم الأهلية، جمهورية مصر العربية، وزارة العدل، المركز القومى للدراسات القضائية.
- ١٨- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٨.
- ١٩- المجموع شرح المذهب، للإمام أبي زكريا التوسي، دار الفكر.
- ٢٠- محاضرات في الأدب القضائي، أحمد فتحى مرسى، جمهورية مصر العربية، وزارة العدل، المركز القومى للدراسات القضائية، ١٩٨٩.
- ٢١- المحامي، عبد الرزاق شبيب، مطبعة العانى، بغداد، ١٩٦٠.
- ٢٢- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٩.
- ٢٣- المرافعات المدنية، سعيد عبد الكريم مبارك، جامعة بغداد، كلية القانون والسياسة، بغداد، ١٩٨٤م.
- ٢٤- المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس ورفاقه، مطبع دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٢.
- ٢٥- المغني والشرح الكبير، ابن قدامة، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧٢.
- ٢٦- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، ١٩٨٦م.
- ٢٧- النقد الأدبي عند اليونان، بدوى طبانة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٦م.

بـ- الأجنبيّة:

1. Leith, Dick, **The Power of Address** London, Routledge 1989.
2. Quintiliani, M. Favi, **Institutionis Oratoriae, Libri duodecim**, Oxford: Oxford V.D. 1970.
3. Romilly, Jacqueline Detrs, **A short History of Greek Literature**. Chicago: The V.ch. 1985.

ثانياً: مع الكتب

مِنْ "كِتَابِ الْمَعْنَى"
لِأَبِي الْعَربِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدِ بْنِ تَمِيمِ التَّمِيميِّ
الْمَوْتُوفُ سَنَةُ ١٣٣٣

تحقيق الدكتور / يحيى وهيب الجبورى
بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط ٢ (١٩٨٨)

مراجعة: عبدالله يحيى السريحي
جامعة صناعة - المكتبة

شهدت الفترة الزمنية التي عاش فيها أبو العرب التميمي (٤٥١ - ٥٣٣) أهم المتغيرات الكبرى في تاريخنا السياسي والفكري والحضاري، وحللت بالمتضادات أو المتافقين الكبار، ففي هذه المرحلة بلغت الثقافة والحضارة الإسلامية أوج ازدهارها ونضجها، فهي مرحلة التقدم العلمي، والنشاط والإبداع الفكري الواسع في مختلف العلوم والفنون (التفسير والحديث والتاريخ واللغة والأدب والطب والكيمياء والفلك... الخ). وفيها بلغ التفاعل الوعي والتميز مع الحضارات والثقافات الأخرى أقصاه، ولهذا فقد كان المستشرق آدم متر محتقاً عندما أطلق على هذه الحقبة وصف "عصر النهضة في الإسلام"^(١) وبجانب هذه الصورة الإيجابية المشرقة، نجد أن هذه المرحلة قد حملت في طياتها بنور انحطاطها وتدهورها، فقد بدأ الضعف والانحلال يسريان تدريجياً في جسم الخلافة الإسلامية (الدولة المركزية) منذ بداية العصر العباسي الثاني، الذي ضعفت فيه الخلافة، وضاعت بين المتغلبين عليها من قادة الترك

(١) وهذا هو العنوان الأصلي لكتابه القيم عن الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، الذي نقله إلى العربية المرحوم محمد عبد الهادي أبو ريدة بعنوان: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام.

والدليل، وأصبحت أحياناً الأعوبة بيد النساء والجواري في قصور الخلافة، وحتى انفراط عقدها وتمزق وحدتها بقيام الدوليات المستقلة، حيث تغلب الطامحون من الولاة أو الزعماء المحليين على مناطق نفوذهم واستثنوا بحكمها، فلم يبق في يد الخليفة - في بعض الأحيان - إلا بغداد وضواحيها. وفي كثير من الأحيان لم يكتف هؤلاء الطامحون بالسيطرة على ما تحت أيديهم فحسب، بل سعى معظمهم إلى بسط سيطرته ومد نفوذه على حساب غيره، فنشأ عن ذلك سلسلة من الحروب الطاحنة فيما بين هذه الدوليات، أدت إلى انتشار الفوضى والفتن، وغياب الأمن والاستقرار. ومن الناحية الاجتماعية، فقد ساد في المجتمع حالة من الرفاهية والترف الزائد عن الحد إلى جانب اليأس والفاقة المدقع، إذ تركزت الثروات الضخمة في أيدي القلة (الخلفاء والأمراء وذوي المناصب ومن يلوذ بهم من الخاصة والمغامرين) وانتشر الفقر والفاقة في صفوف الشعب، وتفشت الأمراض والمجاعات والأوبئة الفتاكـة.

ومن الناحية الفكرية، فقد كانت معظم هذه الدول المستقلة ذات طابع عقائدي ومذهبـي، إذ كان لكل منها مذهبـها الأصولي والفقهي الخاص بها والذي جعلـه مسـوغـاً لدعـونـها الانـفصـالية وخرـوجـها عـلـى سـلـطةـ الـخـلـافـةـ وـطـاعـتهاـ، كـمـاـ اـتـخـذـتـ مـنـهـ أـسـاسـاـ وـمـرـكـزاـ لـنـظـامـ حـكـمـهاـ وـمـسـوغـاـ لـشـرـعيـتـهـ بـعـدـ اـنـفـصـالـهـاـ عـنـ الدـوـلـةـ الـمـرـكـزـيـةـ، وـمـنـ ثـمـ فـكـماـ اـعـتـمـدـتـ هـذـهـ الدـوـلـاتـ عـلـىـ القـوـةـ لـلـاحـفـاظـ بـالـحـكـمـ وـاـسـتـخـدـامـ أـسـالـيـبـ الـبـطـشـ وـالـتـكـيلـ بـمـعـارـضـيـهاـ السـيـاسـيـنـ فـقـدـ اـعـتـمـدـتـ (ـأـغـلـبـهـاـ)ـ عـلـىـ نـشـرـ مـذـهـبـهـاـ فـيـ الـمـنـاطـقـ الـتـيـ تـحـتـ سـيـطـرـتـهـاـ وـفـرـضـهـ بـالـقـوـةـ وـقـمـعـ كـافـةـ الـأـرـاءـ وـالـأـفـكـارـ الـمـخـالـفـةـ لـذـلـكـ الـمـذـهـبـ.

وفي كتاب "المحن" إشارات كثيرة إلى هذا الجانب، فمن ذلك على سبيل المثال: ما ذكره المؤلف (ص ٢٨٠-٢٨١) عن تعذيب الفاطميين وقتلهم لمؤذن مسجد ابن عياش بالقيروان، في السنة التي استولوا فيها على القيروان سنة ٢٩٦هـ، لأنه لم يؤذن به "حي على خير العمل" فقد ضرب هذا المؤذن بالسياط وسلّ (قطع) لسانه، وعلق بين عينيه، وطيف به على حمار، ثم قُتل ومصلب.

وقد كان لتدخل السلطة في هذا الجانب أدنى النتائج وأوسع العواقب، إذ أدى إلى استفحال التعصب الفكري والمذهبي واستحکام العداوة بين أتباع المذاهب، كما أسف عن شیوع ظاهرة الاستبداد بالرأي وفرض الرأي والمذهب الواحد واستبعاد ما عداه، وما ترتب عليه - لاحقاً - من إغلاق باب الاجتهاد، الذي أدى إلى غياب الأصالة، وتراجع الابتكار والتجدد الفكري والحضاري تدريجياً وحل محلهما التقليد والمحاكاة واجترار الماضي، فأصبح الفكر والعقل الإسلامي من جراء ذلك بالشلل والجمود والعجز عن التجدد والاضافة.

وقد انعکست ملامح هذا العصر بشقيه الإيجابي والسلبي، على حياة أبي العرب التميمي وفكرة، وعلى موضوع كتابه "المحن" أيضاً، فمن الناحية الإيجابية: كان أبو العرب التميمي واحداً من أبرز علماء عصره الذين أسهموا في رفد الفكر الإسلامي بالعديد من المؤلفات والكتب القيمة (ذكر المحقق أن له أربعة عشر كتاباً في الفقه والحديث والسيرة والتراجم)^(١). ومن الناحية السلبية، فقد كان أبو العرب من امتد إليهم جور السلطة واستبدادها، فتعرض للحبس والتخويف، سواء في عهد دولة بنى الأغلب، أو الدولة الفاطمية التي قضت على دولة بنى الأغلب في تونس سنة ٢٩٦ هـ.

ولهذا فقد حاول أبو العرب من خلال كتابه هذا (كتاب المحن) "أن يتلمس العزاء والأسوة له ولأبناء عصره المقهورين بأن يلتقط إلى التراث فيلتلمس العزاء بما أصاب أصحاب رسول الله (ص) والتابعين وخيار المسلمين وأشراف الناس من أذى وما نزل بهم من بلاء" (ص ١٠ المقدمة) ليقوى العزائم ويثبت الإيمان في النفوس، لكنه لا تقع فريسة لعوامل اليأس والإحباط.

تطرق كتاب أبي العلاء في مجلمه إلى الموضوعات الآتية:

١- بعد أن افتتح المؤلف كتابه بمجموعة من الأحاديث النبوية عن الابتلاء، ذكر بالتفصيل مقتل الخلفاء الراشدين الثلاثة (عمر،

(١) انظر: كتاب المحن ص ٢٩ - ٣٠ (المقدمة).

- ويعثمان، وعلي) وتلاه ذكر قتل عمار بن ياسر وطلحة والزبير.
- ٢- الإشارة إلى قتلى الجمل وصفين، ومن قتل على يد الخوارج، وذكر قتل الحسين بن علي ومن قتل بالحراء، وذكر قتل عبدالله بن الزبير ومن قتل في حروبها.
- ٣- ذكر من قتله الحجاج من العلماء من خرج مع ابن الأشعث ومن قتل يوم الجماجم من أهل العلم.
- ٤- ذكر من تعرض من الصحابة والتبعين وأهل العلم للامتحان بالترويع أو الضرب أو الحبس والنفي.... إلخ... بمن في ذلك من تعرض للامتحان في محنـة خلق القرآن.
- ٥- ذكر من تعرض للامتحان من معاصرى المؤلف على يد الأغالبة وخاصة في عهد إبراهيم من الأغلب (ت ٢٨٩ هـ) أو على يد الدولة الفاطمية.

وإذا كانت تلك النهضة العلمية والفكرية والحضارية التي عرفها العالم الإسلامي في القرنين الثالث والرابع الهجريين كما يراها كثير من الباحثين المعاصرین، إنما هي ثمرة للافتتاح الفكري والحضاري الذي شهدته عصر الرشيد والمأمون، واهتمامهما الواسع بالعلم والعلماء، فإنه يمكن لنا القول - كذلك - إن التخلف والجمود الذي ألم بال المسلمين عقب هذه المرحلة إنما ترجع جذوره الأولى إلى الجور والاستبداد الذي أعقب تحول الخلافة الراشدة ذات الطابع الشوري، إلى ملك وراثي استبدادي. وكتاب أبي العرب التعميمي هذا يلقي الضوء على مظاهر هذا التحول وما رافقه من الظلم والطغيان... إذ إن الهدف الرئيسي لدى معظم أولئك (الخلفاء والملوك) من سعيهم للوصول إلى السلطة، وهو الوصول إلى السلطة بحد ذاتها. بغرض الاستئثار بها، والاستمتاع بما تضفيه على صاحبها من المجد والجاه والثروة... إلخ، وليس بعدها أو بحسبانها (أي السلطة) كما كانت في عهد الراشدين - وكما أراد لها الإسلام أن تكون وسيلة وأداة لخدمة الأمة وتطبيق مقاصد الإسلام وقيمه ومثله العليا على أرض الواقع وتوفير المناخ الملائم لتحقيق تلك الأهداف والمقاصد في حياة الفرد والمجتمع على

السواء. ولهذا فقد استهان هؤلاء (الخلفاء والملوك) في سعيهم الدؤوب للوصول إلى السلطة والاستئثار بها، بكل القيم والمثل العليا في المجتمع، واستحلوا من أجلها الدماء والأعراض والحرابيات التي جاء الإسلام ليصونها ويعلي من شأنها.

وإذا كان هدف المؤلف من تأليف كتابه - كما سبقت الإشارة - هو تلمس العزاء والأسوة لأولئك المضطهدين في عصره، إلا أن المتأمل للكتاب يستطيع بسهولة إدراك الأهداف الأخرى التي يتواхما من وراء هذا الكتاب، والتي لم يصرح بها - أو بتعبير أدق - لم يجرؤ على الإفصاح عنها أو التصريح بها، والمتمثلة في التحرير على الثورة، مقاومة الجور والدعوة إلى التغيير^(١)، ويدل على ذلك طريقة ترتيب موضوعات كتابه واختيار شخصياته ومورياته ومن ذلك:

١- تركيزه على عصر الخلفاء الراشدين وإبرازه النموذج الأمثل للحكم والتحيين الذي يتواخاه ويدعوه إليه، ومن هذا العصر - أي عصر الراشدين - يبتدئ المؤلف بذكر أحداث كتابه وشخصياته، فقد خصص الجزء الأول منه لذكرى استشهاد الخلفاء الراشدين الثلاثة (عمر وعثمان وعلى) والذين جسدوا بسلوكهم مثل الإسلام وقيمه الرفيعة... واستشهدوا في سبيلها، كما كانوا شديدي الحرث على الالتزام والتمسك بمقاصد الإسلام في الحكم والسلطة من تحري الحق والعدل منذ وصولهم إلى الحكم وحتى آخر لحظة في حياتهم، ولم يغفلوا عنها وهم في آخر المواقف وأصعبها في حياتهم وهي ساعات الاحضار ومواجهة الموت. أما لو كان هدف المؤلف إقناع الناس بالتزرع بالصبر على البلاء والمحن، والخلود إلى السكينة وعدم مقاومة السلطة الظالمة أو الخروج عليها، كما هو الشأن في مؤلفات معاصريه من أهل السنة (المشارقة)، لكان له

(١) يبدو من خلال ذكر المؤلف لبعضحوادث التي حصلت في نهاية القرن الثالث الهجري، أن المؤلف قد قام بتأليف هذا الكتاب في السنوات الأولى من القرن الرابع الهجري، وبعد سقوط القิروان في يد الفاطميين بعدة سنوات، أي أن المؤلف قد أعد كتابه وهو في خضم التحضير للثورة على الفاطميين التي افتى المؤلف بجوازها وانتزك فيها بنفسه (راجع مقدمة المحقق ص ٢٨).

في حياة الرسول (ص) والرعييل الأول من المسلمين الذين ضربوا المثل الأعلى في التضحية والصبر على المكاره واحتمال الأذى، ما يغنهه ولا بدأ بها دون سواها.

٢- إن معظم الأشخاص الذين تطرق المؤلف إلى ذكر محنهم كانوا في طليعة العلماء (الأشراف) - بحسب تعبير الدكتور يحيى الجبوري في المقدمة (ص ١٠) - والذين تمسكوا بمبادئهم وقيم دينهم فلم يتزلقوا للسلطة أو يسيراوا في ركابها ولم يسكنوا أو يتسروا على مفاسدها وجورها، بل تصدوا لجور السلطة وطغيانها، وقاوموها بكل الوسائل، إما بالسيف (كشهداء الحرية وثورة الحسين بن علي وحفيده زيد بن علي)، واشتراك العلماء والقراء في ثورة ابن الأشعث) وإما بال موقف الشجاع وكلمة الحق (كحالة معظم العلماء الذين ذكر المؤلف محنهم) معرضين أنفسهم لبطش السلطة وجبروتها، وصبروا احتساباً لله، على كل ما نالهم من الأذى بسبب مواقفهم الجريئة.

حق كتاب "المحن" وأخرجه في حالة قشيبة الأستاذ الدكتور يحيى وهيب الجبوري، والمحقق الفاضل من خدم العربية والتراجم العربي، ولذلك فإنه لا يعتبر دخيلاً على هذا التراث، بل هو من من خاص غماره وتعمق فيه، فأنجز أعمالاً عدّة في جمع الأدب القديم وتحقيقه، فكان له من ذلك صنعته لكثير من دواوين الشعراء الذين لم تكن لهم دواوين، وأريد بذلك، أنه لم يكن لهم دواوين قام بصنعتها المنتدمون كابن الأعرابي والأصممي وغيرهما، كما اهتم كذلك بدراسة الأدب الجاهلي والإسلامي فكان له من ذلك غير عمل^(١). ونظراً إلى الجد الدكتور يحيى وبعد همته فقد أفاد من سنة التفرغ العلمي التي تعطيها الجامعة لأسانتها، والتي قضتها في إنجلترا، كما لم يجد منها أحد من عرفناه من الأساتذة، فكان له من ذلك ما أعاشه على إصلاح معرفته بالإنجليزية. وأنشاء إقامته هناك، عشر على مجلد فريد من كتاب "منتهي الطلب" الذي عرفنا عنه

(١) انظر قائمة بأعمال المحقق في نهاية كتاب "المحن" ص ٥٦٣ - ٥٦٤

كثيراً. لقد أفاد كثيراً من هذا المجلد، فنشر الكثير مما ورد فيه، وجَلَّه شعراً مجهولون، جاهليون وإسلاميون، وقد اجتمع هو والدكتور حاتم الصسامن على نشر ما انفرد به هذا السفر النفيس، كما عثر مصادفة أثناء هذه المدة على كتاب "المحن" لأبي العرب التعميمي، وعمل على تحقيقه ونشره، فصدرت طبعته الأولى عن دار الغرب الإسلامي بيروت عام (١٩٨٣)^(١) وصدرت الطبعة الثانية - وهي التي نراجعها - عام (١٩٨٨) عن دار النشر نفسها. وقد تيسر لي الاطلاع على الطبعة الأولى للكتاب، بعد صدوره بعدة سنوات - بحكم بعدينا في اليمن عن مراكز النشر في العالم العربي - في أواخر عام (١٩٨٨)، واستمتعت بموضع الكتاب وبالجهد الذي بذله المحقق لإخراج هذا الكتاب في حلته القشيبة، ولفت نظري - كذلك - في هذه الطبعة عدم انسجام مادة الكتاب وتماسكها، بسبب اختلال ترتيب أوراق مخطوطه الكتاب، وأيضاً كثرة التصحيح والأخطاء المطبعية، فقمت بتدوين بعض الملاحظات، مع ما استطعت الاهتماء إليه، من تصحيح قسم من التحريرات والأخطاء المطبعية، وعزمت على نشرها، رغبة مني في تتبیه المحقق الفاضل، ولفت نظره إليها ليستدرکها في الطبعة الثانية للكتاب، لعلمي بأن قيمة الكتاب وأهميته العلمية ستعجل بنفاذ تلك الطبعة في أقرب وقت، ولكنني ترددت في نشرها خوفاً من أن تكون الطبعة الثانية قد صدرت (وهذا ما حدث بالفعل) ثم عدلت عن الفكرة نهائياً عندما وجدت أن الدكتور رضوان السيد، قد راجع الكتاب مراجعة وافية في العدد الرابع من مجلد "الاجتهداد" صيف عام ١٩٨٩م (ص ٢٣٩-٢٤٤)^(٢) ونبأ إلى قسم من تلك الأخطاء التي كنت أريد تتبیه عليها.

(١) وصدرت نشرة أخرى لهذا الكتاب في العام التالي لصدور الطبعة الأولى لنشرة الدكتور الجبوري، أي عام (١٩٨٤م)، تحقيق ودراسة عمر سليمان العقيلي عن دار العلوم للطباعة والنشر بالرياض.

(٢) وقبل ذلك (عام ١٩٨٦م) كان الدكتور سامي الصقار قد تناول بالمراجعة والتقديم كتاب "المحن" طبعة الدكتور العقيلي، وطبعه الدكتور يحيى الأولى ونشر بمجلة كلية الآداب (جامعة الملك سعود بالرياض) المجلد الثالث عشر العدد الأول (١٩٨٦) ص ٣٢٥ - ٣٩٣، ولكنني لم أطلع عليه.

وقد سرت كثيراً عند اطلاعي على الطبعة الثانية للكتاب وعلى ما جاء في مقدمة المحقق لهذه الطبعة (ص ٥) من أنه قد أدرك تلك الهمجات في الطبعة السابقة، وعمل على تلقيها، وبالفعل فقد قام المحقق بتصحيح قسم منها، ولكن قسماً كبيراً منها بقي كما هو (سنشير إلى ذلك بعد قليل).

ولعل مرد هذا القصور البسيط في عمل الدكتور يحيى الجبوري، في هذا الكتاب يعود لسبعين:

الأول: ذكرنا فيما سبق أن المحقق على صلة حميمة بالتراث العربي، ولكن صلته بهذا التراث كما يبدو، وبحكم تخصصه، قد انصبت على الأدب أكثر من غيره وله عذر في ذلك، إذ إن مقتضيات عصرنا الحاضر - الذي تعددت فيه مصادر الثقافة وزادت شعب العلم واشتبكت فروعها - جعلت المعرفة الواقية تتطلب التخصص الدقيق في أحد هذه الفروع، ولا أريد بهذا القول أن أنفي هذا عن الأكاديميين، فقد عرف الأقدمون مثل هذا التخصص، وانصرفوا إليه، فكان منهم لغويون ونحاة وقراء ومحثثون وأصحاب أدب وأخبار،... وكان فيهم من انصرف إلى شيء من فروع علم التاريخ، ومن هذا، العلم بـ "الرجال" و"الطبقات"... غير أن هذا المنحى من الاختصاص لدى المتقدمين لم يمنع من ظهور جمهرة من المؤلفين كتبوا وصنفوا في علوم شتى و المعارف جمّة، ولعل بين هؤلاء من كان مجلباً في كثير من هذه الاشتادات المختلفة. وإذا كان علينا أن نفهم الاختصاص على نحو جديد، فهذا يعني أن علينا أن ننصرف إلى العمل الذي نحسنه، ولنا فيه ما نقوله، وأتنا مزودون بمعرفة تعينا على الوفاء به ليكون عطاونا فيه سخياً. وكتاب "المحن" على غرار الكتب التاريخية والأدبية القديمة يعتمد على أسلوب الرواية، وهذا الأسلوب يتطلب من المحقق أن يكون عارفاً بالأسانيد، وما ينتظمها من الرجال، فإن لم يكن شيء من هذا فقد يعترى العمل الكثير من التصحيف والتحريف، فيصبح "عمرو" عمر، و"جارية" حارثة، و"سمرة" حمزة... إلخ، وهذا ما دفع بالأكاديميين إلى العناية بـ "المشتبه". و"المؤلف والمختلف"... وأصحاب العلم بالرجال والطبقات يدركون أنفسين هذا العلم ومشكلاته.

والسبب الثاني: الاستعجال وعدم التأني في إخراج هذا الكتاب ونشره^(١). إذ إن عملاً كبيراً كهذا تكثُر فيه الأحداث والأسانيد والروايات يتطلب من المحقق التذرع بالصبر وعدم الاستعجال، والرجوع إلى المصادر القديمة (السابقة لعصر المؤلف، أو المعاصرة له) التي نقل عنها المؤلف، أو حتى المصادر اللاحقة التي نقلت عنه، وتصبح هذه المهمة ضرورية أو واجبة، لضبط النص والتتأكد من صحته، إذا كانت النسخة "المخطوطة" التي اعتمدها المحقق في إخراج الكتاب، وحيدة أو كانت ناقصة أو رديئة النسخ، كما هو الحال في المخطوطة الأصلية لهذا الكتاب، أما إذا مال المحقق إلى الاستعجال فقد تزل به قدمه ويخرج عمله ناقصاً أو مشوهاً. ولهذا فلو أن الدكتور يحيى قد تأنى قليلاً في إخراج الكتاب واستعلن بالمصادر التاريخية وبكتب الحديث والرجال والطبقات، لأمكن له التثبت من الأسانيد والروايات ومن ثم الاهتداء إلى تصحيح الأخطاء والتصحيفات التي خلفها الناسخ، واستكمال السقط في تلك المرويات والأخبار. فلو فعل المحقق الفاضل هذا لجاء كتابه أكثر إشراقاً مما هو عليه الآن في هذه الحلة القشيبة.

ننتقل بعد هذا لعرض بعض ملاحظاتنا على هذا السفر الجليل، ويمكن تركيزها في نقطتين: الأولى، حول منهج المحقق في تراجم الأعلام الواردة بالكتاب، والثانية، عن التصحيف والتحريف والأخطاء المطبعية.

ففيما يتعلق بمنهج المحقق في التراجم:

ذكرنا فيما سبق أن مادة الكتاب وموضوعه هو ذكر من تعرض من علماء الأمة وأشرافها لأي نوع من أنواع التعذيب والأذى سواء بالقتل أو الضرب أو الحبس والنفي... وأن المؤلف يورد أخباره ومعلوماته معتمدًا على أسلوب الرواية الموثقة بالأسانيد، أي أن الكتاب يضم بين دفتيه طائفة كبيرة من الأعلام،

(١) أقول: جعلت الاستعجال سبباً لبعض القصور في عمل المحقق في هذا الكتاب، لأن المحقق الفاضل لا يجهل مطلقاً قواعد أو مناهج التحقيق، فقد صدر له عام (١٩٩٣) عن دار الغرب الإسلامي بيروت، كتاب عن: "منهج البحث وتحقيق النصوص".

سواء أكثروا رواة أم ممتحنين، ويبدو أن كثريتهم قد تسبيت في إرباك المحقق فلم يتبع حال هذه الجمهرة من الأعلام منهاجاً واضحاً في التعريف بهم من عدمه، وكانت أود أن يقتصر المحقق في ترجمته على المجهولين من ذوي "المحن" الذين جاء ذكر محنهم في الكتاب وبخاصة من لم يتطرق المؤلف إلى ذكر سببها، ويضمن المحقق في التعريف بهم سبب تلك المحن لتقى القاندة، وأن يصنع مع "الرواية" صنيع الأستاذ محمود محمد شاكر في "تهذيب الآثار وتنصيف الثابت عن رسول الله (ص) من الأخبار" الذي أله أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣٦١هـ) ووصل إلينا من هذا الكتاب:

- أ- مسند عمر بن الخطاب: في ثلاثة أجزاء
- ب- مسند علي بن أبي طالب: في جزء واحد
- ج- مسند عبدالله بن عباس: في جزأين.

وجميعها تحقيق الشيخ محمد شاكر، فلو صنع الدكتور يحيى صنيع الشيخ الجليل لكان قد أصاب وأحسن، فالشيخ محمد شاكر وجد أن الأمر في تحقيق كتاب تكثير أسانيده يتتجاوز الترجم التي قد يتعدى الحصول في قسم منها على فوائد على وجه واف من الاستيفاء، فاقتصر عمله على شيء مفيض غایة الإلقاء هو صنيع فهرس لرجال الأسانيد مقسماً إلى طبقات ست بحسب المنهج التاريخي، غير أنه تجد في حواشيه فوائد سنوية لا تخلي من ترجم كان لابد من إثباتها.

أو أن يصنع صنيع المستشرقين في اقتصارهم على ضبط الأعلام وإبعادها عن الخطأ والتصحيف، ولم يكلفوا أنفسهم عناء الترجمة للأعلام ولا سيما الذين يتعدد ذكرهم في الأسانيد. أقول ذلك لأنه بالرغم من إعلان المحقق (في المقدمة) عن الخطة التي سيتبعها في الترجم للأعلام^(١) إلا أن الارتجال وعدم وضوح المنهج هي السمة الرئيسية السائدة في الكتاب، فقد يترجم علمًا ويترك

(١) قال المحقق في مقدمة الكتاب (ص ص ٣٦ - ٣٧): وترجمت للأعلام الذين رأيت في الترجمة لهم ضرورة أو ابضاها لفهم الرواية، أو أن في الاسم إشكالاً في القراءة أو أن يلتبس بغيره من الأسماء... أو أن يكون المترجم مجهولاً وفي ذكره فائدة أو أن الترجمة ذاتها تفسر الغموض أو اللبس الذي في الرواية... .

جمهرة أخرى في الصفحة نفسها، وربما كان المترجم له معروفاً... إلخ. ويمكن لنا - قبل تقديم ملاحظاتنا - أن ننقل هنا نص إسناد أول روایة افتتح بها المؤلف كتابه، لنرى كيف تعامل المحقق مع الأعلام في سلسلة هذا الإسناد: "حدثني أبو جعفر تميم بن محمد.... أحمد القروي، قال: حدثني - رحمة الله - محمد بن أحمد بن تميم التميمي، قال: حدثنا أحمد بن متعب، قال: حدثنا أحمد بن عبدالله بن صالح الكوفي، قال: حدثنا الفضل بن دكين، قال: حدثنا سفيان عن عاصم عن مصعب بن سعد، عن سعيد، قال: سئل النبي (ص) أي الناس أشد بلاء، قال: الأنبياء ثم الأمثل...." (ص ٥٧).

أقول: من بين هؤلاء الأعلام ترجم المحقق للفضل بن دكين، ويبدو أن ذلك بسبب التصحيح في أصل المخطوط في اسم "دكين" ولا أدري هل قصد بهذه الترجمة "الفضل" أم "دكين" لأن صياغة الهاشم توحى بأن المترجم له هو دكين بينما هي ترجمة الفضل (لفظ الهاشم: في الأصل عكين وصححه في الهاشم، ودكين، هو عمرو بن حماد التميمي من أهل الكوفة محدث حافظ...) وفي هذا الإسناد "سفيان" وكان الواجب أن يعين "سفيان" هذا فهو سفيان الشوري مثلاً أو أنه "سفيان" آخر^(١)، وتترك التعريف بـ "عاصم" ولكنه حين وجده في الصفحة التي تليها (أي صفحة ٥٨) عاصم بن أبي النجود ترجم له، وكان "عاصماً" الذي ورد في (ص ٥٧) غير متبع بكنية أبيه هو علم آخر وكان يتوجب أن يعرف بـ "عاصم" في (ص ٥٧). وأهمل المحقق التعريف بـ "مصعب بن سعد" وبقية الرواة وكأنهم أشهر من الصحابي المعروف "أنس بن مالك" الذي عُرف به في الصفحة التي تليها (ص ٥٨) ولم يسأل المحقق نفسه عن من يكون (سعيد) الذي يروي عنه "مصعب". ولو نظر في الصفحة التي تليها (ص ٥٨) لوجد أن مصعب بن سعد (بن أبي وقار) يروي عن أبيه، عن النبي (ص) أي أن "سعيداً" هذا هو "سعد بن أبي وقار" وليس "سعيداً".

- ذكر المحقق في المقدمة اقتصاره في التراجم على المجهولين وأكذ في

(١) ولهذا لم يدرج المحقق اسم "سفيان" الذي ورد في صفحتي ٥٧، ٥٨ غير متبع بلقبه في فهرس الأعلام.

الهامش رقم (٥) ص ٨٩، عندما ورد ذكر عبدالله بن الزبير أنه "لا يترجم للأعلام المشهورين"، إلا أنه ترجم مع ذلك للكثير من الأعلام المشهورين، فمن المشاهير الذين ترجم لهم المحقق: أئمة المذاهب الأربع، فقد ترجم للإمام مالك بن أنس مرتين (ص ٣١٩، ٨٧) وترجم للشافعى (ص ٤٣٠) ولأحمد بن حنبل (ص ٤٣٥) ولأبي حنيفة (ص ٢٦٠ - ٢٦١).

- وبينما أغفل المحقق التعريف بعشرات الأعلام الذين ذكر المؤلف محتفهم وهم في حكم المجهولين ويحتاجون إلى التعريف بهم، نجده يغدق على قسم من الأعلام - وبعضهم من المشهورين - بالترجمة أكثر من مرة، فمن ذلك:

ترجم لـ "أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع" أربع مرات (ص ١٠٦، ١٣٤، ٢٩٦، ٤٤٨)، وترجم للبعض ثلاث مرات مثل: عمير بن ضابي البرجمي (ص ٩٣، ٢٥٥، ٢٧٠)، وسعيد بن العاص (ص ٨٩، ٢٣٤، ٣٧٢). وهناك مجموعة كبيرة من الأعلام ترجم لهم مرتين، نذكر منهم:

عبدالله بن علي بن عبدالله بن العباس (ص ٢٣٤، ٢٧٢) وأبو مسهر الدمشقي (ص ٤٤٦، ٢٧٢)، وأبو البختري، سعيد بن فiroز الطائي (ص ٢٠٣، ٢٧٤) ومحمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية) (ص ١٩٥، ٣٣٥)، وسعيد بن جبير (ص ٥٩، ٢٠٤)، والأحنف بن قيس (ص ٣٤٩، ١٠٣)، وخالد بن عبدالله القسري (ص ٣٤٣، ٢٢٦)، وأنس بن مالك (ص ٥٨، ٢٦٩) وعمير بن هانى العنسي (ص ١٥٨، ٢٣١)، وعطاء بن أبي رباح (ص ٣٣٠، ٤٤٣)، وبيهى بن عمر الوشقى (ص ٣٣١، ٣٨٧)، ومحمد بن عبد الرحمن.. بن أبي نتب (ص ٣٧٢، ٣٩٦)، وإبراهيم بن يزيد النخعى (ص ٣٩٣، ٣٩٩)، وسحنون (ص ٦٠، ٤٤٣)، وأحمد بن أبي دؤاد (ص ٤٣٦، ٢٥٨) وإبراهيم بن أحمد.... ابن الأغلب (ص ٤٦٣، ٢٧٩)، والأوزاعى (ص ٣٦٩، ٢٨٥) وجابر بن عبدالله... الخزرجي (ص ٤٢٥، ٣١٤)، وطلق بن حبيب العنزي (ص ٣٤٣، ٤٠٤)، ومجاحد بن جبر (ص ٤٠٩، ٢٣٠) وعثمان بن حيان المري (ص

أقول: قد يكون سبب تكرار ترجم قسم من هؤلاء الأعلام يعود إلى وجود تصحيف أو تحريف في المخطوطة، في اسم الشخص المترجم كما حذر مثلاً مع "أصيغ بن الفرج" فسبب ترجمته في الموضع الأربعه هذا التصحيف في اسمه أو اسم أبيه. ولكن كان على المحقق إزاء هذه الحالة (أي تكرار التصحيف) أن يشير في الهاشم إلى هذا التصحيف دونما حاجة إلى تكرار الترجمة، ويمكن أن يحيل القارئ إلى الصفحة التي سبق للمحقق الترجمة له فيها. وأيضاً فقد يحدث مثل هذا التكرار في الترجم على سبيل السهو والنسيان، ولكن تدارك مثل هذا السهو ليس بالعسير، إذ يمكن اكتشافه إما عند مراجعة المسودة قبل الطبع أو أثناء عمل الفهارس العامة (الأعلام، والمواضيعات.....).

- وأحياناً يرد في الكتاب محلة شخص (غير مشهور) وبدلأ من أن يعرف المحقق بهذا الشخص لتقى الفاندة ويوضح النص، يقوم بالتعريف بأحد أقاربه الذي يرد اسمه عرضاً في النص: ففي (ص ١٣٥) ذكر المؤلف قصة قتل عبدالله بن خباب بن الأرت على يد الخوارج، ولم يعرف به المحقق، بل عرف بأبيه خباب بن الأرت (الصحابي)، وفي (ص ٢٧٢) جاء ذكر قتل والد أبي مسهر الدمشقي، فترجم لـ "أبي مسهر" ولم يترجم لوالده صاحب القصة، ولم يكتف المحقق بهذه الترجمة لأبي مسهر، إذ ترجم له مرة أخرى (ص ٤٤٦) عندما جاء ذكر محتنته.

- ذكر المحقق في المقدمة (ص ٣٦) أن من دواعي ترجمته لأي شخص "أن يكون في ترجمته أو أن الترجمة ذاتها تفسر الغموض أو اللبس في الرواية".

أقول: ولكن قسماً من الترجمات تأتي غير منسجمة مع هذه الخطبة فتأتي الترجمة، إما غير مفيدة، وإما في غير مكانها الذي يفترض أنها تأتي لتكشف غموض النص، فمن ذلك على سبيل المثال:

ورد اسم: أسد بن الفرات (كراء) ١٥ مرة من (ص ٦٢ - ٢٩٠) فلما

ورد ذكره للمرة السادسة عشرة (ص ٣٠٣) ترجم له. وورد ذكر زيد بن ثابت عرضاً أربع مرات (ص ٨٣، ١٦٥، ١٧٧، ٢٩١) فترجم له في المرة الرابعة (ص ٢٩١). وترجم لسفیان الثوری مرتبین (ص ٢٢٩، ٢٧٥)، وكان من الأفضل أن يؤجل ترجمته إلى (ص ٤٢٠ - ٤٢٢) عندما وردت قصة محته (استخفاته) وورد ذكر النعمان بن بشير عرضاً (ص ١٤٤، ١٤٩) فترجم له ص ١٤٩ وكان المفروض كذلك أن يؤجل ترجمته - أو حتى يحيل إليها - إلى حين ورود خبر قتله (ص ٢٠٠).

و جاء ذكر قصة قتل معقل بن سنان الأشعري (ص ١٦٩ - ١٧٠) ولم يترجم له، ثم ترجم له (ص ٣٤٢) عندما ورد ذكره عرضاً.

وذكر المؤلف سبب ضرب ربيعة بن أبي عبدالرحمن، المعروف بـ "ربيعة الرأي" (ص ٣١١ - ٣١٢) ولم يترجم له فلما ورد ذكره عرضاً (ص ٣٨٢) ترجم له.

- أما الملاحظة الثانية، فتعلق بالأخطاء في قراءة النص نتيجة التحريف أو التصحيف من قبل الناشر، أو نتيجة الأخطاء المطبعية:-

جاء في الصفحة (٥٨).. حدثنا حماد بن زيد بن عاصم بن بهدلة عن مصعب بن سعد عن سعد عن أبيه... .

أقول: والصواب: حدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن مصعب بن سعد عن أبيه.

و جاء في الصفحة (٦٢).. قال كعب إذا رأيت الشارق قد غربت...
والصواب: قد غرب.

و جاء في الصفحة (٦٦) عندما أرسل عمر بن الخطاب ابنه عبدالله إلى عائشة يسألها الإنذن في أن يدفن إلى جوار صاحبيه، رسول الله (ص) وأبي بكر قال: - وتقول لها (والخطاب من عمر إلى ابنه عبدالله) يقول لك عمر ايدنني

فُلّادن مع صاحبِي ...

أقول والصواب:.. أن أدفن، كما في رواية ابن سعد في الطبقات الكبرى
(طبعة بريل ٢٤٥/٣ - ١٣٢٢ هـ) ، الطبرى (طبعة: أبو الفضل
إبراهيم، القاهرة ط ٢ ١٩٧١) . ١٩٢/٤

وجاء في الصفحة نفسها: ليتني { وليت } ذلك كفافاً لا على ولا ولسي...
وعلق المحقق على كلمة { وليت } بأنها إضافة حتى يستقيم النص...

أقول: والصواب كما جاء في (ص ٧٠) ليتني أنجو من ذلك كفافاً.. أو
(أفلت) كما جاء في (ص ٧٥)

وجاء في الصفحة (٦٧) في وصية عمر بن الخطاب للخلفية بعده:
وأوصيه بذمة الله وذمة رسول الله (ص) وأن يوفي إليهم بعهدهم وأن
يقاتل من ورائهم (كذا).
أقول: والصواب من وراءهم.

وجاء فيها أيضاً في الكلام على عمر بعد أن طعن أبو لؤلؤة:
... ورمى مباح عليه برنساً أو خميصة سوداء...

أقول: وما المراد بـ "مباح" هذا؟ وقد جاء في الصفحة (٦٥) في رواية
الحادية نفسها "فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَجُلًا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ طَرَحَ عَلَيْهِ بَرْنَسًا لَهُ لِيَأْخُذَهُ".
وذكر ابن سعد (الطبقات ٢٥٢/٣) أن اسم الرجل الذي طرح البرنس
عبدالله بن عوف الزهرى، وعند ابن عبد ربه (العقد الفريد، طبعة دار الهلال
بيروت ط ٢ ١٩٩٠) حطآن التميمي.

وجاء في الصفحة (٧٠) في سبب قتل عبيد الله بن عمر الهرمزان:

قال ابن اسحق عن... عن سعيد بن المسيب قال: كان الذي تشبه عليهم في جفينة والهرمزان أن عبدالله بن أبي بكر قال....

وعلق المحقق في الهاشم رقم (٣) كذا بالأصل عبدالله بن أبي بكر ولعل الصواب محمد بن أبي بكر، لأن عبدالله توفي سنة (١١هـ).

أقول: والصواب: عبد الرحمن بن أبي بكر (طبقات ابن سعد ٢٥٨/٣).
وجاء في آخر صفحة (٧٣) وبداية الصفحة (٧٤) في كتاب عمر بعد إصابته:

... وسيطعن في هذا الأمر (أي الاستخلاف) أناس من الناس وأنا قاتلهم (كذا) بيدى على الإسلام... وإنى والله ما تركت شيئاً هو لهم (كذا) عندي من أمر الكللة، وما أغلط لى رسول الله (ص) في شيء ما أغلط لى فيها حتى لقد طعن في (كذا) بإصبعيه في خاصرتي....

أقول والصواب:.. وأنا قاتلهم... ما تركت شيئاً هو أهم عندي... حتى لقد طعن بإصبعيه في خاصرتي..

وجاء في الصفحة (٧٨) في ذكر مقتل عثمان:

“وجاء رجل طوال بيده نصل فأهوى إليه بمشقص كان أو سلاح أصحابه به، فقال (راوي الخبر): صاحب المشقص نيار بن عياض الإسلامي.”

أقول: عرف المحقق بالمشقص ولم يعرف بنيار بن عياض، وكان من حق القارئ أن يعرفه حتى لا يشتبه عليه الأمر، لأن ورود اسم نيار في النص يوحى بأنه أحد قتلة عثمان، وليس الأمر كذلك، فنيار هذا هو شيخ كبير من أصحاب النبي (ص) حاول أثناء حصار الثوار لدار عثمان، أن يجنب المسلمين الفتنة فنادى عثمان الذي أشرف عليه من أعلى داره، فناشده وذكره الله لما اعتر لهم، فبينما هو يراجعه في الكلام إذ رماه رجل من أصحاب عثمان بسهم فقتله.

وعند ذلك طالب الثوار عثمان أن يدفع إليهم قاتل نيار، ولكن عثمان رفض ذلك مما أدى إلى شدة هياج الثوار، وإحراق باب دار عثمان وتسور داره وقتله، واستخدم القتلة مشخص نيار في قتل عثمان... (الطبرى ٤ / ٣٨٠ - ٣٨٢).

وجاء في الصفحة (٩٤، ٩٥) في ذكر قتل علي بن أبي طالب: دعا علي الناس إلى البيعة، وجاء عبد الرحمن بن ملجم فيهم فرده مرتين أو ثلاثة ثم بايعه، فقال (أي علي) أما يحبس أشقاها... .

أقول: والصواب: ما يحبس (أشقاها) (ابن سعد ٣ / ٣٣).

وجاء في الصفحة (٩٧): عن خالد أبي حفص عن أبيه أنه سمع علياً قبل أن يصاب بأربع يقول: إن الشقى أن له أن يجيء فيضرب هذه - جبهته - حتى يخضب هذه بدم لحيته... .

أقول: أولاً إن اسم الراوى خالد بن حفص وليس أبي حفص.

وثانياً: إن اللحية ليس بها دم، وإنما المراد كما وردت في عدة روایات في هذا الكتاب: أن تخضب لحيته بدم جبهته، ولعل التقديم والتأخير في الجملة خطأ من الناسخ.

وجاء في الصفحة (٩٦):

خذ حذرك للموت فابن الموت أتيكـا

أقول: ليست رواية الرجز مقيدة للوزن، وصوابه أن يكون

خذن حذرك للموت فابن الموت أتيكـ.

وجاء في الصفحة (١٠٣) (ذكر قتل طلحة والزبير وعمار):

.... فانطلق الزبير حتى أتى سفوان فتقلاه النغر الماجاشعي... .

أقول: ورد اسم الرجل عند الطبرى (٤٩٨/٤) وابن سعد (٧٨/٣) التُّعْرِ
المجاشىء.

وجاء في الصفحة نفسها: قال الأحنف بن قيس: ابن يلحق بِنَيْتِهِ والصواب
يلحق بِبَيْتِهِ.

وجاء في الصفحة (١٠٥) هذا البيت وهو ثالث ثلاثة:

شَلَّتْ (كذا) يمينك إِنْ قَتَلْتْ مِيَارَكَ
حَلَّتْ عَلَيْكَ عَقْوَةُ الْمُتَعَمِّدِ

أقول: والصواب: شَلَّتْ (فتح الشين) والبيت في شواهد النهاة، وهم يأتون
به في زيادة اللام المفتوحة في المفعول وروايتهم:-

شَلَّتْ يَمِينَكَ إِنْ قَتَلْتَ لَمْسَلَّمًا.....

وجاء في الصفحة (١٠٩):

وحدثنا يحيى عن أبيه.... أنهما سمعا الزبير بن العوام يقول: لقد تلوت هذه
الأية زماناً ما أحدث نفسي أن أكون من أهلها فإذا نحن المعنون (كذا) بها. وقد
علق المحقق في الهاشم بقوله: زماناً ما أحدث نفسي... المعنون بها خرجة من
الحاشية".

أقول: كنت أميل إلى حمل "المعنون" على الخطأ المطبعي لولا تأكيد
المحقق لها في الهاشم.

والصواب: فإذا نحن المعنون بها.

- وجاء في الصفحة (١١٢) (في خبر قتل عمار)

".... فلما كان يوم صفين أقبل (أي عمار) يمشي أول الكتابة راجلاً حتى
كان بين الصفين طعن رجل في ركبته بالرمح فانكشف المعرف عنه. فأضربه (كذا)

فإذا رأس عمار."

أقول: والصواب أن تكون الجملة على النحو الآتي:

فلما كان يوم صفين أقبل يمشي أول الكتبية راجلاً حتى (إذا) كان بين الصفين (طعنه) رجل.... فاكنا المفتر عنده (فضربته) فإذا رأس عمار.

وجاء في الصفحة (١١٣) وفي ذكر قتل عمار أيضاً:

... فسمعته يقول (أي عمار): الجنة تحت الأسنة، اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه....

أقول: كتب المحقق هذه الجمل متصلة، وكأنه لم يدرك أن ما قاله عمار هو رجز، وكان المفروض أن تكتب هكذا:

الجنة تحت الأسنة اليوم ألقى الأحبة
محمدًا وحزبه

(الطبرى ٤١، ٣٩/٥، ابن سعد ١٨٤/٣)

جاء في الصفحة (١٣٠) في ذكر مقتل حجر بن عدي:

..... فاختاروا زياذاً فأرسلوه إلى معاوية فأخذ لهم الأمان وبابعه على سنة الله (كذا) وسنة رسوله (ص)....

أقول: والصواب ... وبابعه على كتاب الله وسنة رسوله (ص).

وجاء في الصفحة (١٣٧) في ذكر قتل عبدالله بن خباب بن الأرت:

" قال عبدالله: عليكم السلام إذا لم تتعلوا، قالوا (أي الخوارج) إن هذا يأمرنا بضربك - هذا يعنون المصحف - فقتلوه وقتلوا رجلاً من مزينة ورجلاً

من بنى شيبان، قال عبدالله بن خباب: ما أحيا الكتاب فأحيوه، وما أمات فاميته، فنزلوا فقتلوا رجلاً من مزينة ورجلًا من بنى شيبان وجبروا الخراج....

أقول: من الملاحظ في هذه الفقرة تكرار وتدخل الجمل، ويبدو أن ذلك إما من سهو الناشر أو عامل المطبعة، ولم ينتبه إليه المحقق، وصوابها:

"... قال عبدالله: عليكم السلام إذا لم تفعلوا، قالوا: إن هذا يأمرنا بقتلك - هذا يعني المصحف - قال عبدالله بن خباب: ما أحيا القرآن فأحيوه وما أمات فاميته، فنزلوا فقتلوا رجلاً من مزينة ورجلًا من بنى شيبان وجبروا الخراج...".

وجاء في الصفحة (١٤٠) هذا البيت:

حسبك من لا يظلم الناس حبه وهو ذو عضو كريم ومفضل

وقد أشار المحقق في الهامش إلى أن البيت مختل الوزن، أقول: ويستقيم الوزن لو قلنا:

فحسبك من لا يظلم الناس حبه وهو ذو عفو كريم ومفضل

وجاء في الصفحة (١٦١) في ذكر من قتل يوم الحرة، ومن رسالة يزيد بن معاوية لأهل المدينة يتهددهم بها:

.... والله لن ثرت بكم لأضعنكم تحت رגלי، ثم لأطأنكم وطأة أقل فيها عدكم وأنركم أحاديث لشج (كذا) كأحاديث عاد وثعود...."

أقول: وـ"الشج" هذه لا معنى لها في الجملة، وهي تحريف من الناشر لـ (تنفس) كما وردت في العقد الفريد (١٧٣/٤٠) وصبح الأعشى (٣٩٠/٦) أي أن الجملة:

... وأنركم أحاديث تنفس كأحاديث عاد وثعود....

وجاء في نهاية الصفحة (١٦١) وبداية الصفحة (١٦٢):

... وقال الواقدي عن داود بن الحصين عن أبي سفيان قال....

أقول: والصواب: قال الواقدي عن داود بن الحصين عن (عبدالله) ابن أبي سفيان.... (ذكر المؤلف عدة روايات عن عبدالله بن أبي سفيان في الصفحات ١٦٤، ١٦٦، ١٧٢).

وجاء في الصفحة (١٦٢) السطر الخامس:

.... لما اجتمع يزيد بن معاوية على بعثه الجيوش إلى المدينة....

والصواب: لما أجمع يزيد.....

وجاء في الصفحة نفسها (س ٤)

.... فأنظر إليه يبايعهم على الموت....

أقول: ولعل الجملة: فإنني أنظر إليه يبايعهم على الموت.

وجاء من الصفحة (١٦٣) السطر (١٥):

فقال (أبي مسلم بن عقبة) لمروان: أقر ما قلت لي....

والصواب: أين ما قلت لي؟ (الإمامية والسياسة) لابن قتيبة طبعة الحلبي
(١٩٣٧) (٢٢٢/١)

وجاء في الصفحة (١٦٦)

.... مر (أبي مروان بن الحكم) على عبدالله بن زيد وبين عينيه أثر السجود فلما نظر إليه مروان وكره أن يعرف به فحز راسه....

والصواب: فكره أن يُعرف به فيحز راسه.

وجاء في الصفحة (١٧٣) في تسمية من قتل بالحربَ.

قال: (أبي الواقدي) قرأت كتاب إبراهيم بن إسماعيل... تسمية من قتل بالحربة، وأخبرني إبراهيم أن الكتاب كتاب داود بن الحسين مولى آل عثمان بن عفان، من بن هاشم...".

أقول: لعل في الجملة سقط بعد كلمة: مولى آل عثمان، والصواب أن تكون الفقرة هكذا:

... وأخبرني إبراهيم أن الكتاب كتاب داود بن الحسين مولى آل عثمان: (فمن قتل بالحربة من قريش ثم) من بنى هاشم... الخ

أقول: ذكر المؤلف في (ص ١٧٧) س ١٤-١٣: فجميع من يحصى ممن قتل من قريش مائة رجل وتسعة وخمسون رجلاً، (ثم ينتقل بعدها لإحصاء قتلى الأنصار) وانظر أيضاً: تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، النجف (١٣٨٦ـ٢٣١) / ١.

- أورد المؤلف أسماء من قتل بالحربة من المشهورين من قريش والأنصار وغيرهم (ص ١٧٣-١٨٢)، ولكن المحقق الفاضل لم يدقق كثيراً في ضبط أسماء هذه الجمهرة من الأعلام، ولو تأنى لوجد أن خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ تقريباً) قد أثبت في تاريخه أسماء هؤلاء الشهداء وبنفس ترتيب كتاب المحن (مع اختلاف يسير وترجمت - كذلك - بعض كتب الطبقات لطائفه منهم، وكان بإمكان المحقق - على الأقل - أن يشير إلى الاختلاف بين أبيي العرب وخليفة بن خياط، إذا لم يتمكن من ترجيح الصحيح منها بالرجوع إلى مصادر أخرى، وسنكتفي بذلك بعض هؤلاء الأعلام على سبيل المثال، مع مقارنتها بما أورده خليفة بن خياط أو ابن سعد:

ومن بني المطلب بن عبد مناف: يحيى بن نافع بن عمير بن يحيى، (و)
 يزيد بن هاشم بن المطلب، وعبدالله بن نافع بن عمير بن عبدالله بن يزيد بن
 هاشم....".

أقول: وعند خليفة بن خياط (٢٣١/١) يحيى بن نافع بن عجير بن عبد
 يزيد بن هاشم.... وعبدالله بن نافع بن عجير (بن عبد يزيد بن هاشم)

وفي (ص ١٧٤) س ٢-١:

ومن حلفائهم... عبدالله بن عباد بن شيبان، وصفوان بن عبدالله بن
 شيبان، والأسود بن عمار بن شيبان....".

أقول: وعند خليفة بن خياط (٢٣١/١):

.... وصفوان بن عباد بن شيبان، والأسود بن عباد بن شيبان.

وفي الصفحة نفسها (س ١٨)

الزبير بن عبد الرحمن بن عوف....

وعند خليفة بن خياط (٢٣٣/١): زيد بن عبد الرحمن....

وفي الصفحة السابقة (س ٢١)... ومحمد بن الأسود بن مخرمة.

وعند خليفة (٢٣٣/١) ومحمد بن المسود بن مخرمة.

وجاء في آخر الصفحة (١٧٥) وببداية الصفحة (١٧٦):

ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي: ذؤيب بن عمامة،
 (قال المحقق في الهاشم عن عمامة: في الأصل عمامة) وفلان بن الأحسن بن

حذافة... ومن حلفائهم مناع بن خلفة، ومضاء بن مناع...”

أقول: وعند خليفة (٢٣٥/١)

.... ذونب بن عمرو بن خنيس بن حذافة بن سعد بن سهم، وابنه..
ومياح بن خلف، وفضالة بن مياح.

- وأيضا في (ص ١٧٥) س ٩ - ١٠:.. ومؤمن بن الحارث بن الطفيلي...

. وعند خليفة (٢٣٤/١)... وموسى بن الحارث بن الطفيلي.

وفي الصفحة نفسها، س ١١: ومن موالיהם: عمار بن صهيب بن
مصعب....

وعند ابن سعد (**الطبقات الكبرى** ١٨٢/٥): عمارة بن صهيب.... وفي
(ص ١٧٦) س ٤ - ٥:

ومن بني جمح: عبد الملك بن محمد بن الخطاب بن معمر بن حبيب
والخطاب بن الحارث...

. وعند خليفة (٢٣٦/١) عبد الملك بن حطّاب... وحطّاب بن الحارث...

وفي الصفحة نفسها، س ١٩ - ٢٠: ومن بني معيصن... فضالة بن
خالد بن تالية، والحارث بن خالد بن تالية، ومسلم بن خالد بن تالية، وفلان بن
خالد بن تالية أقول: وعند خليفة (٢٣٧/١): فضالة بن خالد بن نائلة (وليس ابن
تالية)...

وفي (ص ١٧٧) س ١: ومن بني الحارث بن فهر: سعيد بن أبي
عبد الله.... وعند خليفة (٢٣٧/١) شعيب بن أبي عبدالله.

وفي الصفحة نفسها (س ٢)... ومصعب بن عبدالله بن أبي حكيم.. وعند

الخليفة (٢٣٧/١) ومصعب بن عبد الله بن أبي خيثمة.

وفيها أيضاً (س٦): وزياد بن أبي همامة..

و عند الخليفة (٢٣٧/١).. وزياد بن أبي أميمة..

وفيها أيضاً (س١٨ - ١٩): محمد بن عمرو بن حزم، وهم ستة، ثلاثة الأولاد محمد بن عمرو بن حزم، وعبد الله بن محمد بن عمرو بن حزم، وحزام بن زيد بن لوعان.... إلخ

أقول: ذكر الخليفة بن خياط (٢٤١/١) أسماء أولاد محمد بن عمرو بن حزم، وهم عبد الرحمن وعثمان وعبد الملك، ولم يرد لـ "حزام بن زيد بن لوعان" أي ذكر عند الخليفة، وربما كان هذا الاسم "حزام" مصحفاً عن "حزم" و "لوعان" مصحفاً عن "لوذان" وأن المؤلف قد بدأ ذلك تتمة نسب محمد بن عمرو بن حزم، وقد ذكر نسبه ابن سعد (٤٩/٥ - ٥٠): محمد بن عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان.....،

وفيها أيضاً (س٢١، ٢٠): والعلي بن عبدالله بن الربيع بن نعمان بن أبي يساف بن نضلة، وعمرو بن العلي بن عمر و... .

و عند الخليفة (٢٤١/١): والعلاء بن عبدالله بن رقيم بن نضلة وعمرو بن المعلى بن عمر و.

وفي (ص ١٧٨) س ١٥ - ١٦، وعمارة بن عقبة بن كريز.

و عند ابن سعد (٥/١٩٦) عمارة بن عقبة بن كريم

وفي الصفحة نفسها (س١٩): وبشر بن أبي عياش... .

و عند ابن سعد (٥/٢٠٥) بشير بن أبي عياش

وفي (ص ١٧٩) س ٥ - ٧: وعن الحارث بن الخزرج: عبدالرحمن بن خبيب بن أسف بن عبيد، ومحمد بن عبدالله بن خالد بن أسف... وسعد بن كلب بن أسف....

أقول: وكذلك وردت أسماء هؤلاء عند خليفة بن خياط (٢٤٢/١ - ٢٤٣) وعند ابن سعد (الطبقات ١٩٩/٥): عبدالرحمن بن عبدالله بن خبيب بن يساف بن عنابة... إلخ وذكر كذلك في نسب محمد بن عبدالله.... بن الحارث بن الخزرج، أن أمه: سعدى بنت كلب بن يساف (١٩٩/٥).

وفي (ص ١٨٠) س ٩ - ١٠: ومن بني رُزِيق: فروة بن أبي عبادة بن سعد بن عثمان، وابنه عثمان بن فروة، وسعيد بن أبي عبادة....

أقول: وعند خليفة (٢٤٤/١): عروة بن أبي عمارة (بدلاً عن فروة بن أبي عبادة). وعند أبي سعد (٢٠٥/٥ - ٢٠٦) فروة بن أبي عبادة سعد بن عثمان، (اسم أبي عبادة: سعد بن عثمان).

وفي الصفحة نفسها (س ٢١) ومن بني زعوراء: عباس بن سلكان بن سلامة وعند ابن سعد (١٨٨/٥) عباد بن أبي نائلة سلكان.

وفي (ص ١٨١) س ٢: وسلامة بن عباد بن سلكان:

وعند ابن سعد (١٨٨/٥) وسلامة بن عباد بن سلكان

وفي الصفحة نفسها (س ١٣): ومن بني عمرو بن عوف: يحيى بن مجمع بن حارثة، وعبدالله بن مجمع بن حارثة.

وعند ابن سعد (١٩٢/٥).... ابن جارية، وليس ابن حارثة

وجاء في الصفحة (١٨٦) في خبر محاصرة الحصين بن نمير لمكة حينما بلغه موت يزيد بن معاوية.

".... فمال حصين وأصحابه إلى الشام رسلًا حتى قدموا الشام فلما قدموا وجدوا معاوية بن يزيد قد مات....."

أقول: هذه الجملة غير منهومة، ويبعد أن فيها نقصاً ويمكن أن تكون الجملة هكذا:

.... فمال حصين وأصحابه (إلى موادعة ابن الزبير وأرسلوا) إلى الشام
رسلاً....

وجاء في الصفحة (١٨٧) في كيفية قتل مروان بن الحكم:

"فأمرت (أي زوجة مروان وأم خالد بن يزيد بن معاوية) جواريها فطربن عليه الشوارك (كذا) ثم غطينه حتى مات..."

أقول: والصواب: الشواذك وليس الشوارك وهي فارسية مفردها، شادكونة، وتعني: الفراش الذي ينام عليه، والمتکا.... الخ (المعجم الذهبي / محمد التونجي طبعة: دار العلم للملاتين؛ ص ٣٦١) (قطر العرب المحيط لبطرس البستانى، طبعة دار المشروع ١٠٢٢/١).

- وجاء في الصفحة (١٩٦) في ذكر مقتل عمر بن سعد بن أبي وقاص:
"فقال المختار بن أبي عبيد لأبي عمارة صاحب حرسه: استأجر لي نوانحاً يبيكين على الحسين...."

والصواب: نوانح

- وجاء في الصفحة (١٩٨) في ذكر من قتل يوم مر ج راهط:
حدثنا عن أبيه... عن أبي عشر أن عمر بن سعيد عمل على الضحاك بن قيس... فأقبل عمر والضحاك بمرج راهط..."

والصواب:... أن عمرو بن سعيد (وليس عمر) عمل على (خداع)
الضحاك بن قيس... فأقبل عمرو، والضحاك بمرج راهط....

(أنظر الإمامة والسياسة/ ابن قتيبة ١٦/٢) أقول: وهناك مصادر أخرى
تنكر أن الذي تولى خداع الضحاك بن قيس هو عبيد الله بن زياد (طبقات ابن
سعد ٢٨٥؛ تهذيب تاريخ ابن عساكر: هذب عبد القادر بدران، بيروت: دار
إحياء التراث ط ٣ (١٩٨٧) ١١/٦)

- وجاء في صفحة (٢٠٩)، س: ٥

قال له: فرجعت عن الإسلام... والصواب أفرجت عن الإسلام؟.

وجاء في الصفحة (٢١٢) في ذكر سبب قتل كميل بن زياد:

... ليس كميل ثيابه... فجاء.. حتى صعد المنبر... فسبَّ ولعن وحرَّض..
على أهل الشام... فبلغت خطبته، قال (راوي الخبر) فلما ظفر الحجاج.. أتى
بكميل...."

أقول: والصواب: بلغت (الحجاج) خطبته.

- وجاء في الصفحة (٢١٦) في ذكر قتل سعيد بن جبير:

"حدثني مالك بن عيسى... قال حدثني إسماعيل بن واسط، قال: دعاني
خالد بن عبد الله القسري، وهو يؤمِّنُ أمير على مكة، فقال: يا بن واسط انطلق
بهذا الرجل فإن عبد الملك بن مروان بعث إليَّ أن أبعث به إلينه..."

وجاء في الصفحة (٢٢٦)... فلما انهزم ابن الأشعث من دير الجمامج
هرب سعيد (بن جبير) إلى مكة، فأخذه خالد بن عبد الله القسري وكان والي عبد
الملك على مكة فبعث به إلى الحجاج..."

أقول: جاء في النص الأول، اسم إسماعيل بن واسط، وهذا تصحيف من

الناسخ، والصواب: إسماعيل بن أوسط البجلي كما ورد في المصادر التي ذكرت الرواية (طبقات ابن سعد ١٨٥/٦؛ المنتظم /ابن الجوري حوث سنة ٩٥ هـ، وفيات الأعيان، طبعة إحسان عباس، ٢٣٧٢، ٢).

وجاء في النصين: ابن خالد بن عبد الله القسري كان والياً لعبد الملك بن مروان، على مكة، وهذا وهم من المؤلف، كان ينبغي على المحقق تداركه لا سيما وأنه ترجم لخالد بن عبد الله القسري في الصفحة (٢٢٦) وذكر فيها أنه ولد مكة للوليد بن عبد الملك.... أقول: توفي عبد الملك بن مروان سنة ٩٨٦هـ وتولى خالد القسري على مكة سنة ٩١هـ، وقتل سعيد بن جبير سنة ٩٥هـ.

وجاء في الصفحة (٢٢٠) وفي ذكر قتل سعيد بن جبير أيضاً، النص الآتي:

"قال (أبي الحجاج لسعيد بن جبير) ما تقول في الخلفاء منذ كان النبي (ص) إلى يومنا هذا؟ قال: سيجزون بأعمالهم فمسور ومثير، لست عليهم بوكييل، قال: ما تقول في؟ قال: أنت ونفسك أعلم، قال: بث في علمك، قال: إذا أسرتك ولا أسررك، قال فبئث، قال: ظهر منك جور في حكم الله وجراة على معاصي الله، قال: ذمهم أو مدحهم، قال: إنما استحفظت أمر نفسي، قال فرأيي رجل أنا، قال: يوم القيمة تخبر، قال: فايهم أحب إليك، قال: أرضاهم لخالقه، قال: وأيهم أرضاهم لخالقه، قال: اتبعهم لأمره، وأعلمهم بطاعته، قال: والله لأنقطعنك أعضاء...."

أقول: يلاحظ في النص السابق تداخل بعض الجمل ببعض ويبدو أن ذلك يفعل الناسخ، ولم يتتبَّه إليه المحقق، وقراءة النص (الأقرب إلى الصواب) كما يلي:

... قال: ما تقول في الخلفاء منذ كان النبي (ص) إلى يومنا هذا؟ قال: سيجزون بأعمالهم فمسور ومثير، لست عليهم بوكييل، قال: ذمهم أو مدحهم؟ قال: إنما استحفظت أمر نفسي، قال: فايهم أحب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقه. قال:

وأيهم أرضاهم لخالقه؟ قال: أتبعهم لأمره وأعلمهم بطاعته، قال: فـأـيـ رـجـلـ أـنـاـ؟
قال: يوم القيمة تخبر، قال: ما تقول في؟ قال: أنت أعلم بنفسك. قال بـثـ فـي
علمك؟ قال: إذاً أـسـوـكـ وـلـاـ أـسـرـكـ، قال: بـثـ! قال: قد ظهر منك جور في حـكـمـ
الله وجراة على معااصـيـ الله، قال: والله لا يـقـطـعـكـ أـعـضـاءـ...ـ

- وجاء في نهاية الصفحة (٢٢٢) وبداية الصفحة (٢٢٣):

"... قال الرـاهـبـ: فـلـيـعـطـ ماـ أـنـقـ بـهـ، قالـ: سـعـيـدـ إـنـيـ أـعـظـمـ عـلـىـ اللـهـ الـعـظـيمـ
الـذـيـ لـاـ شـرـيكـ لـهـ لـاـ أـبـرـحـ مـكـانـيـ حـتـىـ أـصـبـحـ...ـ"

وقد أشار المحقق في الهاشم رقم (٤) إلى أن كلمة الرـاهـبـ "فـلـيـعـطـ"
وردت بالأصل: فـلـيـعـطـيـ، والوجه حـنـفـ الـيـاءـ مع لـامـ الـأـمـرـ.

أقول: والصـوـابـ: فـلـيـعـطـنـيـ

كما نبه المحقق في الهاشم رقم (٥) على جواب سعيد بن المسيب "أـنـيـ
أـعـظـمـ عـلـىـ اللـهـ" إلى أنها جاءت هـكـذـاـ بـالـأـصـلـ وـالـكـلـمـةـ فـيـهـاـ حـكـ، أـقـولـ:
والصـوـابـ: إـنـيـ أـعـطـيـ اللـهـ الـعـظـيمـ الـذـيـ لـاـ شـرـيكـ لـهـ...ـ إـلـخـ

(انظر: سير أعلام النبلاء / للذهبي ٣٢٩/٤)

وجاء في (ص ٢٢٤، س ٦ - ٧):

ثم قـامـ المـلـمـسـ التـقـنـيـ وـآخـرـ مـعـهـ حـتـىـ دـخـلـاـ عـلـىـ الـحـجـاجـ، فـقـالـ: أـتـيـتـمـانـيـ
بسـعـيـدـ بـنـ جـبـيرـ، قـالـاـ: نـعـمـ: وـعـاـيـنـاـ مـنـهـ الـعـجـبـ، فـأـصـرـفـ وـجـهـ عـنـهـاـ....ـ

أـقـولـ: وـلـاـ وـجـهـ لـقـولـهـ "فـأـصـرـفـ" وـجـهـ، والـصـوـابـ: فـصـرـفـ....ـ

وجاء في الصفحة (٢٦٤):

وـحـدـثـيـ يـحـيـيـ...ـ أـنـ نـفـرـاـ سـتـةـ دـخـلـواـ بـيـتـ الـمـالـ فـأـعـطـواـ صـدـقـاتـ أـمـوـالـهـمـ،

وأخذوا بدواهم، ودخلوا المسجد، فقام رجل منهم فصلى بهم العصر، فأخذ وانطلق به إلى حرف... عند بيت المال، فضربت عنقه فأتت (أي راوي الخبر) أبا بكر (كذا) وهو جالس في الرحبة فأخبرته بقتل الرجل بما صنع... قال: وكان حمزة (كذا) بن جندي قد سمي في حديثه قاتل الرجل..."

أقول: قوله "أبا بكر" تصحيف، والصواب "أبا بكرة" وهو نفيع بن الحارث بن كلدة التقي والصحابي، أخو زياد بن أبيه من أمه سمية، (ترجم له المحقق ص ٢٨٨)، وقوله "حمزة بن جندي" أيضاً تصحيف والصواب "سمرة بن جندي" وقد ذكر الطبرى هذه الحادثة بالفاظ مقاربة لرواية أبي العرب التميمي، (الطبرى ٢٩٢/٥).

أقول: وسمرة بن جندي هذا - مع أن له صحبة - إلا أنه كان أحد الولاة القساة كسر بن أرطاء، وزياد بن أبيه، وابنه عبد الله بن زياد والحجاج بن يوسف... إلخ.

الذين وطدوا حكمبني أمية بالقوة وشدة البطش والتكتيل والإسراف في سفك الدماء، (انظر: الطبرى ٢٣٤/٥ - ٢٣٧، ٢٩١ - ٢٩٢).

وجاء في الصفحة (٢٨١):

... وشهد بعض مشارق مدينة سوسة... على... محمد بن إبراهيم المعروف بالسنجري، وعلى حسن بن مفرح المؤوث بأنهما يقعان في علي بن أبي طالب... رحمة الله. فضربا بالسوط، وقتلا بالرماح بالمهديّة سنة تسع ومائتين....

أقول، والصواب سنة تسع (وتسعين) ومائتين، لأن الخبر الذي يليه يوضح ذلك: قال أبو العرب: وكان قد قتل قبل هذا ابن هذيل وإبراهيم بن محمد... قتلهما... حسن بن أحمد بن أبي خنزير في سنة سبع وتسعين ومائتين...

وجاء في الصفحة (٢٨٣) س: ٤:

... إن أهل البلاء في الدنيا إذا لبثوا (كذا) على بلائهم في الآخرة....
أقول: قوله "لبثوا" تحريف والصواب "أنبأوا"

وجاء في الصفحة (٢٩٦) في ذكر ضرب سعيد بن المسيب، حيث قال
سعيد بن المسيب لوالى المدينة الذى عذبه لرفضه البيعة بولالية العهد للوليد بن
عبد الملك:

... فأقض ما أنت فاقض إنما تقص (كذا) هذه الحياة الدنيا....

وقد فسر المحقق كلمة "تقص" في الهاش رق (٢)، تقص: أي تعاقب.

أقول: لقد تسبب تحريف الناسخ لكلمة "تقضى" إلى "تقص" إلى عدم إدراك
المحقق للأية الكريمة التى ضمنها سعيد بن المسيب رده على الوالى الذى عذبه
وهي: "فأقض ما أنت فاقض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا" (طه / ٧٢)

وجاء في الصفحة (٣٠٣) في ذكر ضرب محمد بن عمرو بن العاص:

قال أبو العرب: حدثي غير واحد... عن أنس بن مالك، أنه قال: بينما
نحن عند عمر بمنى إذ دخل عليه رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين:
إنه استيق هو ومحمد بن عمرو فسبقه فعدا على فضريبني... الخ.

أقول: والصواب أن تكون بداية الرواية على لسان المتكلم والضمائر فيها
للmentalk "... يا أمير المؤمنين إننى استيق أنا ومحمد بن عمرو فسبقته فعدا على
فضريبني..."

وجاء في الصفحة (٣١١) في ذكر سبب ضرب محمد بن المنكدر:

... قال: وحدثنا مالك، أن عثمان بن حيان المرى كان أميراً على المدينة،
وعظه محمد بن المنكدر وأصحابه نفراً في شيء بلغهم...". أقول: والصواب:

"... ابن عثمان بن حيان المري (عندما) كان أميراً على المدينة وعظ (وليس وعظه) محمد بن المنكدر وأصحابه... إلخ".

وجاء في الصفحة (٣٢٧):

... وكان ابن المبارك يقول: ما رأيت أحداً أفضله على سفيان الثوري ما أدرى (كذا) ابن عون..."

أقول: ولعل الصواب: ما عدا ابن عون.....، يدلنا على ذلك الخبر الذي قبل هذا: "وكان عبدالله بن المبارك يقول: ما وصفت أحداً إلا وجده دون صفتة إلا" ابن عون وحياة بن شريح"

وجاء في الصفحة (٣٢٩) السطر السابع:

إنْ كنا لنؤدِّبُ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ ..". وقد أشار المحقق إلى أنَّ كلمة "عليه" كانت في الأصل "عليها" وأضاف: ولعله يريد مصنفاته. أقول: الصواب هو ما جاء في الأصل "عليها" لأنَّ الضمير فيها عائد إلى مسألة رفع اليدين في الصلاة التي ضرب بسببيها عطية بن قيس ...

وجاء في الصفحة (٣٣٧) في ذكر ما امتحن به صعصعة بن صوحان:

.... قدموا على معاوية خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: قدمتم على إمامكم وهو جنة لكم، وقدمتم أرض المقدسة، المحشر والمنشر .. (أقول: والصواب: وقدمتم أرض (الله) المقدسة (منها) أو (أرض) المحشر والمنشر ...) إلخ (راجع خطبة معاوية في: العقد الفريد ١٠٠ / ٣)

وجاء في الصفحة (٣٥٣): في ذكر ضرب صفوان بن سليم:

... كان صفوان بن سليم قد كف بصره في آخر زمانه فيبينما هو ذات يوم في السوق يقاد إذ دخل بلال بن أبي بردة... فسمع الطريق والجلوزة بين يديه،

فقال: ما هذا؟ فقيل له: بلال بن بردة، فقال: (....) سحائب صيف عن قرب
نقشع، فسمعه بلال.. فضربه بالسياط... .

أقول: الثابت من المصادر التاريخية والأدبية التي ذكرت هذه الحادثة، أن
هذا الشخص الذي ضربه بلال بن أبي بردة، هو خالد بن صفوان التميمي (ت
١٣٣ هـ تقريباً) وليس صفوان بن سليم (انظر : الكامل / للمبرد ٢٦٢/١ طبعة
مؤسسة المعارف بيروت)؛ العقد الفريد ٢٢٠/٣؛ وفيات الأعيان ١١/٣
البعاثر والذخائر ١١١/١ - ١١٢ (طبع الكيلاني).

وجاء في الصفحة (٣٧٩) في ذكر ما نزل بجطيطة الزيات: (السطر
السادس)

.. فأخذه مُعد فوضع الوهق على ساقيه فحطمه... .

وقد فسر المحقق "الوهق" بأنه حبل في طرفيه أنشوطة.

أقول: "الوهق" تحرير و الصواب "الدهق" وهو عبارة عن آلية من الآلات
التعذيب تتضمن على خشبتين يضيق بهما على ساقي المعنف أو أحد أجزاء بدنها،
(انظر : لسان العرب مادة: دهق، موسوعة العذاب / عبد الشالجي ٤/ ٢١٣).

خاتمة:

وبعد فهذه بعض الملاحظات اجترأت بها عن غيرها أملاً أن يفيض منها
دارس الكتاب، وكذلك المحقق الفاضل فيما لو أعيد طبع الكتاب للمرة الثالثة،
وهذا ما نأمل أن يتم إن شاء الله.

نحو من صناعة الكتاب

لأبي جعفر النحاس

الدكتور نوري حمودي القيسى

نشر الدكتور أحمد نصيف الجنابي مشكوراً نصوصاً باقية من صناعة الكتاب لأبي جعفر النحاس في مجلة المورد العدد الرابع - المجلد الثاني - كانون الأول ١٩٧٣، وقد تناول في هذه الدراسة القيمة منهجه البحث بالدرس والتحليل والشرح والتعليق بما وقف عليه من النصوص الباقية من هذا الكتاب وهي خمسون نصاً في مختلف مناحي الكتابة وفي منهجهما من حيث ابتداءاتها وعنواناتها واشتقاق قسم من أسماء مصطلحاتها. وقدم لكل ذلك بدراسة تناول فيها المؤلف، مولده، وعصره ومعاصريه، وكتبه الباقية والمفقودة، ثم عرض لتألميذه وأخيراً وقف على كتاب صناعة الكتاب الذي تحدث فيه عن محتوياته وطابع الكتاب ثم مصادره وأثره فيما ألف بعده وأخيراً ذكر النصوص... وهي دراسة مستفيضة وجليلة تستحق التقدير.

وفي المجلد الثالث ١٩٧٤ والعدد الثاني من مجلة المورد استدرك الدكتور أحمد خطاب أحد عشر نصاً من كتاب النحاس معتمداً على صبح الأعشى للقافشندى وبدأت أسلاء الكتاب تتجمع لتكشف عن الصورة التي قدم فيها المؤلف هذا الكتاب الجليل الذي يدخل في إطار الاهتمام بلغة القرآن والنحو العربي والخط والكتابة وهي مستلزمات توجبها طبيعة البحث وتؤكدها أسباب الدراسة للتقويم اللغة وتحسين أدائها وضبط لغتها وفاء لما تؤديه وإكرااماً لجلال قدرها... ويبدو أن كتاب صبح الأعشى يزخر بنصوص أخرى من هذا الكتاب صرحاً ببعضها المؤلف ولم يصرح ببعضها الآخر وهي مهمة يمكن أن يضطلع بها باحث للّم شمل هذا الكتاب.. وقد وجدت من المناسب أن أدلّو بدلوي في هذا الباب وأنا أعنّ على نصوص أخرى في صبح الأعشى وفي كتاب مأثر الأنافة

في معالم الخلافة الذي فرغ من تأليفه سنة ٨١٩ للهجرة وقدمه إلى خليفة الوقت الإمام الأعظم المعتمد بالله أبي الفتح داود بن المتكى و فيه عدد من نصوص هذا الكتاب ولا أستبعد أن تكون هناك نصوص أخرى منه في كتب القلقشندى أو مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري أو التويري في موسوعته الفريدة نهاية الأربع في فنون الأدب.

وإنني إذ أقدم هذه النصوص أدعوا الله مخلصاً أن يعين الباحثين على إيجاد ما ترك من هذه المؤلفات التي تحمل ثمار النضوج العقلى لمرحلة علمية ازدهرت فيها حركة اللغة واستقرت في إطارها عوامل النهوض...

النص الأول / ٦

ما كرِهُوهُ في المكاتبة إلى كل أحد.. قال القلقشندى :

وما ذهب إليه من كراهة ذلك قد نقل في صناعة الكتاب مثله عن مالك بن أنس واحتاج له بما روى عن الزبير رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم "جعلت فداك - فقال له أما تركت أعرابيتك بعد" على أن بعضهم قد أجاز ذلك احتجاجاً بقوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن مالك يوم أحد "ارم فداك أبي وأمي" وبما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ قال نعم جعلني الله فداك" ولم ينكر عليه ونحو ذلك.

النص الثاني / ٦

ونقل النحاس عن بعضهم أنه استحب تقديره بالإضافة إلى شيء آخر مثل أن يكتب "أطال الله بقاءك في طاعته وكرامته" أو "أطال الله بقاءك في أسر عيش وأنعم بال" وما أشبه ذلك. هذان نصان من صبح الأعشى.

أما النصوص المذكورة في كتاب مأثر الأنافة في معالم الخلافة فقد جاء في الجزء الأول "في معنى الخلافة، ومن ينطلق عليه اسم الخليفة، ومن تكون

عنه الخلافة، وكيفية النسبة إلى الخليفة".

وقيل: هو فعيل بمعنى فاعل كعلم بمument عالم، وقدير بمعنى قادر، ويكون المعنى فيه أنه يخلف من بعده، وعليه حمل الآية السابقة - وهي قوله تعالى: "إني جاعل في الأرض خليفة" - من قال: إنه كان قبل آدم في الأرض الجن أو الملائكة وإنه خلفهم فيها. واختاره أبو جعفر النحاس في كتابه "صناعة الكتاب" وعليه اقتصر الماوردي (الصفحة العاشرة)... وعليه اقتصر الماوردي في الأحكام السلطانية. قال النحاس: وعليه خوطب أبو بكر رضي الله عنه بخليفة رسول الله وعلى ذلك ينطبق كلام البغوي في شرح السنة حيث سمي خليفة لأنها خلف الماضي قبله، ثم قال النحاس وإطلاق الخليفة على أمير المؤمنين يحمل الوجهين جميعاً.

واختلف في الهاء في آخره، فقيل: أدخلت فيه للمبالغة، كما أدخلت في رجل داهية للكثير الدهاء، وراوية للكثير الرواية. وعلامة للكثير العلم. وهو قول الفراء واستحسنه النحاس ناقلاً له عن أكثر التحويين، ونقل عن علي بن سليمان تخطته احتجاجاً بأنه لو كان كذلك لكان التأنيث فيه حقيقياً، وليس كذلك، وقيل: الهاء فيه لتأنيث الصيغة، قال النحاس: وربما أسقطوا الهاء منه وأضافوه فقالوا: فلان خليف فلان، يعنيون خليفته (الصفحة الحادية عشرة).

وأجاز الكوفيون فيه (الخليفة) التأنيث على اللفظ فيقال أمرت الخليفة بهذا وأنشد الفراء:

أبوك خليفة ولدته أخرى وانت خليفة ذاك الكمال

ومنع البصريون ذلك مُحتجين بأنه لو جاز ذلك لجاز: قالت طلحة، في رجل اسمه طلحة، وهو ممتنع، قال النحاس: فإن ظهر اسم الخليفة تعين التذكير باتفاق، فتقول: قال الراضي الخليفة ونحو ذلك.

(النص في الصفحتين الحادية عشرة والثانية عشرة).

ويجمع الخليفة على خلفاء، على معنى التذكير دون اللفظ، كما في جمِعٍ
كريمٍ على كرماء، وظريف على ظرافه. وعليه ورد قوله تعالى: "وَانكِرُوا إِذْ
جَعَلْتُمْ خُلُقَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمٍ نُوحٍ" ويجمع أيضاً على خلاف حملأ على تأنيث اللفظ.
كما تجمع صحيحة على صحائف، وعليه جاء قوله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ
خَلَافَتَ الْأَرْضِ" ، قال النحاس: ويجوز أن يجمع على خلاف، ككريم وكرام، لأن
الهاء زائدة.

وأما من ينطلق عليه اسم الخليفة، فقد ذهب جماعة من أئمة السلف منهم
أحمد بن حنبل رحمه الله إلى كراهيَة إطلاق اسم الخليفة على من بعد الحسن بن
علي رضي الله عنهما فيما حكاه النحاس وغيره، متحججين بما رواه أبو داود
والترمذى من حديث سفينه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الخلافة في
أمتى ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك (الصفحتان الثانية عشرة والثالثة عشرة).

وقال:

المذهب الثاني أن الخلافة تكون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقال
فيه: خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنَّه خلفه في أمنته، وعليه ينطبيق
كلام الماوردي في الأحكام السلطانية والنحاس في صناعة الكتاب وعلى ذلك
خطوب أبو بكر رضي الله عنه بخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
(الصفحة السادسة عشرة).

اللقب الرابع أمير المؤمنين، وأول من لُقب به أمير المؤمنين عمر بن
الخطاب رضي الله عنه في أثناء خلافته... واختلف في أصل تلقبيه بذلك، فروى
أبو جعفر النحاس في كتابه "صناعة الكتاب" بسنته إلى أبي وبيرة أن أبو بكر
رضي الله عنه كان يجلد في الشراب أربعين، فجنت عمر رضي الله عنه فقلت:
يا أمير المؤمنين، إن خالداً بعنتي إليك. قال: فيم، قلت: إن الناس قد تخافوا
العقوبة. وانهمكوا في الخمر. فما ترى في ذلك؟ فقال عمر لمن حوله: ما ترون؟

قال عليٌّ: نرى يا أمير المؤمنين ثمانين جلدة، قبِيل ذلك عمر، فكان أبو وبرة ثم علي بن أبي طالب أول من لقبه بذلك. (الصفحة السابعة والعشرون).

وجاء في الكتب الصادرة عن ولادة العهد بالخلافة في الجزء الثالث من كتاب مأثر الأنفاس في الصفحة الرابعة والسبعين بعد المئتين ...

فقد قال أبو جعفر النحاس في كتابه "صناعة الكتاب" بعد أن ذكر أن صورة ما يكتب به عن الخليفة: من عبدالله أبي فلان فلان الإمام الفلاسي إلى فلان، أتبع ذلك بان قال: وليس أحد من الرؤساء يكاتب عنه بالتصدير إلا الإمام وولي العهد، ولم يزد على ذلك.

والتصدير على ما فسره ابن حاجب النعمان في كتابه "ذخيرة الكتاب" هو: من عبدالله أبي فلان فلان إلى آخره على ما تقدم، وقد قال النحاس في الكلام على العنوان: إنه يحذف من الكتاب عن ولبي العهد لفظ أمير المؤمنين، ويقال فيه: ولبي العهد، ومقتضى ذلك أن المكاتبة عن ولبي العهد كالمكاتبة عن الخليفة إلا أنه لا يقال فيه: ولبي العهد الإمام، ويقام لفظ ولبي العهد فيه مقام أمير المؤمنين. فيكتب فيه: من عبدالله ابن فلان فلان الواثق بالله مثلاً - ولبي عهد المسلمين، سلام عليك فابني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأسأل الله أن يصلّي على محمد عبده ورسوله، أما بعد، فإنّ كذا، ويؤتى على المقصود إلى آخر الكتاب، على نحو ما تقدم في الكتابة عن الخليفة.

وفي الفصل الثاني من الباب السادس ذكر عن الكتب الصادرة إلى الخلفاء لل كتاب فيها ستة أساليب. يقول القلقشندي في الصفحة الثالثة والثمانين بعد المئتين:

قال في "صناعة الكتاب" ثم يقال: أما بعد، فإنّ كذا وكذا، حتى يأتي على المعاني التي يحتاج إليها، وتكون المكاتبة: وقد فعل عبدُ أمير المؤمنين كذا (إذا زادت حاله لم يقل عبدُ أمير المؤمنين) فإذا بلغ إلى الدعاء ترك فضاء وكتب: أتم الله على أمير المؤمنين نعمته، وهناء كرامته وأليسه عفوه وعافيته وأمنه

سلامته والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

وقال القلقشendi في "الكتب إلى ولاة العهد بالخلافة"

قال أبو جعفر النحاس في "صناعة الكتاب": ويكون التصدير في المكاتبة إلى ولی العهد على ما تقدم في المكاتبة إلى الخلفاء مع تغيير الأسماء، يعني أنه لا يقال فيه الإمام ولا أمير المؤمنين، بل ولی عهد المسلمين، وفي التصدير مع السلام: وبركاته، في أول الكتاب وأخره. وفي ولی العهد بحذف "وبركاته" من التصدير، فكانوا يكتبون ولی العهد: لعبدالله أبی فلان ولی عهد المسلمين، سلام على ولی عهد المسلمين ورحمة الله فابنی أحمد إلیه الله الذي لا إله إلا هو، وأسألة أن يصلی على محمد عبده ورسوله صلی الله عليه وسلم، أما بعد، أطال الله بقاء ولی عهد المسلمين. ويأتي على المقصود على ما تقدم في الكتاب إلى الخليفة، ثم يختمه بقوله: والسلام على ولی عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته.

الجزء الثالث الصفحة الحادية والثلاثون وثلاثمائة..

ثالثاً: تعليقات ومناقشات

في وسم الكلمات وضبطها

نظرة نقدية في (المعجم المدرسي)

تأليف: محمد فخر أبو هوبَر

الأستاذ جورج عيسى - دمشق

أولاً : في رسم المواد (أو جذور الكلمات)

ينظر المعجميون في ترتيب المواد إلى أن الكلمات تجمعها صلة رحم معينة هي اشتراكها في جذر واحد، ثلاثي في الغالب "ف ع ل" أي فاء الكلمة وعينها ولا مها. وهو ما يعبر عنه بالمادة، وتحتها تدرج مفراداتها أو مشتقاتها.

وهم في ذلك " لا ينسبون إلى حروف المادة معنى معيناً. بل إنهم يعترفون بإمكان تعدد المعاني بين الكلمات التي تشارك في هذه الأصول .. لذلك كان الإجراء المفضل عندهم في معاجمهم أن يفصلوا في الكتابة بين أصول المادة حتى لا تفهم منها كلمة ما^(١) فالكلمات التالية مثلاً (شال) و (شوال) و (شول) تشارك في "ش ول" التي تمثل جذر هذه الكلمات، أو ما يعبر عنه بأصول المادة التي هي أصل الاشتراك، والتي تنسب المفردات إليها "دون أن تنسب إلى هذه الأصول الثلاثة أي معنى معجمي".^(٢) لذلك كان الأفضل أن ترسم المواد في (المعجم المدرسي)^(٣) بأحرف منفصلة، مثل "ش ول" بدلاً من (شول) و "ح ض ر" بدلاً من (حضر)، وهكذا.

وعلى ذلك يرتب المعجميون موادهم حسب الترتيب الهجاني، إن كان بالطريقة القديمة أو الحديثة (أي حسب أواخر الكلمات أو أولاتها). ينطبق ذلك على كلمات اللغة العربية جميعها كما يقول "تمام حسان" فيما عدا الضمائر والظروف والأدوات وبعض الخواص،^(٤) لأنها الكلمات التركيبية الوحيدة في اللغة. أما الكلمات الدخيلة والمعرفة الزائدة على ثلاثة أحرف، مما لا يمكن

الاشتقاق منها، فتعد حروفها كلها أصلية، وثبتت في مواضعها من الترتيب الهجائي حسب تابع حروفها، لأنها تخرج عن نطاق اشتراكتها في أصل واحد ^(٥).

ثانياً: في رسم الكلمات وضبط الحروف

• يعود ما وقع فيه (المعجم المدرسي) من اضطراب في رسم الكلمات "الدخيلة والمعرفة" إلى ما له صلة بأصوات بعض الحروف في الألفاظ الأجنبية، ونعني بذلك حروف (P و V و g) وهو ما ليس له نظير في أبجديتنا. وحتى نلائم بينها وبين حروفنا المقاربة لها، نرسم عادة كلاً من حرفي (ب) و (ف) بثلاث نقاط، مقابل الحرفين الأول والثاني، بينما نرسم حرف (غ) أو (ج) أو (ك) مقابل الحرف الثالث، للتوصل إلى صوت الحرف الذي يقع بين الجيم والكاف "الجيم المصرية" أو نرسمه أحياناً كافاً فارسية (ك). وعلى الرغم من المقترنات والتوصيات بشأن تعريب هذه الأحرف الأجنبية وغيرها منذ زمن، إلا أن ذلك لم ينفذ بشكل فعلى، ولم تلتزم به مقررات كتابنا المدرسية، ولا مصنفوفات طباعتنا العربية، وظل تعريب الأصوات الأعممية حتى الآن دون منهجية موحدة.

لقد أتبع صاحب (المعجم المدرسي) هذا التقليد المجمع عليه في رسم الحرفين (ب) و (ف) وهو ما حددته في صفحة رموزه ^(٦)، لكنه لم يذكر شيئاً عما يقابل الحرف (g) الذي جاء رسمه في المعجم جيماً أو غيناً. ويبدو أنه اتبع في ذلك ما قرره مجمع اللغة العربية في القاهرة ^(٧). ولئن تقيّد إلى حد بعيد بهذه الرموز التي حددتها لنفسه - صراحة أو ضمناً - في كتابة الكلمات العربية والدخيلة، إلا أنه لم يراع أحياناً وجه الدقة فيها، كما في الكلمات التالية التي لم يتلزم فيها بالباء المثلثة النقط: (نبتون) في مادة (بلتون) ص ٣١ - الباتولوجية ص ٨١ - البوتان والبوتاسيوم ص ١٣٧ - باكستان في مادة (الهند) ص ١١٨. ولم يراع وجه الدقة في تعريب الحرف (g) فنقله إلى الحرف (ج) كما في (الجلسين) ص ٢٠١ ومرة أخرى إلى الحرف (غ) كما في (الهيومغلوبين) ص ١١٢٦. أما في كلمات أخرى فقد أتبه بالحروفين معاً، مثل (الجرافيت،

• حرص صاحب المعجم -كما يستدل المطلع- على أن يكتب الكلمات ذات الأصل اللاتيني المنتهية بالقطع *logy* والتي تعني العلم، بالثاء المرتبطة، كما في كلمة (البيولوجيا) ص ٤٤ و (الجيولوجيا) ص ٢٢١^(٨) و (الميثولوجيا) ص ١٣٠ وغيرها. ثم شذ عن هذا الالتزام في مواضع وألفاظ أخرى مثل (الميثولوجيا) التي وردت في (علم الأساطير) ص ٩٨ و كان عليه أن يتبع طريقة واحدة في كتابتها، وإن كنا نرى أن ينتهي المقطع المذكور ب (يا) بدلاً من الثاء.

والغريب في هذا الباب أنه أثبت حرف الباء في كتابة (سيكولوجيا) ص ١١٠ مع أنه في أصله الأجنبي يكتب ولا يلفظ.

• وفي تفصيٰه عيوب المعجم الحديث يقول عدنان الخطيب: "من أكبر عيوب المعجم الحديث في رأينا عدم التزامه بالصورة الإملائية الواحدة، وهذا يعني أن الكلمات التي تصح كتابتها بأكثر من صورة إملائية واحدة لا يصح أن ترى في معجم لغوي على أكثر من صورة واحدة إذا ما ترددت بين سطوره مرة أخرى"^(٩).

ولقد وقع هذا العيب في المعجم في ألفاظ معرِّبة عديدة، منها:

- (المنجا والمنجو) في مادة (أنبه) ص ٦٧ و (المنجة والمنجو) في ص ١٠٠٥.

- (البندورا والبنادورى) ص ١٣١ و (البنادورى والبندورة) هامش ص ٦٥٥.

- في مادة (سنم) ص ٥٢٥ يكتب (السينما) بينما ترد (السينما) بالياء في ص ٩٢ (العمود الأول) وص ٣٣٨ (ع). وص ٦٨٥ (ع). وص ٩٥٣ (ع).

- في مادة (مكر) يذكر (المكرفون) ص ٩٩٩، وفي ص ٢٨٢ (ع) يكتبه برسم آخر (الميكروفون) وكذلك في ص ٣٨٧ (ع).

- في ص ١١٠١ يذكر (الهيدروجين) وكذلك في الصفحات ١٠٦ (ع ٢) - (٦٥٩ ع ١)، أما في ص ٥٩ (ع ٢) وص ١٠٦٧ (ع ٢) فيذكره دون ياء (الهيدروجين)، ثم يرد برسم ثالث دون الياء الأولى والواو (الهيدروجين) في ص ٣٤ (ع ١).

- ويظهر هذا الاضطراب والتشویش حتى في رسم الكلمات العامية، ففي مادة (إنجاص) ص ٣٥ يقول: (يطلق عليه في الشام أجاص)، وفي ص ٦٨ يقول (إنجاص: عامية شامية) وكذلك في مادة (كمثرى) ص ٩١٨ (يسّمى في الشام الإنجاص).

- وفي (البراصة) ص ١٠١ يقول (وهو البراصية بلغة الشام)، وفي (الكراث) ص ٩٠١ (والعامية في دمشق تسميه البراصية).

إنه لعيب كبير حقاً أن يكون ذلك في معجم لغوي.

• ولكن العيب الأكبر يتمثل في الرسم الإملائي. وها نحن ننظم ما ورد في المعجم من أخطاء إملائية في جدول الخطأ والصواب:

الصواب	الخطأ	س (السطر)	ع (الصود)	ص (الصفحة)
الإلهيات ^(١)	الإلاهيات	١٠١١-	٢	٦٠
جبرائيل	جبريل	٩	١	١٧٨
دعاني	دعا	٢	٢	٢١٥
الدنيا (ج) دنى	الدنيا (ج) دنا	٤	١	٣٦٧
الضحى ^(٢)	الضحا	١	١	٤٣٦
(ج) سموات ^(١)	(ج) سماوات	٩-	٢	٥٢٢
والسموات	والسموات	٧	١	٦٣٨
بينس	بياس	٥-	١	١١٧٦
جاوها	جاءوها	٧	١	١١٢٨
و ووا	و وءولا	١٢	١	١١٢٩

ونعقب على الخطأ ما قبل الأخير بقولنا: إذا احتج المؤلف باتباع الرسم القرآني، فلماذا أورد استشهاده بالأية "٥١" من "الإسراء" في ص ١٠٦٢ "فَسِينَغْضُونَ إِلَيْكُمْ رُؤُوسُهُمْ"؟ ولماذا جاء رسم (اقرءوا) في "الحقة" ١٩ ص ١٠٩٣، ولم يتبادر الرسم القرآني (اقرءوا)؟. وكذلك ما ورد في الآية "٢٥٥" من سورة البقرة ص ٧٣ (بِرُوْدَه)، وهو نفسه كان قد نبه إلى الرسم القرآني في هامش ص ٣١٣ عندما استشهد بالأية "٣١" من "الإسراء".

- وبينما تغير الرسم الإملائي في كلمتي (آسيا، وأستراليا) وبينما ترد الأولى (آسيا) في الصفحتان (١٠٣-٢٨) (ع ٥٣٠) وغيرها، ترد (آسية) في تعريف (الطورانية) ص ٦٥٩. أما (أستراليا) فترسم بالألف في ص ٤٧ بينما ترسم بالتاء (أسترالية) في مادة (برقش) ص ١٠٣.

- في ص ٧٤ ذكر (أوغاريت أو أجريت). ولا ندرى سبباً لحذف الواو، والألف من الرسم الثاني للكلمة إذا كانتا تؤديان نطقاً واحداً!

وأشار صاحب المعجم في مقدمته إلى أن مؤلفه جاء تلبية لحاجة الطالب إلى معجم لغوي يساعد على ضبط الكلم ضبطاً صحيحاً^(١٣). والحق أن ذلك من أولى واجبات معاجم اللغة، كي لا تقرأ اللفظ على غير وجهه، فنفع في التصحيح.

- غير أن المصنف قيد كلمات لم يشكل حروفها لتسودي لفظها الصحيح. نورد منها كامثلة : (الحسكة الحكة) ص ٢٤٩ وتحرك بالفتح (الحسكة) (سلقين) ص ٥١٣ وتحرك بالكسر (سلقين) - (الطيوبغرافيا) ص ٦٣٩ لم يبين حركة الطاء فيها وهي الضم - (القفيطرة) ص ٨٧٨ لم يبين حركة الطاء فيها وهي الكسر.

- وهناك كلمات ضبطت بشكل صحيح في موادها الأصلية، لكنها جاءت غير مشكولة في مواضع أخرى، ويستحسن شكلها، نورد منها كامثلة: (القصدير) الواردة في مادة (بيض) ص ١٤٢ - (مغنطيسى) في ص ٢١٩ مادة

(جول)-(منطقة) في مادة (خرس) ص ٣٠٠ - (القرفة) في مادة (صين)
ص ٦٦٦ - (الحمص) في مادة (موش) ص ١١١.

- ومن الألفاظ التي جاء ضبط أحرفها مخالفاً بالضبط الصحيح:

(أبليتون) ص ٣١ - (البرُوستاتة) ص ١٠٠ - (البرُنز) و (البرُستيتة)
ص ١٠٥ - (البرُتين) ص ٦١ - (الجرانيت) ص ١٨٧ - (جلسرین) ص ٢٠١
(الكِرُوم) ص ٩٠٥ - (الكِروكي) هامش ٢ ص ١١٢٥.

والخطأ في لفظ هذه الكلمات المعرفة - كما وردت - هو أن المؤلف عاملها معاملة الكلمات العربية الفصيحة، فاحجم عن أن يقول "بلوتو-البرُوستاتة- البرُونز-الجرانيت-الكِرُوم-البغ" لثلا يبدأ ساكن كما هو معروف عند العرب، فلجا إلى إضافة الهمزة في الكلمة الأولى، وحرك الحروف الأولى من الكلمات الأخرى كي لا يقع في المحظور. ويقول أحمد الخطيب "إن الابتداء بالساكن في كثير من الألفاظ المعرفة يحتمه ضبط تأدية المسمايات كما يلفظها الناس في معظم أنحاء العالم.. أما إضافة حرف الألف عند تعريب الألفاظ الإفرنجية التي تبدأ بحرف ساكن، أو تحريك الحرف الساكن نفسه، فهما تحريف لامسونغ له، يبعد منطق اللفظ عن صورته وبينته الأصلية".^(١٤)

ثالثاً: في رسم الصور والأشكال

وندخل هذا تجاوزاً في باب رسم الكلمات، لما للصورة من علاقة بمعنى اللفظ، وقدرة على توضيح ما تحمله الكلمة من دقة الدلالة وإن كانت عاجزة عن أن تقوم مقامها، لأنها تظل بحاجة إلى التعبير عنها وعن الموجودات جميعها بالكلام المنطوق الذي هو خاصة الإنسان الأولى، والشرط الكافي المرادف للعقل، والذي يظل الإنسان دونه عاجزاً عن اكتساب مهارة التعبير اللغوي.

والحق أن الدعوة إلى توضيح بعض كلمات المعجم بالصور دعوة حديثة أخذت بها المعاجم الأوروبية، حتى إننا نجد في الألمانية ما يجعل الصورة أساساً ترسم في دقة باللغة، ويعطى كل جزء منها رقماً. وتذكر ألفاظ اللغة بعد

ذلك كأنها هوامش على الصورة، ويوضح كل لفظ مقابل رقم جزء الصورة الذي يناسبه^(١٥).

وقد كان (المنجد) أول معجم عربي في العصر الحديث استعان بالصور والأشكال إلى توضيح معاني الألفاظ ومدلولاتها محاكاة للمعاجم الأجنبية. ففي طبعاته الأولى بلغت صوره حوالي ألف^(١٦). أما الآن والطبعة الأخيرة - السابعة والعشرون (١٩٨٤) - بين يدينا، فتزدّد الصور فيه على خمسة وألفين، إضافة إلى أربعين لوحة ذات موضوعات مختلفة. ثم اتبَعَ هذا التقليد بعض المعاجم العربية الحديثة التي جاءت بعده، منها (المعتمد) لجرجي شاهين عطية^(١٧)، وهو مزيّن بالرسوم والصور التي تبلغ حوالي ٢٠٩^(١٨)، و (الراشد)^(١٩) لجبران مسعود^(٢٠)، وهو مزوّد بما يقدر بسبعين صورة، و (المعجم الوسيط)^(٢١) الذي اشتُمل في طبعته الثالثة على حوالي ألف صورة. أما (المعجم المدرسي) فقد احتوى على تسع ومائتي صورة.

نحن لا نقول إن أهمية الصور في المعجم تتوقف على عددها، أو إن الهدف من وجودها مجرد التزيين، إنما تعود أهميتها إلى انتقاء ما يتطلبه بعض الألفاظ من توضيح، وإلى النوعية المختارة التي تعبر عن تأدية هذه الصور للغاية التي اختيرت من أجلها.

• لم يخل (المعجم المدرسي) من أخطاء بما عرضه من رسوم وأشكال، منها:

- الصورة التي وضعَت للججد في ص ١٨١ لا تمثل (الججد) إنما هي صورة (صرصور) ويجب أن تكون في ص ٥٩١.

- في ص ٣٣٢ يعرَّف الخنفَسَاء: (حشرة سوداء من مفمَدات الأجنحة، أصغر من الجعل، منتنَة الريح) وهو وصف لا يصح لمفهوم يمثل "جنساً" من الحشرات، ويقوم من جهة أخرى على الخصوصية لبعض "أنواعه". ذلك أن الخنافس متعددة الأنواع، مختلفة الأشكال والألوان^(٢٢)، وهذا ما يجعل صورة

الخنساء في الصفحة المقابلة لا فائدة منها في توضيح المعنى، كما أن هذا الشكل المرسوم ليس من الخناقات المنتنة الريح، ولا يبدو أنه أصغر من الجعل، بل هو الجعل نفسه الذي يرد وصفه في ص ١٩٧.

- في ص ٥٤٢ يصف سمك الشبوط بقوله: (عربيض الوسط، دقِيق الذنب، صغير الرأس) بينما الصورة الواردة أسفل التعريف لا تدل على هذا الوصف، وهي بعيدة كلّياً عن أن تكون لسمك الشبوط.

- في ص ٥٦٦ ورد (الشمروخ) بمعنيين: عنقود العنب وعثکال النخل، وفي الصفحة المقابلة كتب إلى جانب الشكل المرسوم: (الشمروخ). فمعنى ذلك أنه يدل على المعندين، ولو أضاف إلى هذه الكلمة "عنقود عنب" لكان أكثر تحديداً.

- ولو جه الدقة أيضاً يجب إضافة "الصفراء" إلى (الذرة) جانب الشكل في ص ٣٨٠، وكتابه "خنزير داجن" إلى جانب الصورة في ص ٣٠ بدلاً من كلمة (خنزير).

- في ص ٨٣٣ يذكر (القبان) وفي ص ٩٧٦ يذكر (المخل) ويقول إن فصيحة (العتلة) دون أن يعرض صورة لأيٍ منها. وفي ص ٦٧٩ يأتي تعريف (العتلة) مرفقاً برسمٍ للقبان، والمخل أو (العتلة). والصواب أن يبقى رسم العتلة هنا في ص ٦٧٩، وينقل رسم القبان إلى ص ٨٣٣ أو إلى ص ٤٣٥ تحت كلمة (رمانة القبان).

• وردت صور في المعجم يُشك في أنها تعبر عن مسمياتها. من ذلك:

- (الخششاش) ص ٣٠٧: ولا فائدة من عرض الصورة المرسومة، لأنها لا تعرفنا بهذا النبات الذي يتميز بأوراقه العريضة وأكوازه البيض.

- (العتلة) ص ٦٨٠: جاءت الصورة بعيدة كل البعد عما توصف به هذه الحشرة.

- (الهزار) ص ١١٠٧ : لا يُعرف طائر الهزار بهذا الذيل الطويل الذي يعرضه الرسم.

- عبر عن شجر الكافور برسم ورقة من شجره ص ٩١٢ . والحقيقة أن هناك عدداً من النباتات له شكل هذه الورقة، فنحن لا نستطيع التعرف على شجرة الكافور منها؛ لأننا نكون بذلك كمن يريد أن يتعرف على الكل من أحد أجزاءه، مع كون هذا الجزء مشترك مع غيره.

• ورد بعض الرسوم مكرراً دون أن يكون هناك أي داع لذلك، وهي:

- صورة الباز ص ٨٢ ، وحامل الباز (أو البيزار) ص ١٠٧

- صورة البقر الوحشي ص ١٢٢ ، وولد البقرة الوحشية أو (الجؤذر)
ص ١٧٦

- أنواع الخطوط في الصفحتين ٣١٦ ، ٣١٧

- صورة (المنجا: الأنبة) ص ٦٧ و ١٠٦ إضافة إلى اختلاف الرسم
بين الشكلين.

- * (المعجم المدرسي) معجم لغوي صدر عن وزارة التربية في الجمهورية العربية السورية عام ١٤٠٦هـ/١٩٨٥ من تأليف محمد خير أبو حرب، وتدقيق ندوة التلوري، وقد ذكرت في آخر صفحة منه (ص ١١٨٤) أسماء عدد من الذين ساهموا في التأليف والتدقير اللغوي والتصحيح الطبعي والرسم والإشراف الفني.
- (١) تمام حسان (اللغة العربية، معناها وبناتها). الدار البيضاء (المغرب)، دار الثقافة، دون تاريخ، ص ٣٢٠.
- (٢) المرجع السابق، ص ١٦٩.
- (٣) بلغت عدة المعجم من المواد ٤٦٣٠.
- (٤) يعرف تمام حسان "الخوالف" أنها "كلمات تستعمل للكشف عن موقف افعالي ما والإقصاص عنه، وهي أربعة أنواع: خالفة الإخالة، وخالفه الصوت، وخالفه التجيب، وخالفه المدح". انظر كتابه (م.س.) ص ١١٣ وما بعده.
- (٥) مسألة ترتيب المواد في (المعجم المدرسي) تبحث في موضع آخر من دراستنا الشاملة.
- (٦) (المعجم المدرسي) ص ٢٦.
- (٧) انظر أحمد شفيق الخطيب (معجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية)، مكتبة لبنان ١٩٧١ ص ٧٣٩ رقم ٣٥.
- (٨) والطريف أن هذا اللفظ يرد منتهياً بـ (يا) في أعلى الصفحة، وبالتالي في التعريف.
- (٩) عدنان الخطيب (المعجم العربي بين الماضي والحاضر) معهد البحث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٦٧ ص ٧٣.
- (١٠) هذه الإشارة هنا (ـ) تدل على أن العدد يكون من أسفل الصفحة.
- (١١) من الكتب المدرسية المعقرة عندنا (في سوريا) انظر (النحو والإملاء) للصفين الأول والثاني في دور المعلمين والمعلمات، تعديل فكري الحكيم وندوة التلوري، ١٩٨٥ - ١٩٨٦، فصل (شهر مواطن الحذف) ص ٢٧٧ حيث يقول تحذف الألف من الكلمات التالية: الإله، السموات.... .
- (١٢) يكتب الكوفيون الاسم الثلاثي المقصور إذا كان مضموم الأول أو مكسوره بالياء غير المنقوطة.. والبصيريون بالألف. انظر (م.س.) ص ٢٤٥.
- فإذا كان المؤلف يتبع رأي الكوفيين، فقد أخطأ هنا في كتابة (الضحا)، وإذا كان يتبع رأي البصريين فقد أخطأ في كتابتها في مادة (ضحو) ص ٦٢١ إذ وردت (الضحى).
- (١٣) (المعجم المدرسي) المقدمة ص ١٧.
- (١٤) أحمد شفيق الخطيب (م.س.) ص ٧٤٧ بند (١). انظر أيضاً مقالته (منهجية وضع المصطلحات الجديدة)، مجلة (شؤون عربية) ع أيلول ١٩٨١ ص ١٤٥.

- (١٥) محمد أحمد أبو الفرج (المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث)، دار النهضة العربية، ط١، ١٩٦٦ ص ١٢٣-١٢٤.
- (١٦) صدرت الطبعة الأولى من (المنجد) للأب لويس ملوف عام ١٩٠٨.
- (١٧) صدر (المعتد) في بيروت عام ١٩٢٧.
- (١٨) انظر حكمت كثلي (المعجم العربي في لبنان) ط١، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٨٢ ص ١٧٩.
- (١٩) صدرت الطبعة الأولى من (الرائد) في بيروت عام ١٩٦٥.
- (٢٠) أخرج مجمع اللغة العربية في القاهرة (المعجم الوسيط) عام ١٩٦٠.
- (٢١) انظر أحمد شفيق الخطيب (موسوعة الطبيعة الميسرة) ط١، مكتبة لبنان ١٩٨٥ ص ٤٠.

باء الاستبدال في العربية الفصحى بالمنجم التأريفي

د. عباس علي السوسوة

مدرس علم اللغة بكلية التربية - تعز

من نافلة القول أن للأداة النحوية غير معنى. وباء الجر في العربية الفصحى لها عدة وظائف (معان) اختلفت في عددها المؤلفون في حروف المعاني، فالرماني (ت ٣٨٤هـ) جعلها سبعة وظائف^(١)، وأوصلها المالمي (ت ٧٠٢هـ)^(٢) إلى عشر وظائف من بينها البدل، ثم أوصلها المرادي (ت ٧٤٩هـ)^(٣) إلى ثلاثة عشر معنى^(٤). وأوصلها ابن هشام (ت ٧٦١هـ)^(٥) إلى أربعة عشر معنى^(٦) لكن هؤلاء العلماء الأجلاء لم يتعرضوا فقط للباء الداخلية على الفعل (بدل) وما شابهه من مادته مثل: تبدل، واستبدل، وأبدل، ومصادر هذه الأفعال، فتدخل على المتروك أو المزال أو المستبعد من طرفين اثنين.

أما العلامة محمد عبدالخالق عضيمة فقد أوصل معاني الباء الواردة في القرآن الكريم فقط إلى ثمانية عشر معنى منها البدل^(٧)، وهو أن تكون الباء معنى (بدل)، لكنه لم يستشهد على ذلك إلا بآية سورة سباء فحسب^(٨)، وأضاف إليها كل آية ورد فيها الفعل (اشترى) أو (شرى) متعلقة بالباء، فكانه - باستثناء آية واحدة - قد أتى بما يسمى (باء المقابلة) عند ابن هشام^(٩).

ونحن ننزعم أن باء الاستبدال التي تدخل على المتروك (المستبعد) قد وردت في القرآن الكريم خمس مرات متعلقة بالفعل (بدل) وما شابهه من أفعال مأخوذة من الجذر (ب دل)^(١٠)، وهو ما يهمنا هنا في هذا البحث. وقبل أن نعرض لهذه الآيات الخمس نحب أن نقر أننا لم نعثر على نص واحد موثوق بصحته ينتهي إلى عصر الاحتجاج باللغة فيه مخالفة لهذه القاعدة. أما بعد عصر الاحتجاج فإننا نجد قاعدة ثانية عكسها تماماً، أي أن الباء أصبحت تدخل على غير المتروك (غير المستبعد) عند كثير من الشعراء والأدباء والمؤلفين في أكثر

وب قبل أن نأتي بالشواهد على هذه القاعدة الجديدة، نود أن نعود إلى القاعدة الأصلية لباء الاستبدال التي تدخل على المستبعد في القرآن الكريم، ونرى مواقف المفسرين المشهورين منها:

١- منهم من لم يذكر هذه القاعدة ولم يستعمل في تفسيره الأفعال المذكورة في الآيات الخمس، وهو الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) والرازي (ت ٦٠٦ هـ) وبالطبع لا داعي للنقل منها.

٢- ومنهم من استعمل في تفسيره هذه القاعدة ولكن دون نص عليهما أو استشهاد، وهذا موقف الطبرى (ت ١٣١ هـ) والقرطبي (ت ٦٧١ هـ) وأبن كثير (ت ٧٧٤ هـ).

٣- وهناك من استعمل الباء في تفسيره، وزاد فوضح هذه القاعدة في غير موضع وهو ما فعله أبو حيان الغرناطي (ت ٧٤٥ هـ)^(٩) وأبو السعود العمادى (ت ٩٨١ هـ).

٤- ومنهم من فسر أربع آيات بما يوافق القاعدة القرآنية تماماً لكنه في تفسيره آية سورة النساء يستعمل القاعدة الجديدة، لا الأصلية. وإليك البيان:

١- في الآية ٦١ من سورة البقرة: (فادع لنا ربك يخرج لنا مما تبتت الأرض من بقلها وقثائهما وفومها وعدسها وبصلها، قال: أستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير).

قال الطبرى: "لا شك أن من استبدل بالمن والسلوى البقل والثاء والعدس والبصل والثوم، فقد استبدل الوضعية من العيش بالرقيق منه"^(١٠).

وقال القرطبي: "أستبدلون البقل والثاء والعدس والثوم والبصل الذي هو أدنى بالمن والسلوى الذي هو خير"^(١١).

وقال أبو حيان (ج ١ / ٢١٨): "التبديل تغيير الشيء بأخر، تقول هذا بدل هذا أي عوضه، ويتعدى لاثنين، الثاني أصله حرف جر، بدلت ديناراً بدرهم، أي جعلت ديناراً بدرهم، أي جعلت ديناراً عوض الدرهم. وقد يتعدى لثلاثة فتقول: بدل زيداً ديناراً بدرهم، أي حصلت له ديناراً عوضاً من درهم.. وقد وهم كثير من الناس فعلوا ما دخلت عليه الباء هو الحاصل والمنصوب هو الذاهب حتى قالوا: ولو أبدل ضاداً بظاء لم تصح صلاته. وصوابه: ولو أبدل ظاء بضاد".

وهنا تلاحظ أن أبي حيان قد جلى قاعدة باء البدل، وزاد فأوضح تحول هذه القاعدة إلى العكس.

وقال أبو السعود: "... أي بمقابلة ما هو خير، فإن الباء تصحب الذهب الزائل دون الآتي الحاصل كما في التبديل في مثل قوله عز وجل: "ومن يتبدل الكفر بالإيمان" وقوله: "وبدلناهم بجنائهم جنتين ذواتي أكل خمط" ^(١٢).

وقال الشوكاني: "المن والسلوى استبدلوا به البقل وما حكي معه" ^(١٣).

- في الآية ١٠٨ من سورة البقرة (ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سوء السبيل).

قال الطبرى: (ج ١ / ٤٨٦): "ومن يستبدل بالإيمان بالله ورسوله الكفر، فيرتد عن دينه فقد حاد عن منهج الطريق ووسطه الواضح المسؤول".

وقال أبو حيان (ج ١ / ٣٤٧): "تقدم الكلام في التبديل، أي من يأخذ الكفر بدل الإيمان" وقال أبو السعود (ج ١ / ٤٥): "ومن يتبدل الكفر، أي: يختاره ويأخذه بالإيمان) بمقابلته بدلاً منه".

وقال الشوكاني (ج ١ / ١٢٩): "يتبدل الشدة بالرخاء".

- في الآية الثانية من سورة النساء (وأتوا اليتامي أموالهم، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب).

قال الطبرى (ج ٤/٢٢٨): "ولا تستبدلوا الحرام عليكم من أموالهم بأموالكم
الحلال لكم".

وقال القرطبي (ج ٩/٥): "لا تستبدلوا الشاة السمينة من مال اليتيم بالهزيلة،
ولا الدرهم الطيب بالزيف".

وقال ابن كثير: "لا تستبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من
أموالكم" (١٤).

وقال أبو السعود (ج ٢/٢٤٠): "تهى عنأخذ مال اليتيم على الوجه
المخصوص بعد النهي الضمني عنأخذه على الإطلاق. وتبدل الشيء بالشيء
 واستبدلاته به أخذ الأول بدل الثاني بعد أن كان حاصلاً له أو في شرف الحصول،
 يستعملان أبداً بافضانهما إلى الحاصل بأنفسهما، وإلى الزائل بالباء، كما في قوله
 تعالى: "وبدلناهم بجنتيهم جنتين" إلخ، وأخرى بالعكس كما في قوله: بدللت الحلة
 بالخاتم إذا أذبتها، نص عليه الأزهري".

أما أبو حيان فلم يتعرض لهذه الآية ولم يذكر فيها شيئاً (ج ٣/١٥٠ - ١٥٢).

٤- أما الآية ٥٢ من سورة الأحزاب، وهي قوله تعالى: (لا يحل لك
 النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج) فلا جيد فيها عند الطبرى
(ج ٢٩/٢٢) ولا القرطبي ولا أبو حيان ولا ابن كثير (ج ٣/٥٠١) ولا الشوكانى
(ج ٤/٢٩٦) وقال أبو السعود (ج ٧/١١١) فلا بد أن يكون معنى التبدل بهن
 بإحلال نكاح غيرهن بدل إحلال نكاحهن.

٥- الآية ١٦ من سورة سبا (فأعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرِم
 وبدلناهم بجنتيهم جنتين نواتي أكلٌ خمطٌ وأثقلٌ وشَيْءٌ من سدرٍ قليل).

قال الطبرى (ج ٢٢/٨١): "وجعلنا لهم مكان بساتينهم من الفواكه والثمار
 بساتين من جنى ثمر الأراك".

وقال أبو حيان (ج ٢٧١/٧): "ودخلت الباء في (جنتيهم) على الزائل، وانتصب ما كان بدلاً وهو قوله (جنتين) على المعهود في لسان العرب، وإن كان كثيراً من ينتهي للعلم يفهم العكس، حتى قال بعضهم: ولو أبدل ضاداً بظاء لـ تصح صلاته، وهو خطأ في لسان العرب... وقد تكلمنا على ذلك في البقرة في قوله: "ومن يتبدل الكفر بالإيمان".

ونلاحظ في عبارة أبي حيان خللاً مردّه إلى تحريف الطباعة، صوابه: وإن كان كثيراً من ينتهي للعلم يفهم العكس، كما نلاحظ أن أبي حيان قد وهم حين أشار إلى أنه تكلم على ذلك في الآية ١٠٨ من البقرة (البحر ج ٣٤٧/١) فالواضح أنه تكلم على الباء في الآية ٦١ من البقرة (البحر ج ١/٢٨١).

وقال ابن كثير (ج ٥٣٣/٣): "فهذا الذي صير بينك الجنتين إليه بعد الشمار النضيجه والمناظر الحسنة والظلال العميقه والأنهار الجارية تبدل إلى شجر الأراك والطرافاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، وذلك بسبب كفرهم".

ويقول أبو السعود (ج ١٢٨/٧): "أذهبنا جنتيهم وأتيناهم بدلهما جنتين ذواتي أكل خمط، أي ثمر بشع".

وقال الشوكاني (ج ٤/٣٢٠-٣٢١): "أهلتنا جنتيهم اللتين كانتا مشتملتين على تلك القواكه الطيبة والأنواع الحسنة، وأعطيتاهم بدلهما جنتين لا خير فيها ولا فائدة لهم فيما هو نابت فيهما".

وقد أخرنا الموضع الذي احتاج فيه الشوكاني لعكس القاعدة بالمعاجم، وذلك عند تفسيره لآية سورة النساء. قال: "ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب، نهي لهم عن أن يصنعوا صنع الجاهلية في أموال اليتامي، فإنهم كانوا يأخذون الطيب من أموال اليتامي ويعوضونه بالرديء من أموالهم، ولا يرون بذلك بأساً. وقيل المعنى: لا تأكلوا أموال اليتامي وهي محرمة خبيثة وتدعوا الطيب من أموالكم.. فإن تبدل الشيء بالشيء أخذه مكانه. وكذلك استبداله، ومنه قوله تعالى: "ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل" وقوله "أستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير".

وأما التبدل فقد يستعمل كذلك كما في قوله "وبدلناهم بجنتيهم جنتين" وأخرى بالعكس كما في قوله بدللت الحلقـة بالخاتـم: إذا أذبـتها وجعلـتها خاتـماً. نصـ عليه الأزهـري^(١٥). ويلاحظ هنا استفادة الشوكـانـي من أبي السعـود، وكلامـاً ناقـلـ إما عن الأزهـري^(١٦) مباشرـة أو بالوسـاطـة عن طـريقـ اللسانـ.

وجاءـ في اللسانـ تـبدلـ الشـيءـ وتـبدلـ بـه وـاستـبدلـ الشـيءـ وـاستـبدلـ بـه: كـلهـ اـتـخذـ مـنـهـ بـدـلاً.. وـاستـبدلـ الشـيءـ بـغـيرـهـ وـتـبـدـلـ بـهـ إـذـا أـخـذـهـ مـكـانـهـ.. أـبـو العـبـاسـ ثـعلـبـ: يـقـالـ: أـبـدـلـ الـخـاتـمـ بـالـحـلـقـةـ إـذـا نـحـيـتـ هـذـا وـجـعـلـتـ هـذـا مـكـانـهـ (هـكـذاـ؟ـ). وـبـدـلـ الـخـاتـمـ بـالـحـلـقـةـ إـذـا أـذـبـتـهـ وـسـوـيـتـهـ حـلـقـةـ. وـبـدـلـ الـخـاتـمـ بـالـحـلـقـةـ إـذـا أـذـبـتـهـ وـسـوـيـتـهـ خـاتـماًـ^(١٧).

فالقسمـ الأولـ منـ هـذـا النـصـ يـجـعـلـ الـباءـ دـاخـلـةـ عـلـىـ المـتـرـوـكـ، والـقـسـمـ الثـانـيـ مـنـهـ يـنـقـلـ عنـ ثـعلـبـ إـجازـتـهـ دـخـولـ الـباءـ عـلـىـ غـيرـ المـتـرـوـكـ مـؤـيـداً بـثـلـاثـ جـمـلـ، وـابـنـ كـانـتـ الـباءـ تـحـلـ مـعـنـيـ التـحـولـ لـاـ الاستـبعـادـ. وـهـذـا مـاـ جـعـلـ مـجـمـعـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ الـقـاهـرـةـ يـجـيـزـ دـخـولـ (باءـ الـبـدـلـ) عـلـىـ المـتـرـوـكـ، أـوـ عـلـىـ الـمـأـخـوذـ، وـالـمـدارـ فـيـ تـعـيـنـ ذـلـكـ عـلـىـ السـيـاقـ، مـسـتـشـهـداً لـالـقـاعـدـةـ الـجـديـدـةـ بـمـاـ وـرـدـ فـيـ (تـاجـ الـعـرـوـسـ)^(١٨) مـنـسـوـبـاًـ إـلـىـ ثـعلـبـ، وـيـقـولـ طـفـيلـ الـخـيـلـ لـمـاـ أـسـلـمـ:

وـبـدـلـ طـالـعـيـ نـحـسـيـ يـسـعـدـ^(١٩)

وـإـذـا تـرـكـناـ الـمـفـسـرـيـنـ إـلـىـ مـؤـلـفـيـ كـتـبـ إـعـرـابـ الـقـرـآنـ، لـوـجـدـنـاـهـمـ غـيرـ مـهـتـمـيـنـ بـهـذـهـ الـقـاعـدـةـ، فـالـفـرـاءـ (تـ٢٠٧ـهـ) لـمـ يـتـطـرـقـ إـلـىـ وـظـيـفـةـ هـذـهـ الـباءـ، وـلـاـ استـعملـهـاـ فـيـ كـلـامـهـ، بلـ إـنـهـ اـنـصـرـفـ إـلـىـ تـفـسـيرـ أـشـيـاءـ أـخـرىـ فـيـ الـآـيـاتـ^(٢٠). وـابـنـ الـأـبـنـارـيـ (تـ٥٧١ـهـ) صـنـعـ الشـيءـ نـفـسـهـ^(٢١). وـالـعـكـبـرـيـ (تـ٦٦٦ـهـ) سـلـكـ الـمـسـلـكـ نـفـسـهـ^(٢٢)، لـكـنهـ - للـعـجـبـ - تـحـدـثـ بـوـضـوـحـ شـدـيدـ عـنـ هـذـهـ الـباءـ مـسـتـشـهـداًـ لـهـاـ. وـلـكـنـ لـيـسـ فـيـ مـوـاضـعـهـاـ بـلـ فـيـ الـآـيـةـ ٥٩ـ مـنـ الـبـقـرـةـ التـيـ لـاـ بـاءـ دـاخـلـةـ عـلـىـ الـمـتـرـوـكـ فـيـهـاـ، قـالـ تـعـالـيـ: قـبـدـلـ الـذـيـ ظـلـمـواـ قـوـلـاـ غـيرـ الـذـيـ قـيـلـ لـهـمـ. قـالـ الـعـكـبـرـيـ: قـبـدـلـ الـذـيـ ظـلـمـواـ بـالـذـيـ قـيـلـ لـهـمـ قـوـلـاـ غـيرـ الـذـيـ قـيـلـ لـهـمـ، قـبـدـلـ يـتـعـدـىـ إـلـىـ مـفـعـولـ وـاحـدـ بـنـفـسـهـ، وـإـلـىـ أـخـرـ بـالـباءـ، وـالـذـيـ مـعـ الـباءـ يـكـونـ هـوـ الـمـتـرـوـكـ،

والذي بغير باه هو الموجود كقول أبي النجم:

وَبَدَلَتِ الدَّهْرُ ذُو تَبَدُّلٍ هِيفًا دَبَّورًا بِالصَّبَا وَالشَّمَالِ

فالذى انقطع عنها (الصبا) والذى صار لها (الهيف) فكذلك ها هنا^(٢٣).

ونحن ليس من همنا هنا إجازة تعبير معين، ولا تحريم أسلوب بعينه، بل يهمنا تتبع هذه الظاهرة، ظاهرة دخول باه الاستبدال على غير المتروك، تاريخياً.

فتجد عند الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) هذا النص "إذا كان موضع الحديث على أنه مضحك مله، وداخلن في باب المزاح الطيب، فاستعملت فيه الإعراب، انتقلب عن جهته، وإن كان في لفظه سخف وأبدل السخافة بالجزالة، صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس يكر بها ويأخذ بأكظامها"^(٤).

ولا شك أن السخافة هنا ليست المستبعدة.

وأبو تمام الطانى يسير في ديوانه كله على القاعدة القديمة في هذا الأمر، إلا في موضع واحد، هو:

بَدَلَتْ بَعْدَ تَائِسِ بَتْوَحَشٍ وَأَعْرَتْ سَمْعَكَ مِنْ يَبْلَغُ أَوْ يَشْتَهِي
وَزَعَمَتْ أَنِي ذَاهِلٌ، فَمَنْ الَّذِي يُدْعِي خَلِيفَةَ عَرْرَوَةَ وَمَرْقَشَ
لَا مُتَّ اِنْ كَانَ الَّذِي بَلَغَتْهُ حَتَّى أَرَى فِي صُورَةِ اِبْنِ الْأَعْمَشِ"^(٥)

ونجد هذه القاعدة الجديدة في شعر المتتبى (ت ٤٣٥ هـ) في مدح كافور الإخشيدى:

"مِنْ لِيَضِنِ الْمُلُوكِ أَنْ تَبَدُّلَ اللَّوْنَ بِلَوْنِ الْأَسْتَاذِ وَالسَّحَنَاءِ"^(٦)

والمقام هنا مقام مدح، ولون الأستاذ الذي تمنى الملوك أن يكون لونها هو الأسود؛ فهو المطلوب لا المتروك. والعجيب أن هذا الاستعمال المخالف للاستعمال القرآني لم يلفت أنظار الذين عابوا شعر المتتبّي من القدمة؛ أمثال الصاحب بن عباد والعميدى والحاشمى، كما لم يلفت أنظار محبي الشاعر، أمثال ابن جنى والمعرى، وكذا المتوسطين بين هؤلاء وأولئك مثل القاضى الجرجانى والبديعى. بل إن المحدثين الذين تناولوا شعره بالنقد والشرح لم يلتقطوا إلى ذلك، مثل: عبد الوهاب عزام وطه حسين ومحمد محمد شاكر. زد على ذلك أن بعض الرسائل العلمية الجامعية التي ركزت على جانب الاستعمال اللغوى عند المتتبّى لم تلتفت إلى ذلك قط^(٢٧).

وإذا فتشنا في الكتب التي اهتمت بشرح ديوان الشاعر الذي ملا الدنيا وشغل الناس وجذبناها تمر على هذا البيت وما فيه بهدوء شديد دون تخطئة لهذا الاستعمال؛ بل إنها تثغر البيت وتستخدم الأسلوب الجديد نفسه؛ فتدخل الباء على غير المتروك. فها هو المعرى يقول: "إن البعض يتمون أن يستبدلوا ألوانهم بلونه، ويغيروا هويتهم بهيئته، ولكن أين لهم ذلك"^(٢٨). وفي موضع قريب يقول: "إن الملوك البعض يتمون أن يستبدلوا ألوانهم بلونه، ليراهم الأبطال الذين هم أهل الحروب بالعيون التي رأوا بها كافورا في الحرب"^(٢٩).

ويكرر الظاهر في مكان آخر فيقول شارحاً: "كنت تتزع كل يوم حلة للسؤال، وتلبس حلة جديدة، فكيف رضيت الآن بحلة لا تتزعها أبداً، ولا تبدلها بغيرها"^(٣٠). ولا شك أن غيرها هو الجديد لا المستبعد. وفي شرح يبرت يسير عليه الشاعر على النهج القرآني، نجد الشارح يضطرب في شرحه؛ ففي أول شرحه يدخل الباء على غير المتروك وفي آخر شرحه يسير على القاعدة القديمة: "إذا المنايا أبدلت فدعوهها أبدل نونا بداله الحاد".

الحاد إذا أبدل داله بالنون فهو الحاد، أي الهالك.. إذا ظهرت المنية في الحرب فدعوة المنايا أن تقول أبدل الله تعالى الحاد نونا بدال"^(٣١).

والواحدى (ت ٤٦٨ هـ) يشرح البيت بقوله: "الملوك البيض يتمنون أن يبلوا ألوانهم بلونك، وأن تكون هينتهم في اللون كهينتك" (٣٢).

وفي القرن الرابع الهجري نجد هذه الظاهرة عند الشاعر عبدالله بن جعفر السمرقندى في قصيدة قالها بعد أن فتح الفاطميون مصر:

"فقل لبني العباس: شيموا سيفكم فقدمأ عصيتم ربكم بتصورهما
وليت أمر الناس شر ولایة فبدلتم معروفةما بنكيرهما" (٣٣)

ونجد هذه الظاهرة لدى المحسن التتوخي (ت ٣٨٤ هـ) عنواناً لباب في أحد كتبه "الباب الثاني عشر فيمن أجهاء الخوف إلى الهروب واستثار فأبدل بأمن ومستجدّ نعم ومسار" (٣٤).

ونجدها في شعر محمد بن هانئ الأندلسي (ت ٣٩٢ هـ) "في هجاء شخص يعرف بابن أبي زمور، وكان حشاشاً فعاد سقاء:

"تبدل من جام الكنيف بقربة وكان طعامياً فعاد شرارياً" (٣٥)

وفي القرن الخامس الهجري نجدها في شعر الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ):

"ضحا اليوم عن ظل الشبيبة مفرقى وأبدل مسود العذار بمُيْضَن" (٣٦)

كما نجدها عند القاضي عبدالجبار الأسد أبيذى المعتزلى (ت ٤١٥ هـ): "ولذلك يصح منها نقض هذه الموضعية، وتبديلها بأخرى. وذلك يبين أن ما تواضعوا عليه إنما يثبت مع بقاء حكم الموضعية" (٣٧).

ثم نجدها في نثر الوزير الأبي (ت ٤٢١ هـ): "رأيت صبية قد وقفت على

بقال بالكوفة، وأخرجت إليه رغيف شعير وقالت له: قالت أختي: أبدل هذا الرغيف بالكسر، وأعطتها بصرفة جزراً^(٣٨).

ونجدها عند علي بن خلف الكاتب (ت ٤٣٧هـ): "ولما كانت الطباع الفاضلة ت الواقع الصواب وتبين الخطأ، وتقوى على نظم المعنى الذي تحتاج إلى إبرازه مؤلفاً تاليفاً حسناً في أكثر الأحوال، عني صرفها عما يسرت له إلى إلزامها أعظم مشقة، وتبديلها من الأسهل بالأصعب ومن الأرفه بالمتعب"^(٣٩).

وفي القرن السادس نجدها عند الفتح بن خاقان (ت ٥٢٨هـ) في أثناء قصة لأحد القضاة مع معتوه كان قد منحه دجاجة، فألومه أحد المتنادرين أنها مغرية (سردية) "فرجع إليه المعتوه بها، وأصحابه في جماعة وقال له: يا قاضي، هذه الدجاجة مغرية فابتلاها لي بسミニة... فامر فابدل لها باخرى"^(٤٠).

ثم نجدها عند ابن عساكر (ت ٥٧١هـ): "لا تستبدل صديقاً قدِّماً بصديق حديث، فإنه لا ينصحك"^(٤١).

وتكثُر هذه الظاهرَة لدى كتاب القرن السابع، فنحو نجدها عند الرازبي (ت ٦٠٦هـ): "أجمعنا على أنه لا يجوز إيدال الركوع والسجود بغيرهما، فوجب أن لا يجوز إيدال قراءة الفاتحة بغيرها، والجامع رعاية الاحتياط"^(٤٢).

ونجدها في شعر الوزغي (ت ٦١٠هـ) الذي ترك النصرانية وأسلم قائلاً:

تبَدَّلتْ مِنْ عِيسَى بِحُبِّ مُحَمَّدٍ هَدِيتْ، وَلَوْلَا اللَّهُ مَا كُنْتْ أَهْتَدِي
وَمَا عَنْ مَلَلِ كَانَ ذَاكَ وَإِنَّمَا شَرِيعَةُ عِيسَى عَطَلَتْ بِمُحَمَّدٍ^(٤٣).

ثم نجدها عند الأزدي (ت ٦٦٦هـ) يروي حكاية حدثت عام ٦٠٣هـ يقول في ختامها: "أَبْدَى مِنْ جَمِيلِهِ مَا أَبْدَلَنِي بِالنَّفَاقِ بَعْدِ الْكَسَادِ"^(٤٤).

ونجدها عند عبد اللطيف البغدادي (ت ٦٢٩هـ) يصف المجاعة التي

حصلت في مصر في أثناء رحلته إليها:

"ولكن بدلت البلاد بالذئاب والضباع ترتع في لحوم أهلها"^(٤٥)

ونجدها عند ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) ينثر بيت أبي تمام المشهور:

تردى ثياب الموت حمراً فما دجى لها الليل إلا وهي من سندس خضراء

يقول: "وأما بيت أبي تمام فابني قلت في نثره: لم تكسه المنايا نسج شفارها، حتى كسته الجنة نسج شعاراتها. فبدل أحمر ثوبه بأخضره، وكأس حمامه بكونثه"^(٤٦).

ونجدها عند ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ). في أثناء حكاية روتها: "فجاء الجار بالدرارم الزائف فدفعها إلى الولد فلم يقبلها، فأبادلها بدرارم جديدة"^(٤٧).

وفي موضع آخر من شرح النهج يذكر بعض العادات المنتشرة بين الناس، ومنها: "أن الغلام إذا سقطت له سن أخذها بين السبابية والإبهام، واستقبل الشمس إذا طلعت، وقف بها وقال: أبدلني بسن أحسن منها"^(٤٨).

ونجدها عند ابن المنير الإسكندرى (ت ٦٨٣هـ) في حاشيته على الكشاف للزمخري يقول: "وتحريفها: تبديلها، كتبديلهن الرجم بالجلد"^(٤٩).

وفي موضع آخر يفسر الزمخشري معنى قوله تعالى "يد الله فوق أيديهم" بقوله: "على طريق التخييل فقال (يد الله فوق أيديهم) يريد أن يد رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله، والله تعالى متنزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام. وإنما المعنى تقرير أن عقد الميثاق كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى "من يطع الرسول فقد أطاع الله".

فيعقب ابن المنير بقوله: "كلام حسن بعد إسقاط لفظ التخييل وابداله

وفي القرن الثامن نجدها في شعر ابن دانيال الكحال (ت ٧١٠هـ): قال
لابن الكريك التاجر:

قد كان رسمي منك شاش، وقد بدلت ذاك الشاش بالنطع

وكتب إلى نور الدين وهو أرمد:

كتبت ولحظى قد بدل نرجساً بورد، ودمعي قد ساقط منثور^(٥١)

والعلوم أن العيون تشبه بالترجس، أما الأرمد فتحمر عيناه فتصبحان
كالورد.

وهذه الظاهرة تقابلنا كثيراً في شعر صفي الدين الحلبي (ت ٧٥٠هـ) في
م الموضوعات مختلفة، ففي وصف تأثير الخمر يقول:

لو حسا ابن التسعين منها ثلاثة أبدل قوس قذفه بنقاء^(٥٢)

ويقول بعد أن عزل شمس الدين بن كبش من ولاية طريق خراسان،
ورتب مكانه نجيب الدين بن ذنب:

بشمس الدين لم تطق الرعايا فكيف وقد بدل بالنجيب
رعايا ما أطاقوا بأس كبش محل أن يطيقوا بأس ذيب^(٥٣)

وعن الصداقة يقول:

إِن الصدِيقَ إِذَا رَأَكَ مُخالِفًا لِهُواهُ، بَيْتُلَ وَهُ بَعْثَوَى^(٥٤)

وَعَنْ امْرَأَةَ تَحْدَثُ عَنْ شَيْبِهِ:

تَقُولُ لَمَّا أَنْ رَأَتْ لَمَّا نِي مَحْفُوفَةَ بِالشَّرِّ إِنَّ الْأَشْهَبَ
بَدَلَتْ مِنْ مَسَكَكَ كَافُورَةَ قَلَتْ بِلَ بِالْعَنْبَرِ الْأَشَهَبَ^(٥٥)

وأحد مؤرخي القرن الثامن (٨٠٧هـ) يذكر في حوادث ٦٩٥هـ حكاية مطولة عن ثور تكلم قبل أن يموت، فقال "... فأجابه الثور : الله عز وجل كان قد كتب على الأمة سبع سنين جدياً، ولكن لشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم أبدلها الله تعالى بالخصب"^(٥٦).

ونجد الظاهرة في شعر قيل حول حادثة حديث سنة ٧٨٣هـ، وينقل ابن حجر في الإناء قائلًا: "وفيها قبض على سيف المقدم.. واستقر عوضه أحمد العظمة، فقال الشاعر :

مَضِيَ الْمَقْدِمَ سَيِّفَ بِنْغَمَةَ وَبِتَهْمَةَ
وَكَانَ لَهُمَا سَمِيَّاً فَأَبْدَلُوهُ بِعَظَمَةَ^(٥٧)

ونجدها عند ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) في تاريخه؛ فهو يتحدث عن بربور هوارة واختلاطهم ببني سليم وأنهم قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا بفصاحة العرب، فلا يكاد يفرق بينهم"^(٥٨).

وفي موضع آخر يتحدث عن أمراء معزولين فيقول: "قدّم عوضاً عنه عمه منديل، ثم استبدل منهم أجمعين بأولاد يوسف، فشمروا في طاعته فابلوا"^(٥٩).

وفي القرن التاسع نجدها عند الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)؛ "كيماء العوام: استبدال المتع المأمور بالحطام الفاني"^(١٠).

ونجدها عند ابن المرتضى (ت ٨٤٠هـ): "لأن معنى اللوح المحفوظ معروف يتمكن من تبديله بمثله"^(١١).

ونجدها عند المقريزى (ت ٨٥٤هـ): "اللزم بعض أمراء الدولة قاضى القضاة شرف الدين بن منصور الحنفى أن يحكم له باستبدال بعض الدور الموقوفة بملك أحسن منه"^(١٢).

ثم نجدها عند ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) كثيرة:

- "استبدل السلطان خان الزكاة من ذرية الملك الناصر محمد بن قلاوون بقطعة أرض"^(١٣).

- "وكان يلثع بالجيم فيجعلها زاياً... وهو يبدل الجيم بالزاي فتضحك الناس من ذلك"^(١٤).

- "وكان على السلاخوري يبدل القاف بالهمزة كما هي عادة أوباش الناس من العامة"^(١٥).

- "وأقبل على العدل وإبداع (!) المفسدين، فبدل الجور بالعدل، والخوف بالأمن"^(١٦).

ثم نجد الظاهره عند الكفوبي (ت ٩٤٠هـ) في كلياته: "والإرداد هو عبارة عن تبديل كلمة بردفها من غير انتقال من لازم إلى ملزوم"^(١٧).

والكتفوبي هنا يخالف القاعدة التي ذكرها في بداية كتابه عندما قال: "والإبدال والتبدل إذا استعملما بالباء نحو (أبدل الخبريت بالطيب) و(تبديل به) فلا تدخل الباء حينئذ إلا على المتروك. والتبدل مثلكما"^(١٨).

ونجدها في القرن الثاني عشر الهجري عند الحمي (ت ١٥١هـ)، ففي
قصيدة لمعاصره الحسين بن الحسن العوامي كتبها إلى الحسين الأخفش، قال:

فلا زال كهفًا للعلوم وأهلها فوجدانه باليسير قد بدل العسر^(٦٩)

وهي موجودة في ترجمة معاصره محمد بن أحمد المفضل: ولما قلب
الdeer ظهر الجن، وببدل أيام المسرة بالشجن. ضاق به العيش، وطاش عقله أي
طيش^(٧٠).

وتستمر هذه الظاهرة في العربية المكتوبة، فنجد لها عند الشوكاني
(ت ١٢٥هـ) في ترجمة ابن بريدة من رجال القرن التاسع: لا جرم قد أبدله
الله بسلطان خير من سلطانه، وجيران أفضل من جiranه، ورزق أوسع مما
منوعه، وجاء أرفع مما حسدوه عليه^(٧١).

ونجد هذه الظاهرة بعد نحو قرن عند الشيخ محمد عبده، في مقال نشر في
١٨٨١/٥/١١، يقول فيه: فمن كانت رغبتها إلى كتب أبو زيد وما معها
من الكتب؛ كعنترة عبس وغيرها، أن يستبدلها بكتب التاريخ الصحيحة، كتاريخ
المصري وتاريخ إظهار أنوار الجليل لحضررة رفاعة بك، وتاريخ الكامل لابن
الأثير^(٧٢).

ثم نجد لها في تعليقات المرصفي على حماسة أبي تمام، حين يقول عنه إنه
كثيراً ما كان يعتمد على ذوقه، فأحياناً يقدم ويؤخر في أبياته، وأحياناً يبدل بعض
كلمات العرب بكلماته^(٧٣).

وسيطول بنا الوقت لو أخذنا ن تتبع هذه الظاهرة في العربية الفصحى
المعاصرة، التي أصبحت فيها الباء تدخل على غير المتروك بصفة عامة؛ إلا
عند أفراد معدودين من ذوي الثقافة اللغوية الواسعة، أو عند من اطلع على شيء
من كتب التصحيح اللغوي واقتصر - بعد عرض الشواهد القرآنية - أن باء

الاستبدال تدخل على المتروك (- المستبعد، والمزال).

ونظن أن سيطرة القاعدة الجديدة/ القديمة للباء ترجع إلى أن الذهن يرى أن يبدل شيئاً بشيء، فأول ما يرد إلى الذهن هو المستبعد ثم يليه المطلوب الذي تتعلق به الباء.

ونختتم تتبعنا لهذه الظاهرة لأربعة أدباء راحلين، بادرين بأمير الشعراء (ت ١٩٣٢م):

"أنا من يبدل بالكتب الصحابا لم أجده لي وافي إلا الكتاب"^(٧٤)

ونشي بجبران خليل جبران (ت ١٩٣٢م) في مقال له نشر في مجلة الهلال القاهرة عام ١٩٢٣م. يقول: "فالتشویش في شرعي ينفع دائمًا، لأنه يبين ما كان خافياً في روح الأمة، ويبدل نشوتها بالصحو، وغيبوبتها باليقظة،... ولكنه لا ولن يبدل مللها بالوجود وضجرها بالحماسة... ولا يتم هذا حتى نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا، لأن المسؤول المحتاج لا يستطيع أن يستطع أن يتشرط على المتصدق الأريحي".^(٧٥).

ونثني بمارون عبود (ت ١٩٦٢م) فنجدها في حديثه عن الفلاح الذي أصبح جندياً. "ها هو يستبدل المساس بالطنبجة، والسيف والغدارة والقرابية، وجراب البدور يصبح كنانة الفلاح البطل".^(٧٦).

ونجدها - في ختام كلامنا - لدى عمر فاخوري (ت ١٩٦٤م) عندما تحدث عن بيت شعر للمتنبي، فانتقد النحاة والبيانيين، لأنهم لم يقروا عند هذا البيت "حين لم تستوقفهم فيه نادرة نحوية أو لغوية، ولا مسألة صرفية أو بيانية، مما جرت عليه العادة أن يعيروه نظراً واهتمامًا، حتى ولا لفظة غريبة يتكلفون مشقة إيدالها بل لفظة أخرى تكون أقرب تناولاً وأكثر تداولاً".^(٧٧).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المراجع والإحالات والحوالى

- (١) علي بن عيسى الرمانى: معانى الحروف، تتح عبد الفتاح إسماعيل شلبي، القاهرة: نهضة مصر ١٩٧٣م، ص ٣٦٤-٣٦٥.
- (٢) أحمد بن عبد النور المالقى: رصف المباني فى شرح حروف المعانى، تحقيق أحمد محمد الخراط، مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧٥م، ص ١٤٣-١٤٧.
- (٣) حسن بن قاسم المرادى: الجنى الدانى فى حروف المعانى، تحقيق طه محسن، جامعة بغداد ١٩٧٧م، ص ٢٠٨-١٠٨.
- (٤) جمال الدين بن هشام الأنصارى: مغنى اللبيب عن كتب الأعشاريب، تحقيق مازن المبارك و محمد على حمد الله، دمشق: دار الفكر ١٩٦٤ ج ١/١٠٦-١٠٧.
- (٥) محمد عبدالخالق عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القاهرة: ط حسان ١٩٧٥م، ق ١ ج ٢، ص ٣-٥٧.
- (٦) محمد عبدالخالق عضيمة: دراسات، ق ١ ج ٢، ص ١٥.
- (٧) ابن هشام: مغنى اللبيب، ج ١/١١٠.
- (٨) في ورود هذا الفعل في القرآن الكريم بالباء وبدونه، راجع: محمد فؤاد عبدالباقي: المعجم المفهرس للفاظ القرآن، القاهرة: دار الكتب المصرية ١٩٣٩م، ص ١١٥-١١٦.
- (٩) أبو حيان، محمد بن يوسف الغرناطى: تفسير البحر المحيط، القاهرة ط المساعدة، ١٣٢٨هـ.
- (١٠) محمد بن جرير الطبرى: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، القاهرة: ط مصطفى الطبى ١٩٥٤ ج ١/٣١٢.
- (١١) محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن الكريم، تصحیح أحمد عبدالعليم البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة دار الكتب المصرية ١٩٥٧-٥٢م، ج ٤٢٨/١.
- (١٢) أبو السعود محمد بن محمد العمادى الحنفى: تفسيره المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، بيروت: دار إحياء التراث العربى، ج ١/١٠٧.
- (١٣) محمد بن علي الشوكانى: فتح القدير الجامع بين فنی الروایة والدرایة من علم التفسیر، القاهرة: ط عيسى الطبى ١٩٦١م، ج ١/٩٣.
- (١٤) عماد الدين، أبو القداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى: تفسير القرآن العظيم، بيروت: دار المعرفة ١٩٦٩م، ج ١/٤٤٩. لم ترد الباء ولا الفعل فى كلامه فى الموضوعين السابقين، انظر ج ١٠١-١٠٢ و ١٥٢-١٥٣.
- (١٥) الشوكانى ج ١٤٩/١.
- (١٦) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري: تهذيب اللغة، مادة (بدل) ج ١٤ (تحقيق يعقوب عبدالنبي)، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٧م، ص ١٣٢.

- (١٧) محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، تحقيق عبدالله على الكبير و محمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشانلي، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨١-٧٧، مادة (بدل) من ٢٣١ وقارن بالمادة نفسها في المصباح المنير للفيومي.
- (١٨) محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس شرح جواهر القاموس، القاهرة: ط الخيرية ١٤٠٧-١٤٠٥ هـ - مادة (بدل) ج ٢٢٢/٧.
- (١٩) مجمع اللغة العربية، القاهرة: كتاب الألفاظ والأساليب ج ١/٣٧.
- (٢٠) يحيى بن زياد الفراء: معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف نجاتي و محمد على النجار و عبد الفتاح إسماعيل شلبي، ط ٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠-٧٢، ج ٤٢/١، ٤٢/١، ٤٣٦، ٤٣٨ وج ٤٣٩-٤٥٨.
- (٢١) أبو البركات عبدالرحمن الأباري: البيان في غريب اعراب القرآن، تحقيق طه عبد الحميد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠-٦٩، ج ١/٨٦، ٨٧، ٨٦، ١١٧، ٢٤٠، ٢٤١ وج ٢٧٢/٢، ٢٧٩.
- (٢٢) أبو البقاء عبدالله الحسين العكيري: التبيان في اعراب القرآن تحقيق علي محمد الجاوي القاهرة: ط مصطفى الح簸 ١٩٧٥، ج ١/٣٢٧، ٦٨، ٦٩، ١٠٤، ١٠٥ وج ٢/١٠٥٩-١٠٦٦.
- (٢٣) العكيري: التبيان ج ١/٦٦-٦٧ وقول أبي النجم غير منسوب في اللسان (بدل) ص ٢٣٢.
- (٢٤) الجاحظ: الحيوان، تح عبد السلام هارون، القاهرة: ط مصطفى الح簸 ١٩٦٥، ج ٣/٣٩.
- (٢٥) ديوان أبي تمام الطائي بشرح الخطيب التبريزي، تح محمد عبده عزام، القاهرة: دار المعارف ١٩٨٠، ج ٤/٣٨٨.
- (٢٦) ديوان المتتبّي: العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب لنصاصيف اليازجي، بيروت ١٨٨٨، ص ٤٧٩.
- (٢٧) من ذلك: (أ) محمد عزت عبد الموجود: الظواهر اللغویة والنحویة في شعر أبي الطيب المتتبّي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الأداب، جامعة القاهرة ١٩٤٣م.
 (ب) علي محمد علي فاخر: الأخطاء النحوية والصرفية في شعر المتتبّي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، القاهرة ١٩٧٩.
- (٢٨) أبو العلاء المعرى: معجز أحمد، شرح ديوان أبي الطيب المتتبّي، تح عبدالحميد دباب، القاهرة: دار المعارف ١٩٨٨-٨٦، ج ٤/٣٩.
- (٢٩) المعرى: معجز أحمد، ج ٤/٤ وانتظر شرح البرقوقي ١٥٩/١ (مصور) دار الكتاب العربي، بيروت. د. ت.
- (٣٠) معجز أحمد ج ٤/٢٢٥.

(٣١) معجز أحمد ج ٤/٣٨٥.

(٣٢) ابن المستوفى الإربلي: النظام في شرح شعر المتّبّي وأبي تمام، تتح خلف رشيد نعسان، بغداد: دار الشؤون الثقافية ١٩٨٨ ج ١/٤٤٦.

(٣٣) محمد العلياوي (محقق): الأدب بأفريقيّة في العهد الفاطمي (٢٩٥-٢٩٦) بيروت: الغرب الإسلامي ١٩٨٦م، ص ٣٤٦.

(٣٤) القاضي المحسن بن علي التخوخي: الفرج بعد الشدة، تتح عبود الشالجي، بيروت: دار صادر ١٩٧٨م، ج ٤/٢٦٨.

(٣٥) محمد العلياوي: الأدب بأفريقيّة، ص ٣٣٤ والخطائش: الذي يفرغ المراحيض بعد امتلانها.

(٣٦) ديوان الشريف الرضي، صنعة أبي حكيم الخبري، تتح عبد الفتاح محمد الحلو، بغداد: وزارة الإعلام ١٩٧٩م ج ٢/٣٥.

(٣٧) القاضي عبدالجبار بن أحمد الهمذاني: المغني في أبواب العدل والتّوحيد، ج ٥ تحقيق محمود محمد الخصيري ص ١٦ (وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة ١٩٦٥م).

(٣٨) أبو سعد منصور بن الحسين الأبي: نثر الدر، تتح محمد علي قرنة، الهيئة المصرية للكتاب بالقاهرة ١٩٨٤-٨١م ج ٣/٢٨١. والصرف: الفرق بين الدرهم والدينار، انتظر لمان العرب (صرف) ص ٢٤٣٥.

(٣٩) علي بن خلف الكاتب: مواد البيان، تتح حاتم صالح الضامن، مجلة المورد بغداد ١٩٨٨م، مج ج ٢/١٤٢.

(٤٠) الفتح بن خاقان الأندلسي: مطبع الأنفس ومسرح التّائس في ملح أهل الأندرس، تتح هدى شوكة بهنام، بيروت: دار الفصوص ١٩٨٩م ص ٩٣.

(٤١) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق (تراث حرف العين المتنورة بالألف من عاصم إلى عايد الله) تتح شكري فيصل، مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٧هـ، ص ٢٢٨.

(٤٢) فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، بعناية محمد إسماعيل الصاوي، القاهرة: ط البهية ١٣٥٧هـ، ج ١/١٩٣.

(٤٣) ابن سعيد المغربي: المغرب في حل المغرب، تتح شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف ١٩٦٤هـ، ج ١/٢٢٠.

(٤٤) علي بن ظافر الأزدي: بدانع البدانه، تتح محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٠، ص ٣٢٥.

(٤٥) عبداللطيف البغدادي: كتاب الإفادة والاعتبار، تتح أحمد غسان مبانو، دمشق: مكتبة أسامة ١٩٨٢م، ص ٩٢.

(٤٦) ضياء الدين نصر الله بن محمد الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تتح أحمد الحوفي وبدوي طبابة، القاهرة نهضة مصر ١٩٧٣م، ج ١/١٠٧.

- (٤٧) عز الدين عبدالحميد بن أبي الحميد المدائني: شرح نهج البلاغة، تتح محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة: ط عيسى الحلبي ١٩٦٧-٦٥ م، ج ١١، ٢٢٠.
- (٤٨) شرح نهج البلاغة ج ١٩/٣٩٧.
- (٤٩) أحمد بن محمد المنير الإسكندراني: الانتصاف فيما تضمنه الكثاف من الاعتزال (على حاشية الكثاف للزمخشري) مصور دار المعرفة، بيروت، د. ت، ج ١/٥١٣.
- (٥٠) الانتصاف (على حاشية الكثاف للزمخشري) ط ٣، القاهرة: ط مصطفى الحلبي ١٩٦٦ م، ج ٣/٥٤٣.
- (٥١) محمد بن دانيال الموصلي: المختار من شعر بن دانيال، اختيار صلاح الدين الصفدي، تتح محمد نايف الدليمي، الموصلي: مكتبة بسام ١٩٧٩ م، ص ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، وفي شاهد آخر من ١٢١ من شرح المصنفون به على غير أهله لعبد الله بن عبد الكافي، أتمه عام ١٩٢٤هـ، ط القاهرة ١٩١٣ م.
- (٥٢) ديوان صفي الدين الحلبي، دار صادر، بيروت ص ٥١٦.
- (٥٣) ديوان الحلبي، ص ٦٣٥.
- (٥٤) ديوان الحلبي، ص ٦٥٤.
- (٥٥) ديوان الحلبي، ص ٦٧٧.
- (٥٦) تاريخ محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، تتح قسطنطين زريق ونجاء عز الدين، بيروت: الجامعة الأمريكية ١٩٣٩ م، ج ٨/٢٠٣.
- (٥٧) أحمد بن محمد بن حجر العسقلاني: إحياء الفهر بأبناء العمر، حيدر أباد الدكن: جمعية دائرة المعارف العثمانية ١٩٧٦-٦٧ م، ج ٢/٤٣.
- (٥٨) عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر، القاهرة: دار الطباعة الخديوية ١٢٤٨هـ، ج ٦/٢٨٨.
- (٥٩) كتاب العبر ج ٦/١٤٩. وانظر أمثلة أخرى في ج ٦/٢٠٥، ج ٦/٧٧.
- (٦٠) الشريف الجرجاني: التعريفات، بغداد: دار الشئون الثقافية ١٤٠٦هـ، ص ١٠٦.
- (٦١) محمد بن ابراهيم بن علي المرتضى اليماني: ليثار الحق على الخلق، بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت، ص ١٢٤.
- (٦٢) نقى الدين المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تتح سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة: دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م، ج ٣ ق ١ ص ٢٦٩.
- (٦٣) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، القاهرة: دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م، ج ١١/٢٣٩.
- (٦٤) النجوم الزاهرة، تتح فهيم محمد شلتوت، القاهرة الهيئة المصرية العامة للتأليف ١٩٧٠ م، ج ١٢/١٧٣ وانظر مثلاً آخر في ج ١٤/٢٥٥ (تح فهيم شلتوت وجمال محمد محزز).
- (٦٥) النجوم الزاهرة ج ١٥/١٧١ (تح ابراهيم علي طرخان ١٩٧١ م).
- (٦٦) المصدر السابق ج ١٦/١٢٥ (تح جمال الدين الشيباني وفهيم محمد شلتوت ١٩٧٣ م).

- (٦٧) أبو البقاء الكوفي: الكليات، تتح عدنان درويش ومحمد المصري، دمشق ووزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٨١م، ج ١١١/١.
- (٦٨) الكليات ج ٢٥/١.
- (٦٩) أحمد بن محمد الحميي الكوكباني: طيب السر في أوقات السحر، تتح عبدالله محمد الجبشي، صنعاء: مكتبة الإرشاد ١٩٩٠م، ص ٢٦٩.
- (٧٠) طيب السر، ص ٣٢١.
- (٧١) محمد بن علي الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، القاهرة: ط المساعدة ١٣٤٨هـ، ج ٤١/١.
- (٧٢) محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام، ط ٢، القاهرة: المinar ١٣٤٤هـ، ج ١٥٦.
- (٧٣) سيد بن علي المرصفي: أسرار الحمامة، القاهرة: مطبعة أبي الهول ١٣٢٠هـ، ص(ز).
- (٧٤) أحمد شوقي: الشوقيات، ط التجارية بالقاهرة ١٩٣٥م، ج ١٨/٢.
- (٧٥) جبران خليل جبران: مستقبل اللغة العربية (ضمن أعماله الكاملة) بيروت: دار صادر ١٩٥٩م، ج ٣ ص ٥٥٢-٥٤٤.
- (٧٦) مارون عبود: سبل و منهاج، بيروت ١٩٥٠م، ص ٥٦، والمساس: منحسن البقر.
- (٧٧) عمر فاخوري: النصول الأربع، بيروت: دار الثقافة ١٩٧٢م، ص ٨٨.

رابعاً: أخبار مجتمعية

إصدارات

١- بيلي ولاف: الموجز في ممارسة الجراحة

انطلاقاً من الأهداف التي نص عليها قانون مجمع اللغة العربية الأردني فإن المجمع يعمل كل ما في وسعه من أجل الحفاظ على سلامة اللغة العربية وجعلها توافق متطلبات الآداب والعلوم والفنون الحديثة. ولتحقيق هذا الهدف القومي النبيل فإن المجمع يحرص على تشجيع التأليف والترجمة والنشر، ونقل العلم والتكنية الحديثة إلى اللغة العربية لتحتل هذه اللغة مكانتها اللائقة بها في مؤسساتنا العلمية والتعليمية ولتصبح لغة التدريس والبحث العلمي على مستوى الوطن العربي. كما يحرص على إغناء المكتبة العلمية العربية الحديثة ورفدها بأحدث الكتب العلمية في مختلف التخصصات. وقد أصدر المجمع ضمن مشروعه لتعريب التعليم العلمي الجامعي ثمانية عشر مرجعاً علمياً في الفيزياء والكيمياء والرياضيات والعلوم الحياتية وعلوم طبقات الأرض من مستوى السنتين الجامعيتين الأولى والثانية، وأصدر مجموعة من المصطلحات العلمية والتكنولوجية. كما دعم إصدار بعض الكتب في مجال العلوم الطبية.

وإن مجمع اللغة العربية لواتق أن تعريب التعليم العلمي الجامعي في جميع مستوياته ومؤسساته العلمية والتكنولوجية ضرورة قومية للمحافظة على اللغة العربية التي تعد ركيزة أساسية من ركائز وحدة أمتنا العربية وأن الإبداع العلمي والفكري لا يكون إلا باللغة العربية القومية.

وحرصاً من المجمع على الاستمرار في مشروعه الرامي إلى تعريب التعليم الجامعي فقد عهد إلى لجنة العلوم الصحية في المجمع لاختيار مصدر مهم من مصادر الجراحة العامة، فاختارت كتاب

لما كانته العلمية الرفيعة وانتشاره الواسع عالمياً وفي الوطن العربي، حيث صدرت أولى طبعاته باللغة الانجليزية عام ١٩٣٢م، وتواترتطبعات بانتظام. وبعد وفاة مؤلفيه تعاقبت عليه نخبة من المحررين المرموقين حتى الطبعة الثانية والعشرين التي صدرت عام ١٩٩٥م. وقد ترجم هذا الكتاب إلى خمس عشرة لغة لم تكن العربية واحدة منها.

ويعد هذا الكتاب أحد المراجع الرئيسية في الجراحة على مستوى البكالوريوس والدراسات العليا الجامعية، وهو في الوقت نفسه مرجع جراحي مهم للطبيب الممارس العام والمتخصص.

ويحتوي هذا الكتاب على ثلاثة وستين فصلاً، وقد صدر بالعربية في أربعة أجزاء، كل جزء منها يتضمن المواد الطبية المتشابهة. يتضمن الجزء الأول مبادئ الجراحة، والجزء الثاني جراحة العظام والأعصاب، والجزء الثالث جراحة الرأس والعنق والغدد الصماء والصدر والقلب، ويتضمن الجزء الرابع السبيل الهضمي والجهاز التناصلي البولي.

ويأمل مجمع اللغة العربية الأردني، بإصدار هذا الطبعة العربية الأولى لهذا المرجع المهم في الجراحة، أن يجد فيه المتخصصون والطلبة وخاصة والمهتمون بعلم الطب الجامعي بعامة النفع الكبير، كما تأمل أن يكون هذا العمل المتواضع حافزاً لهم جميعاً للعمل على جعل اللغة العربية لغة العلم والبحث العلمي في العلوم الطبية والعلوم الطبيعية لتحتل هذه اللغة مكانتها اللائقة بها في مختلف الكليات العلمية في جامعاتنا العربية، وأن تكون لغة التدريس والبحث العلمي.

ترجمة الكتاب

ألف المجمع هيئة تحرير لهذا الكتاب من الأستاذ الدكتور أحمد شيخ السروجية والأستاذ الدكتور محمود أبو خلف والأستاذ الدكتور أكرم الدجاني والدكتور عبدالله البشير. ورأى أن يشترك في هذا العمل أكبر عدد من ذوي

الاختصاص، فاختار ثلاثة وأربعين متخصصاً من المرموقين في اختصاصاتهم الجراحية في مختلف القطاعات الطبية في الأردن، ليقوموا بإنجاز هذا العمل العلمي القومي النبيل. وأقبل الزملاء على هذا العمل بجد وحماسة. وجرت مراجعة المادة مراجعة علمية وفق المنهجية التي يتبعها المجمع قفابلت بين النصين العربي والإنجليزي، والتزمت، ما أمكن، باستعمال المصطلحات العلمية كما جاءت في المعجم الطبي الموحد، حرصاً على توحيد المصطلح الطبى العربي، واعتمدت هيئة التحرير العلمي أسلوباً سهلاً في عرض المادة. وحرصت أيضاً على وضع المصطلحات الأجنبية إلى جانب المصطلحات العربية في المتن. ومن ثم دفعت المادة المترجمة إلى المراجع اللغوي الذي ضبط سلامة اللغة العربية نحو وإملاء.

ميزات الطبعتين الأخيرتين

احتفظت الطبعة الحادية والعشرون من هذا الكتاب الشهير بمكانته العلمية من حيث هو مرجع علمي عالمي. وقد نال الكتاب الإعجاب الواسع لتقديمه قواعد الممارسة الجراحية بمنهج مباشر موجز بإشراف جراحين خبراء متخصصين في تخصصاتهم المختارة. وقد حافظت الطبعة الثانية والعشرون كذلك على المبادئ التي كانت وراء نجاحطبعات السابقة وتطورتها.

واستمر في الطبعة الثانية والعشرين التركيز على أهمية الملاحظات السريرية بجانب سرير المريض، وال الحاجة إلى إيجاد العلامات الجسدية الدقيقة للوصول إلى التشخيص الصحيح. وعلى الرغم من وصف أساليب الاستقصاءات الحديثة والاعتراف بمساهماتها المهمة، فقد بني الكتاب على أن الممارسة الجراحية السديدة تعتمد أولاً على مهارات الجراح وملوماته، وثانياً على مقدرة الأقسام المتخصصة والمخبرات المساعدة.

وقد وجه المجمع رسائل إلى رؤساء مجتمع اللغة العربية وإلى رؤساء الجامعات العربية وعمداء كليات الطب في الوطن العربي تضمنت تعريفاً موجزاً بهذا الإنجاز لكي تستفيد منه الهيئات التدريسية والعلمية في هذه المؤسسات.

ويطلب هذا الكتاب من:

مجمع اللغة العربية الأردني - عمان

بجوار مسجد الجامعة الأردنية

ص.ب (١٣٢٦٨)

٨٤٣٥٠٠

٨٤٣٥٠١

الهاتف:

٨٤٣٥٠٢

٨٤٣٥٥٣

ناموسخ (فاكس) ٨٤٣٥٠٠

سعر الكتاب:

للأجزاء الأربع
مجتمعة

٥٠ ديناراً أردنياً - داخل الأردن

أو

٧٧ دولاراً أمريكياً - خارج الأردن

لكل جزء من
الأجزاء الثلاثة
الأولى

١٢ ديناراً أردنياً - داخل الأردن

أو

١٧ دولاراً أمريكياً - خارج الأردن

للجزء الرابع

٤٤ ديناراً أردنياً - داخل الأردن

أو

٣٤ دولاراً أمريكياً - خارج الأردن

يضاف إلى ذلك أجور الشحن أو البريد

٢ - كتاب "الموسوم الثقافي الخامس عشر لمجمع اللغة العربية
الأردني":

أصدر مجمع اللغة العربية الأردني حديثاً كتاب "الموسوم الثقافي الخامس
عشر" الذي اشتمل على محاضرات الموسم الثقافي التي ألقاها في المجمع في
الفترة من ٣ أيار - ٧ حزيران ١٩٩٧ م.

وقد تضمن الكتاب أيضاً المحاضرة التي ألقاها الأستاذ أحمد شفيق الخطيب رئيس دائرة المعاجم في مكتبة لبنان - بيروت بعنوان: "المواصفات المصطلحية وتطبيقاتها في اللغة العربية" التي ألقاها في ندوة "العربية وتحديات القرن الحادي والعشرين" التي عقدت في البحرين خلال الفترة من ١٤-١١ أيلول ١٩٩٥م.

ويأتي حرص المجمع على إقامة موسمه الثقافي كل عام ليكون مساهمة فاعلة في تشجيع الحركة الثقافية، ومعالجة كثير من القضايا التي تتعلق باللغة العربية وتيسير تعليمها وتعزيز مكانتها، لتكون لغة التدريس الجامعي والبحث العلمي في جامعاتنا العربية ومؤسساتها العلمية.

وقد اختار المجمع هذا العام موضوع "التعريب في الوطن العربي" محوراً لموسمه الخامس عشر، وتم اختيار علماء من ستة أقطار عربية هي سورية والأردن والعراق وتونس والسودان ومصر، قدم كل عالم دراسة موضوعية للتعريب في قطره من حيث الواقع والمستقبل ومن حيث ما يتلمسه من قضايا وما يقترحه من حلول.

ومجمع وهو يقدم كتاب الموسم الثقافي الخامس عشر ليأمل أن يكون وثيقة تاريخية لمسيرة التعريب في الوطن العربي.

المؤتمرات والندوات والمحاضرات

انطلاقاً من حرص المجمع على المشاركة الفاعلة في المؤتمرات والندوات العلمية والأدبية التي تعقد داخل الأردن وخارجه فقد شارك المجمع في الموسام والندوات التالية:

١ - الموسم الثقافي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في الأردن:

أقام المكتب الإقليمي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في الأردن موسمًا ثقافياً برعاية الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفه رئيس المجمع، كان موضوعه